
الفطرية
بعثة التجديد المقبلة
من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام
تأليف
فريد الأنصاري
دار السلام



مِنَ الحَرَكَةِ الإِسْلَامِيَّةِ إِلَى دَعْوَةِ الإِسْلَامِ

تأليف
فريد الأنصاري

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الثانية

١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية – إدارة الشؤون الفنية

الأنصاري ، فريد .

القطرية بعثة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام / تأليف : فريد الأنصاري . – ط ١ – القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، [٢٠٠٩م] .

٢٧٢ ص ؛ ٢٤سم .

تدمك ٨ ٧٢١ ٣٤٢ ٩٧٧

١ – الإسلام – حركات الإحياء والإصلاح والتجديد .

أ – العنوان .

٢١٩

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عقد الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية – القاهرة – الإسكندرية

الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا – المتفرع من شارع نور الدين بهجت – الوازي لامتداد شارع مكرم عبيد – مدينة نصر

هاتف : ٢٢٨٧٣٣٤٦ – ٢٢٧٠٤٢٨٠ – ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)

فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي – هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس – مدينة نصر – هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)

فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر – الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين

هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)

بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية – الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com



مدخل قرآني

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٢٩ - ٣٢].

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلۡعَظِيمُ

* * *



الموضوع	الصفحة

* * *

إهداء

إلى حُمَّالِ رِسَالاتِ القُرآن..
السَّالِكِينَ بِهَا إلى اللهِ، تَعَبُّدًا وبَلاغًا..
الْمُكَابِدِينَ بِهَا مِحَنَ هذَا الزَّمَان!
إلى بَلابِلِ اللَّيالِي الخُضْر..
الْمُرَتِّلَةِ خَوفَهَا ورَجَاءَهَا بِمَحَارِيبِ السَّحَر!
إلى طَلائِعِ الخُيُولِ الغُبْر..
المُورِيَةِ بِسَنَابِكِهَا لَهِيبَ الفَتْحِ المُبِين
سَلامًا وأمَانًا للعَالَمِين!
إلى أجيَالِ الشَّبَابِ الصَّادِقِ المُؤْمِنِ..
﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩]
إلَيكُم سَادَتِي.. أُهْدِي هَذِهِ اللَّوْعَاتِ..!

خادمكم المحب
فَرِيد الأنْصَارِي

* * *



خطبة الكتاب

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. مَن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده؛ حتى آتاه اليقين.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

اللَّهُمَّ إني أعوذُ بكَ أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ، وأعوذُ بكَ أنْ أَزِلَّ أو أُزَلَّ، وأعوذُ بكَ أنْ أَظلِم أو أُظلَم، وأعوذُ بكَ أنْ أَجْهَلَ أو يُجْهَلَ عليَّ، وأعوذُ بكَ أنْ أبْغِيَ أو يُبْغَى عَلَيَّ، وأعوذ بكَ من كلِّ بَلِيَّةٍ وفِتْنَةٍ ظاهرةٍ أو باطنةٍ، مُقْبِلَةٍ أو مُدْبِرَةٍ.

اللَّهُمَّ إني أعوذُ بكَ من الهمِّ والحَزَنِ، وأعوذ بكَ من العجزِ والكسلِ، وأعوذُ بك من الجُبْنِ والبخلِ، وأعوذُ بكَ من غَلَبَةِ الدَّيْنِ وقَهْرِ الرِّجَالِ.

اللَّهُمَّ إني أعوذُ بكَ مِنْ قَسْوَةِ القَلْبِ وطُغْيَانِ القَلَمِ، ومِنْ زَيْغِ البَصَرِ وزَلَّةِ اللِّسَانِ، وأَعُوذُ بِكَ رَبِّي مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَع، ومِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَع، ومِنْ عَيْنٍ لاَ تَدْمَع، ومِنْ هَوًى مُطَاعٍ وَشُحٍّ مُتَّبِع، وأَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ نَفْسِي وَهَوَاهَا، ومَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ بِرُؤَاهَا، نَجِّهَا اللَّهُمَّ مِنْ طُغْيَانِهِ وَطَغْوَاهَا، وَاعْصِمْهَا مِنْ فُجُورِهَا بِتَقْوَاهَا، وأَلْهِمْهَا صَلاحَهَا وَهُدَاهَا! أنتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاهَا.

ثم أما بعد: فإن قضية هذا الكتاب راجعة إلى إثبات أمرين اثنين:

أولهما: إثبات أن طبيعة التدافع الحضاري بين الأمة وخصومها قد دخل مرحلة أخرى من تاريخه، مرحلة ذات اختلاف كمي ونوعي؛ حيث صار الرهان الغربي اليوم قائمًا على تدمير الفطرة الإنسانية في الأمة؛ بما يجعلها قابلة للابتلاع العَوْلَمِيّ الجديد! في دينها، وأخلاقها، وقيمها الحضارية، وفي سياستها، واقتصادها،

وعمرانها، وسائر نمط عيشها على الإجمال! بما نعتقد أنه لم يمر مثله في التاريخ بهذا العمق، وبهذه الإحاطة والشمول! نعم، قد مرت على الأمة فتن أنكى وأشد! لكن بأشكال وصور جزئية. فتن مريرة – والعياذ بالله – لكنها كانت تضرب من الأمة جانبًا دون جانب، وتثير قضية دون أخرى، كما وقع مرارًا في التاريخ، من الابتلاء بفتن الخوف والجوع. أما اليوم فالخطب أدهى! وإن ساد الأمن نسبيًا كثيرًا من البلاد الإسلامية – والأمن العام نعمةٌ من الله عظيمة، لا يحقرها إلا جاهلٌ بالله أولاً، ثم جاهلٌ بالواقع وبالتاريخ – إلا أن الخطر الجديد مع ذلك من الناحية الحضارية أشد؛ لأنه يستهدف الوجود الشخصاني للأمة بأكمله، ويحاول اجتثاثه من أصله! بوسائل أكثر تدميرًا وأشد تغييرًا، ربما كان الأسلوبُ العسكري منها أقلَّ قوةً وأهونَ تأثيرًا.

نعم؛ لن يتمكن الغرب من ذلك أبدًا؛ تلك عقيدتنا، وليست محن الأمة اليوم إلا بشائر في طريق العودة – إن شاء الله – إلى اعتلاء موقعها الذي جعلها الله فيه ابتداءً، موقع الشهادة على الناس! فإنما هي فتن التمحيص والابتلاء: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف : ١١٠]. وقال سبحانه: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٨، ٩]. وبعض أهل العلم المعاصرين يرون أن الظهور على « الدين كله » إنما يكون بعالمية الإسلام التي ستتحقق في هذا العصر.

ومن هنا تواترت المبشرات عن رسول الله ﷺ بظهور هذا الدين على الأرض كلها، ويكفينا من ذلك هذا الخبر النبوي الصحيح المليح، الذي يرويه الصحابي الجليل تميم الداري ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « **لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ والنَّهَارُ! ولاَ يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ ولاَ وَبَرٍ إلا أدْخَلَهُ اللَّهُ هذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أو بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإسْلاَمَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الكُفْرَ** » [1] ويبدو أن العالم مهيأ

(١) رواه أحمد، والحاكم، وابن منده، عن تميم الداري مرفوعًا، وقال: صحيح الإسناد. كما رواه ابن حبان، والحاكم، والبيهقي، والطبراني في الكبير، كلهم عن المقداد بن الأسود. وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في =

لهذا اليوم أكثر من أي وقت مضى، رغم ما يكتنف واقع المسلمين من محن وفتن.

لكن عبارة (حتّى) التي في آية البقرة لها حقُّها؛ إذ لا يتحقق ما بعدها من فرَجٍ إلا بما قبلها من ضيق وحرج، وهي في هذا العصر فتنة شديدة ومحنة مريرة، لها دورتُها ولها إبّانُها، ظلمات من الشبهات والشهوات ذات طبيعة أخرى، تعصف بفطرة الإنسان المسلم اليوم رَغَبًا ورَهَبًا، بما هو فردٌ ووطنٌ وأمة فتحطم دوحتَه وتمسح هويتَه بشتى الوسائل الثقافية، والتعليمية، والاجتماعية، والاقتصادية، والإعلامية، والسياسية، والعسكرية.. إلخ؛ لتنحط به في دَرَكِ البهيميّةِ الخرساء، عبدًا حسيرًا لطاغوت العَوْلَمَةِ. ضمانٌ لن تخرج هذه الأمة منها بسهولة، وضحاياها – كما نرى اليوم – في العالم الإسلامي كثير.

وهاهنا مدار المعركة، إن التحدي القائم اليوم على تحرير الإنسان المسلم – فردًا وأمةً – من أغلال الاسترقاق العَوْلَمِيّ، عقيدةً وثقافةً واجتماعًا واقتصادًا! لقد فَقَدَ المسلم اليوم كثيرًا من خصائصه الفطرية – بما هو عبدٌ خالصٌ لله – وكاد يصير جزءًا من منظومة الآخر الحضارية، لكن على شكل ذرة تافهة تدور على الهامش خادمًا غير مخدوم، ومستهلكًا غير منتج! ومفعولًا به غير فاعل! تمامًا على وزان هذا الحديث النبوي الرهيب، من قوله عليه الصلاة والسلام: « **يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا!** » فقَالَ قَائِلٌ: ومِنْ قِلَّةٍ نحنُ يَوْمَئِذٍ؟ قالَ: « **بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ؛ ولَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ! وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ!** » فقالَ قَائِلٌ: يا رَسُولَ اللَّهِ، ومَا الوَهَنُ؟ قالَ: « **حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ** »[1]. وتلك نتيجة طبيعية لمروقه عن مدار العبدية الخالصة لله، إلى شرك الأهواء والشهوات، التي قذفت به في ظلمات الوثنية العالمية الجديدة.

والأمر الثاني: أن العمل الإسلامي المعاصر لن يمكنه الاستجابة لهذا التحدي الحضاري الجديد، إلا بتجديد نفسه هو أولًا؛ وذلك بالرجوع إلى فطرته هو أيضًا في الدين والدعوة؛ لأن الفطرة المسلوبة أو المخرومة، لن تُعالج أو لن تُسترجع إلا بمنهاج فطري.

= تعليقه على المسند، وقال: « إسناده صحيح على شرط مسلم » كما صححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

(١) أخرجه أحمد، وأبو داود، وابن أبي شيبة، عن ثوبان مرفوعًا، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وفي الجامع الصغير.

ولذلك كانت ورقات هذا البحث في تقرير «الفِطْرِيَّة»، بما هي منهاج في العمل الدعوي، قائم أساسًا على أصول الفطرة، كما هي معروضة في القرآن الكريم والسنة النبوية، وبما هي محاولة لاستعادة دور الوحي التربوي والاجتماعي في النفس وفي المجتمع، الوحي الذي قام منهاجه الشمولي على هدف أساس، ألا وهو: تحرير نموذج «عبد الله»؛ الذي هو مناط كل شيء في الدين والدعوة على ما يقتضيه «مقام العبدية» الخالصة لله، من توحيد لرب العالمين في الاعتقاد والثقافة والاجتماع والسياسة والاقتصاد، وفي سائر مجالات العمران البشري بناءً على قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٢٩ - ٣٢].

فبعيدًا عن خوارم الفطرية، من مضايق الجماعات والتنظيمات والأحزاب، وبعيدًا عن حَرَجِ الأسماء والمصطلحات والألقاب، وما يترتب عن هذه وتلك من تصنيفات وتعقيدات؛ نعود إلى النبع الأول في ديننا ودعوتنا، نعود إلى بساطة الإسلام، نعود إلى ربيع القرآن الصافي؛ لنسمي المعاني كما سماها الله، ونصف الحقائق كما وصفها رسول الله ﷺ، فنحيي قلوبنا لروح القرآن، عسى أن نتلقى حقائقه الإيمانية، ونترقى بمنازله الربانية، في سبيل التحقق بمقام العبدية لله، فذلك هو باب النجاة الأخروي أولًا، وهو مَدَارُ الدين كل الدين، ثم هو مفتاح الخروج بالإنسان المسلم فردًا وأمةً من ظلمات التيه العولمي المعاصر، وتلك هي راية التحرير الكلي من استرقاقه، من حملها واعتصم بها وَصَلَ وانتصر، ومن خانها انهزم وانكسر، وكليات القرآن العظيم قاطعة بهذا المنهاج. يكفيك منها قوله تعالى في هذا السياق ذاته ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ۝ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ - ١٠٨]

فعلى هذا الأساس - بعون الله – نعرض ورقات هذا الكتاب، دون أن نحرص على الاستئثار بلقب أو التحيز إلى فئة؛ إلا ما دلَّ عليه سبيل القرآن، وأرشد إليه منهاج النبي عليه أفضل الصلاة والسلام. متوسلين إلى ذلك – جهد المستطاع – بوسائل العلم وقواعد الشريعة حريصين على الاستفادة من تراث الأمة في هذا المجال، بدءًا بجيل القرآن الأول، أصحاب رسول الله ﷺ، ومرورًا بأتباعهم الأخيار، وبفقهاء الأمصار، وما وَرَّثُوهُ لهذه الأمة من منهج في الفهم، وقواعد في الاستنباط، مما توارثوه تواترًا كليًا، واستقراءً معنويًا، عن الصحابة الكرام. ثم متتبعين « قَصَصَ » الدعوة الإسلامية عبر التاريخ إلى يومنا هذا، غير هاضمين أي تجربة دعوية حقَّها، ولا منكرين لأي حركة أو طائفة فضلها. مراعين عند التنزيل للمواقف والأحكام، والتحقيق لمناطات التصورات والأفهام، خصوص الزمان والمكان، من الأمة والوطن والشعب والتاريخ، وما استمر من خصوص تراثه الديني والسياسي والثقافي والاجتماعي، ما لم يخالف نصًا قطعيًا أو إجماعًا شرعيًا. سائلين الله أن يجنبنا مواطن الزلل، وأن يقينا مزالق الضلالة والخطل.

وعليه، فإن كتابنا هذا الذي نقدمه اليوم لأحبتنا وقرائنا الكرام عامة، ولأهل الشأن الدعوي منهم خاصة، عبارة عن رؤية – متواضعة – في فقه الدعوة الإسلامية، تتضمن تأصيلات منهاجية، نظرية وتطبيقية.

وهو لذلك ينقسم - دون هذه « الخطبة » التي هي فيما ترى، والخاتمة التي تلخص نتائجه – إلى تمهيد وثلاثة فصول وملحق. وقد قسمنا الفصول إلى مباحث على حسب ما تتضمنه من قضايا.

فالتمهيد هو في بناء سبع « مقدمات منهجية » تمهد لقضايا الكتاب.

والفصل الأول صيغ بعنوان: « الفطرية مدخل إلى تأسيس القضية ».وفيه مبحثان:

المبحث الأول في: « بعثة التجديد » دراسة في المفهوم

والمبحث الثاني: « الفطرية نقلة نوعية من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام » .

وأما الفصل الثاني فهو: « في الفطرية: القضية والمفهوم ».وفيه مبحثان:

المبحث الأول في « الفطرية وقضية الدين ».

والمبحث الثاني: « الفطْرِيَّةُ دراسة في الأركان والمسالك ».

وأما الفصل الثالث فهو في: «التجديد الفطري: معالمه المنهجية وقضاياه العُمرانية». وفيه تمهيد ومبحثان.

المبحث الأول في: «المَعَالِم المنهجية للتَّجْدِيد الفطري».

والمبحث الثاني في: «التجديد الفطري وقضايا العمران البشري».

وأما الملحق فهو في: «برنامج الرَّبَّانِيَّةِ مِنَ الكَلِمَاتِ إلى الرِّسَالات». وفيه تمهيد تعريفي بالبرنامج طبيعةً وغايةً، ثم عرض مقرر تربوي يتكون أساسًا من مجموعة من الرسالات، المستخلصة من النصوص القرآنية والبيانات النبوية، وُضِعَتْ على طريقة التراجم الفقهية لدى المُحَدِّثِين، مرتبةً على منهاج تربوي يتدرج بصاحبه عبر مدارج التحلق بصفات الربانية؛ وذلك قصد التأهيل لممارسة العمل الدعوي.

وفي الأخير وضعنا خاتمة عامة، ترجع على ما سبق باستخلاص نتائج وخلاصات للعمل.

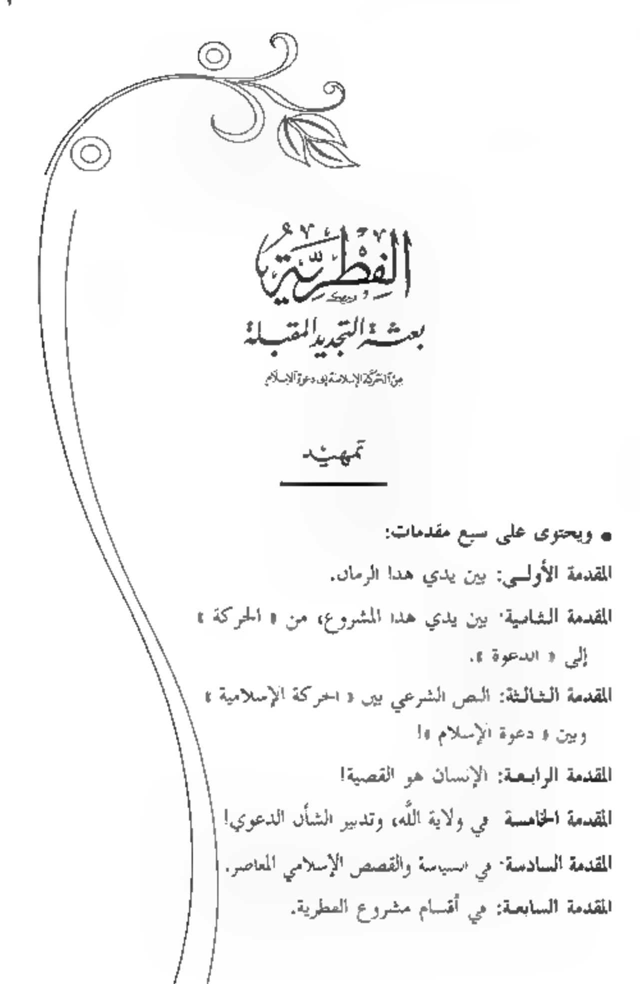
تلك قضايا حاولنا مدارستها في هذه الورقات؛ عسى أن يقيض الله لها مَنْ يُخرج مِنْ بَيْنِهَا حَبًّا نافعًا

ولا أنسى بعد هذا أن أشكر السادة العلماء، من بعض أشياخنا وإخواننا، وكذا بعض أهل الخبرة التربوية في المجال الدعوي، ممن تكرموا بقراءة فصول هذا الكتاب كلها أو بعضها؛ فأفادونا بملحوظاتهم وتوجيهاتهم. بل إنني أذكر أن بعض فصوله كان عبارة عن عمل جماعي؛ بما نال من التصحيح والتنقيح، الذي اشتغل فيه بعضهم بروح الفريق. فجزاهم الله عني وعن الإسلام خير الجزاء.

ذلك، وإنما الموفق من وفقه الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا.

وكتبه بمكناسة الزيتون - عبد ربه، راجي عفوه وغفرانه، الفقير إلى رحمته ورضوانه. فريد بن الحسن الأنصاري الخزرجي السجلماسي، غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين. وقد وافق تمام تصفيفه يوم السبت ٢٧ رجب ١٤٢٨هـ، الموافق لـ: ١١/٨/٢٠٠٧م.

* * *



الفطرية

بعثة التجديد المقبلة

من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام

تمهيد

- **ويحتوي على سبع مقدمات:**

المقدمة الأولى: بين يدي هذا الزمان.

المقدمة الثانية: بين يدي هذا المشروع، من « الحركة » إلى « الدعوة ».

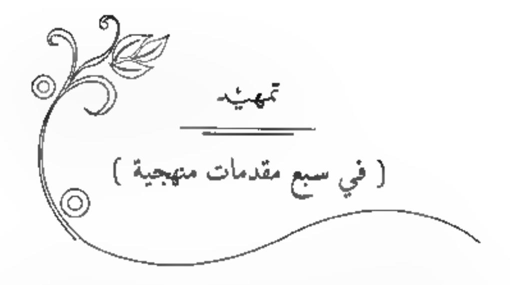
المقدمة الثالثة: النص الشرعي بين « الحركة الإسلامية » وبين « دعوة الإسلام »!

المقدمة الرابعة: الإنسان هو القضية!

المقدمة الخامسة: في ولاية الله، وتدبير الشأن الدعوي!

المقدمة السادسة: في السيرة والقصص الإسلامي المعاصر.

المقدمة السابعة: في أقسام مشروع الفطرية.



تمهيد

(في سبع مقدمات منهجية)

نستعمل مصطلح «المقدمة» - خلال هذا التمهيد - بما يقارب المعنى المنطقي للكلمة، أي باعتبارها مطلقًا منهجيًّا، وأصلًا استدلاليًّا؛ لتوجيه الأدلة وبناء الحجاج ومن هنا؛ فما من مسألة نقررها خلال هذه المقدمات السبع، إلا وهي ممهدة لقضية من القضايا المعروضة في هذا الكتاب، مما سيأتي بسطه مفصلًا خلال فصوله ومباحثه. وبيان ذلك هو كما يلي:



المقدمة الأولى

بين يدي هذا الزمان

وما عسانا أن نقول عن هذا الزمان؟ وللزمان – في هذا الزمان – ألف لسان!

فهل بقي شك في أن « العَوْلَمَة » – بوجهها الكالح – قد اكتسحت فعلًا؟ وهل بقي شك في أنه قد تم احتلال الإنسان قبل احتلال الأوطان؟ ثم من ذا يتردد بعدُ في ملاحظة التحولات العالمية؟ أليست الأرض تدور اليوم على غير طريقتها العادية؟ ألا تدخل الأمة الآن منعطفًا جديدًا من تاريخ علاقاتها مع نفسها، ومع الآخر؟

ألم تكشف الصهيونية – بوجهها الأمريكي – القناع عن عجرفتها؛ استخفافًا بالعرب والمسلمين، في أجرأ حركة من تاريخها تجاه الأمة الإسلامية؛ استعدادًا لأمر ما؟

لقد تقارب الزمان اليوم ليكشف عن شيء، والعالم يتهيأ به بدول تتوحد وتتكتل، وأخرى تتمزق وتتفرق، وبرموز تقوم وأخرى تنهار، فانطلاقًا من سقوط الاتحاد السوفياتي، وسقوط سور برلين بدلالاته السيميائية العميقة، حتى أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ بأمريكا، التي صُيغتْ لنا بـ « إخراجها »؛ كانت موجة أخرى من تاريخ التدافع الحضاري تتجمع؛ لتنطلق بأكبر عملية احتلال عسكري في القرن الخامس عشر الهجري (الحادي والعشرين الميلادي)[1] ويدخل الغرب العالم الإسلامي – بقيادة أمريكية – غازيًا بلا قناع سياسي! فتكون العراق أكبر قنطرة للعبور إلى غزو عولمي جديد للأمة الإسلامية، بتجليات متعددة، قد تختلف مظاهرها من قطر إلى قطر؛ ولكن مآلها واحد هو الهيمنة العولمية الجديدة على العالم الإسلامي. وهاهنا تعددت الأشكال والموت واحد.

إن الغزو الغربي للعالم الإسلامي في صورته الجديدة، الحاصلة اليوم - ثقافيًا وسياسيًا وعسكريًا - لهو صفعة قوية في وجه الأمة! ليس فقط من حيث هي أنظمةٌ مُتَابِسَةٌ مداهِنةٌ أحيانًا، أو خانعة متخاذلة أحيانًا، أو متواطئةٌ أحيانًا أخرى؛ ولكن أيضًا من حيث هي مشاريع نهضوية فكرية، وقومية، ووطنية، بل حتى إسلامية أيضًا! ولم لا؟

لقد انتهى زمن وكالة الأنظمة العربية فالآن العدو هو الذي يشتغل، وهو الذي يقتحم البيوتَ ويَعْتَقِلُ، وهو الذي يحاكِم، وهو الذي يصادِر! يلقي القبض على من يشاء كما يشاء، ومتى يشاء! فأيما مفكر حر، أو داعية - أو ربما حتى عابر سبيل - أزعجه بكلمة؛ أصدر أمره باعتقاله! ولم يعد يبالي، ولا حتى بحرج النظام العربي الذي يعيش ذلك المطلوب في حوزته وتحت سلطانه، ويلقي القبض عليه هو بنفسه، هنا أو هناك، في أي مكان من خريطة العالم الإسلامي!

إضافة إلى هذه المهلكات الخارجية، فقد أصيبت الأمة بداء التآكل الداخلي منذ عدة قرون، هذا الداء الذي تطور حتى آل إلى انهيار وجودها المعنوي؛ فوجدها العدو لقمة سائغة، وجاءت سلسلة الاستعمارات القديمة والجديدة بشتى ويلاتها ومصائبها، وتلك هي ترجمة التاريخ المعاصر لحديث النبي ﷺ - المذكور قبل - في الثنائية. وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «**يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا!**» فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ! وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ!**» فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ!**»[1].

إن أزمة ضعف الوجود المعنوي للأمة، الذي صار اليوم إلى ما يشبه الفقدان، إنما هو راجع إلى ما ذُكر في هذا التشخيص النبوي الكريم: حب الدنيا وكراهية الموت؛ ومعناه فقدان الثقة بالله، وضعف الارتباط بأصول الدين إيمانًا وعملًا. وإنما كانت هذه الأمة يوم كانت بالدين، ولن تكون في يوم من الأيام إلا بالدين، وإنما المسلم إنسانٌ أخروي

(١) سبق تخريجه ص (١٣)

بالدرجة الأولى. وبهذا بنى عمرانه الدنيوي الحضاري العظيم، يوم كان حاضرًا في التاريخ. وتلك هي القضية.

إن مشكلة الأمة اليوم - وهي تنزف باستمرار؛ جراء تمزقها الروحي والثقافي والسياسي - أنها لم تعد تبالي بمصدر قوتها الحقيقية، ولا تثق فيما عندها من أدوية بصيدلية الدين، ولا هي بعد ذلك تثق حتى بنفسها، مما أكسبها هزيمة نفسية ألقت بها في أحضان العدو مِزَقًا من الأشلاء والأجزاء!

ولقد غذّى العدو مرضَ التآكل الداخلي عبر سنوات، ببرامج التعليم المسموم والإعلام الملغوم؛ ما دفع بها إلى انقلاب المضادات الحيوية الطبيعية، التي خُلقت للدفاع عن الجسم، إلى مضادات داخلية للجسم نفسه. فنشأت تيارات شاذة من أبناء الأمة يحاربون الأمة! ويلعنون التاريخ الذي كان! تيارات تنصلت عن هويتها، وتبرأت من دينها، وتمردت على الله خالقها! فخانت الأمة، وخانت الدين، وخانت الوطن! وما أحسب أن شيئًا كان أشد على الأمة في حربها مع عدوها من هذا الكيد العظيم! ذلك أنه رغم ضعف الرصيد الشعبي لهذه التيارات فإنها استقوت بالعدو على أوطانها وشعوبها، وتبوأت بدعمه المباشر مواطن الصدارة والإدارة في الحكومات! ووقعت بأيديها سياسة التعليم والإعلام والاقتصاد؛ ففعلت في البلاد والعباد من الخراب ما لم يستطع الاستعمار المباشر أن يفعله!

فانتقلنا بذلك من الوضع الصحي السليم الموصوف في الحديث: « **مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمِهم وتعاطفهم مَثَلُ الجسد، إذا اشتكى منه عُضْوٌ تَدَاعَى له سائرُ الجسدِ بالسَّهر والحُمَّى!** »[1]. إلى الوضع الصحي السقيم؛ وضع التفرق والاقتتال الداخلي، الموصوف في الحديث الآخر: « **سألتُ رَبِّي ثلاثًا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة! سألتُ ربي ألا يُهلك أمتي بالسَّنة فأعطانيها، وسألته ألا يُهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها!** »[2].

ومحنة الأمة اليوم هي في محاولة النهوض من تحت هذا البلاء كله، بتشعباته الداخلية والخارجية، ولنا اليقين في أن لها من الطاقة الكامنة والمحركات الذاتية، ما لو

(١ ، ٢) رواه مسلم.

شعته لأقلعت بقوة، بل لصارت في الفضاء رغم ذلك كله، وإنما الإشكال اليوم هو في التحديد الدقيق لمواطن أزرار التشغيل لطاقة الحياة فيها، تلك هي الأسئلة، وتلك هي التي لا تملك لها الحركة الإسلامية - في كثير من تجلياتها المعاصرة - إلا أجوبة مجملة!

وينتصب السؤال المرير: أين الحركات الإسلامية في العالم العربي والإسلامي إذن؟ أين نحو قرن من الزمان، مضى في بناء التنظيمات والجماعات؟ أين الخطط والبرامج والاستعدادات؟

ألم يئن الأوان بعد للمراجعة، والمساءلة لحركات العمل الإسلامي هنا وهناك؟

إلى متى ونحن متشبثون بخطط خرقها الغرب واخترقها أكثر من سبعين مرة؟ حتى أتت عولمة النظام العالمي الجديد على آخر ما بقي منها، فلم يعد لها غير عجيج المظاهرات، وصراخ المهاترات؟! إلى متى ونحن متشبثون - أحزابًا وتنظيمات - بوهم (إنا قادمون!) [1] تمامًا كما تشبث الصنم السابق في العراق بوهم (خُطَطٍ للسحق والتقطيع)، لم تلبث أن دكتها الدبابة الأمريكية، وما تنقطع أصداء كلماتها الرنانة في الفضائيات!

هذا زمان نهاية الجغرافيا واختفاء الحدود! نعم، ولكنه زمان انبعاث حركة التاريخ، واستشرافها لدورة حضارية أخرى. والصراع اليوم هو حول من يكون لها؟ أو هي لمن تكون؟ أما قصة « نهاية التاريخ » فتلك أكذوبة من أكاذيب العَوْلَمَةِ، وأسطورة من أساطيرها، أُنتِجَتْ في سياق الحرب النفسية على المستوى الفلسفي والسياسي.

الحرب الحضارية اليوم عالمية بما للكلمة من معنى، وقطار التاريخ ينطلق بقوة نحو المستقبل.

والعولمة في نهاية المطاف حصان، والحصان لمن يركبه، وإنا على يقين من أن الدعوة الإسلامية اليوم إذا هي دخلت هذه المعركة بشروطها الإيمانية، وبتميزها

---

(١) إن القصد نقض قولهم: (إنا قادمون) من يعني بذلك تجربته التاريخية الذاتية، انطلاقًا من حزبه، أو تنظيمه وجماعته، أما دعوة الإسلام في مجموعها ومجملها فهي قادمة بإذن الله، تلك حقيقة عقدية تواترت النصوص بنبوءتها، وأبرق الواقع الحزين بمستقبلها؛ ذكرى للمستبصرين.

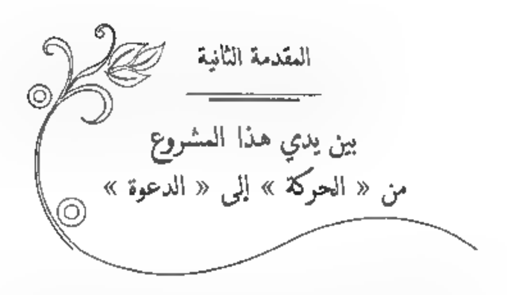
الحضاري، وهويتها الإسلامية الصافية؛ فإنها بإذن الله تُنتج عولمتها الإيمانية عُمْرانًا حضاريًّا جديدًا، وأمنًا وسلامًا للعالمين، كل العالمين، وإن الفَرس التي تقاتل اليوم في صف العدو، يمكن أن تقاتل هي نفسها غدًا في صف الإيمان؛ وإنما القضية هي في الفارس من هو؟! وما طبيعة الروح التي تسكنه؟!

فأين الحركات الإسلامية من هذا كله؟ بل أين هي من الإسلام بما هو مُبَشِّرَاتٌ نصية ومنهاجية بعالمية هذا الدين، وظهوره على العالمين؟ وإلى أيِّ حدٍّ هي فعلًا تجتهد - فكرًا وعملًا - من داخل بنية النص الشرعي، ومنظومته الاستدلالية؛ لتجديد مفاهيمه وقيمه في المجتمع؟ أين هي الإستراتيجيات الدعوية والإصلاحية؟ وأين موازين نقدها وتمحيصها في هذا الإطار العالمي الجديد؟

أليس قد آن الأوان فعلًا لتجديد النظر في الأساليب التربوية، والمنهجيات الدعوية؟ في زمن لم تعد فيه ظلال الحكومات كما كانت، ولا مظاهر العدوان كما كانت؟ وصار العدو - عن كثب - يراقب برامج التعليم، وخطب المساجد، والعلاقات الزوجية، ويحصي مدارس القرآن، والمعاهد الدينية، ويحسب الولادات؟ أليس قد آن الأوان لبعثة جديدة؟ تجدد أول ما تجدد هذه (الحركات الإسلامية) نفسها! التي لم تعد قادرة على إعطاء ما لا تملك؟ إلى متى ونحن صامتون؟ مترددون في وضع الإصبع على مواطن آلامنا وأدوائنا؟ وقد امتدت يد « الآخر » إليها قبل يدنا! لتعالجها - ولكن مع الأسف - بدوائه لا بدوائنا وبطريقته، لا بطريقتنا!

إن الوقت الذي نعيشه اليوم قد تضايق وتقارب؛ حتى لم يبق منه - لفوات الواجب - إلا وقت الضرورة، فمن ذا يحاول منا أن ينتقل من الشكل إلى الجوهر، في « بعثة التجديد المقبلة »؟ ومن ذا يبادر للإسهام في تسجيل خطوة الانتقال التاريخي الكبير؟ مع منعطف العولمة المظلم؛ من « الحركة الإسلامية » إلى « دعوة الإسلام »؟

* * *



المقدمة الثانية

بين يدي هذا المشروع
من « الحركة » إلى « الدعوة »

وعليه؛ فهذه لبنة جديدة في البناء الدعوي الذي نشتغل به، ترمي إلى الإسهام في العودة بالعمل الإسلامي إلى فطرته، وأصل صبغته؛ ولذلك وسمنا الكتاب بمصطلح « الفطرية »، وهي سيماء دالة على المقصود منه ابتداءً وانتهاءً. أخذًا من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ. متخذين لذلك منطلقًا من قوله تعالى ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٢٩ - ٣٢].

ولأن الفطرة راجعة - على الإجمال - إلى الصبغة الأولى، وإلى الهيئة الأصلية التي كانت للأشياء قبل خضوعها للتغيير والتبديل، فإن الحاجة ملحة اليوم على العودة بالعمل الإسلامي إلى ذلك أيضًا.

لقد أتى على العمل الإسلامي حين من الدهر وجد نفسه فيه يدور في حلقة مفرغة بسبب الأزمة الحاصلة في تصوره ومناهجه. وإن للقاموس الاصطلاحي والجهاز المفهومي الذي يشتغل به لدلالة على طبيعة تلك الأزمة، مما يمكن تشخيصه بالتحليل لأبرز مصطلح يتسم به. وعلى رأس ذلك مصطلح (الحركة) نفسه الذي يحمل ما يحمل من الخلفيات غير الإسلامية؛ مما كان له الأثر البالغ على توجهات

التنظيمات الإسلامية المعاصرة، وعلى ميزان أولوياتها، والألفاظ ليست بريئة من الخلفيات الحضارية والمذهبية، ولا استعمالها بالأمر الهين في أمور الثقافات والعلوم عمومًا، وفي أمور الدين بصفة خاصة، وقد أرشد الله الصحابة إلى التحري فيما يخاطبون به رسوله - عليه الصلاة والسلام - من الألفاظ والعبارات؛ لِمَا للاشتراك اللغوي الحاصل في بعضها بين الخير وبين الشر؛ رفعًا لكل تلبيس وتدليس يقع من المنافقين! فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة ١٠٤].

وإنما فطرة العمل الإسلامي أنه « دعوة »، لا « حركة »، وبين هذا وذاك فرق كبير فمصطلح « الدعوة » لفظ قرآني أصيل، ومصطلح « الحركة » لفظ سياسي دخيل؛ ولذلك ما له من آثار كبيرة على مستوى المنهاج والتصور للعمل الإسلامي كما سترى بحول الله. وإنما سمى الله - جل وعلا - فعل تجديد الدين ووظيفة « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » - في كتابه وسنة نبيه - « دعوة »، وما كان ينبغي العدول عما سمى الله به مفاهيم الدين، إلى غيره من عبارات المُحْدَثِين؛ لأنه سبحانه أدرى بمراده من دينه. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت ٣٣] وخاطب رسوله ﷺ في هذا الشأن فقال له: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف ١٠٨]. وقال له أيضا: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل ١٢٥].

وخاطب سبحانه هذه الأمة فقال: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٤، ١٠٥]. وقال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس ٢٥]. وقال أيضًا: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الحديد ٨]. ومثله أيضًا: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة ٢٢١] وغير هذا وذاك في القرآن كثير.

و « الدعوة » هو عين المصطلح المستعمل في البيانات النبوية باطراد تام، ويكفيك منها قوله ﷺ: « **مَنْ دَعَا إلى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذلك مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا** »[١].

ثم ما استعمل السلف الصالح - بعد ذلك - غير مصطلح (دعوة الإسلام) وهو التركيب الاصطلاحي المستعمل عند أهل الحديث كما في صحيح مسلم وغيره[٢]، وكذا عند كُتَّابِ السيرة عمومًا، وعند علماء الفقه، خاصة في أبواب الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائر ضروب الإصلاح، سواء في دار الإسلام أو في دار الحرب، أو دار العهد. وهذه النصوص وغيرها دالة على أنه مصطلح عام في معنى تبليغ دعوة التوحيد، وأصل الدين الكلي، الذي هو مسمى « الإسلام »، وإيصاله لمن لم يبلغه أصلاً من الكفار، كما أنه مستعمل عندهم في الدلالة على الإصلاح الداخلي، والتجديد الديني لما انحرف من مفاهيم الدين وأحكامه في المجتمع الإسلامي أصالةً.

فتبين إذن أن مصطلح « الدعوة » جامع لكل المعاني المشروعة، التي يعبر عنها اليوم بمصطلح « الحركة »، كما أنه مانع من دخول كل الإحالات المنحرفة والدلالات المختلة، التي قد تتسرب إلى العمل الإسلامي مع التعبير الدخيل إضافة إلى تميزه وتفرده بالمقاصد التعبدية التي يَقْصُرُ عنها لفظ « الحركة » ويضيق

ونحسب أن مصطلح « الدعوة » قد ناله من التحريف المفهومي والتجزيء الدلالي؛ بحيث جعله مقصورًا لدى كثير من المستعملين له اليوم في الحقل الإسلامي الإصلاحي، على معنى « الوعظ » بمفهومه الخطابي ليس إلا، وهذه أزمة كثير من « الإسلاميين » إزاء المصطلحات القرآنية الرائجة في التداول الإسلامي المعاصر ونحسب أن من مهام « الفطرية » إعادة الاعتبار لألفاظ القرآن الكريم، وللمصطلحات الشرعية عمومًا؛ بتجديد استعمالها بمفاهيمها الأصيلة، كما هي في الكتاب والسنة، لا كما هي جارية على ألسنة الناس، وكذا مواجهة القصف

---

(١) رواه مسلم.

(٢) صحيح مسلم (كتاب الجهاد والسير باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام)

الإعلامي للعالم الإسلامي، الذي يرمي الأمة صباح مساء بالمصطلحات الأيديولوجية المصنوعة في مختبرات الصهيونية! والصمود أمام زحفه الثقافي الشامل؛ وذلك بالعض على « كلمات الله » بالنواجذ، والتشبث بألفاظ القرآن الكريم، وبمفاهيمها الربانية ودلالاتها الإيمانية. ونحن نعلم أن دون ذلك ما دونه من المجاهدة بالقرآن، لفظًا ودلالة: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢]

إن مصطلح « الدعوة » هو التعبير الإلهي المنزل وحيًا؛ للدلالة على طبيعة الرسالة القرآنية في الأرض تأسيسًا وتجديدًا، بينما يبقى مصطلح « الحركة » تعبيرًا وضعيًا، مرتبطًا بنسبيته التاريخية، وبمرجعيته المادية البشرية، التي لا روح فيها ولا رواء، وما أرى العدول عن كلمات الرحمن إلى عبارات الإنسان، في مجال ديني تعبدي محض، إلا ضربًا من التحريف المفهومي لمقاصد القرآن!

وبيان ذلك أن مصطلح (حركة) في المجال الاجتماعي إنما هو ترجمة للفظ الأجنبي (mouvement) وهو تعبير منحدر من أدبيات علم الاجتماع السياسي، ظهر في أوربا في ظروف المظالم الاجتماعية والاختلالات الطبقية التي خلفتها الثورة الصناعية، خلال القرن الثامن عشر ثم التاسع عشر الميلاديين، وذلك عندما تغيرت طبيعة الاقتصاد الأوربي وحلت الآلة محل اليد العاملة، كما حلت المصانع الضخمة محل الصناعات اليدوية والنسوية المنزلية، فأحدث ذلك تغيرات بنيوية على طبيعة المجتمع الأوربي، وتكونت تكتلات اجتماعية جديدة؛ للدفاع عن حقوقها والمطالبة بتحسين وضعيتها؛ كالنقابات العمالية، والحركات النسوية، ثم الحركات الطلابية، وغيرها

ومن هنا جاء مصطلح « الحركة » دالًا بالأساس على تيار سياسي منظم فكريًا وبشريًا، يناضل من أجل فكرة محددة؛ لتغيير وضع معين بأساليب سياسية في الغالب، لكنها قد تتطور إلى أساليب عسكرية أو ثورية دموية! كما هو شأن الحركات الماركسية مثلًا.

ولذلك فقد بقي المصطلح محملًا بدلالات « مادية »، ومرجعية متأثرة إلى حدٍّ بعيد بنظرية « الصراع الطبقي »، أو « النزاع الاجتماعي » كما سماه الدكتور عبد الهادي خلف، في دراسته « المقاومة المدنية: مدارس العمل الجماهيري

وأشكاله ». يقول: « يقوم تاريخ البشرية على مختلف أشكال النزاع بين المجتمعات البشرية، وضمن كل منها. فالنزاع بمعناه الاجتماعي العام [هو] القابلة التي بيد التاريخ على يدها ويتقدم! »[1] حيث « يتجه كل مجتمع بشري حالَ نشأته إلى الانقسام إلى مجموعات، تتفاوت قدراتها على الوصول إلى الموارد المتاحة لذلك المجتمع والاستفادة منها، بيد أن الأشكال البسيطة لذلك التفاوت الأولي سرعان ما تصبح أشكالًا معقدة ومتشعبة المصادر والتأثيرات، كلما تصور ذلك المجتمع (...) فمع هذا التطور يتكرس التفاوت الاجتماعي ويتخذ أشكالًا أكثر صلابة ووضوحًا! »[2] ومن هنا ينشأ « النزاع » أو « الصراع » من أجل السيطرة على الموارد الاقتصادية؛ حيث « تتنافس فيه الفئات الاجتماعية على الاستفادة من الموارد المتاحة لمجتمعها، والاستحواذ عليها، ووسائل التحكم فيها »[3].

وما مفهوم « الحركات الاجتماعية » على حد تعبير « تشارلز تلي » سوى: « سلسلة من التفاعلات بين أصحاب السلطة وأشخاص يُنَصِّبُونَ أنفسهم باقتدار، كمتحدثين عن قاعدة شعبية تفتقد للتمثيل النيابي الرسمي. وفي هذا الإطار يقوم هؤلاء الأشخاص بتقديم مطالب على الملأ من أجل التغيير، سواء في توزيع أو في ممارسة السلطة، وتدعيم هذه المطالب بمظاهرات عامة للتأييد! »[4].

ومن هنا فإن « الحركات الجماهيرية » قد نشأت في سياق مواجهة صور شتى من الاستبداد، من مثل: « الانقلابات العسكرية »، و « الأنظمة الديكتاتورية العسكرية »، أو « الديكتاتورية المطلقة »، و « الغزو أو الاحتلال الأجنبي »، و « الظلم الاجتماعي » بشتى صوره، الذي في ظله ظهرت « الحركات النسوية »، و « حركات مقاومة الميز العنصري »، و « حركات التحرر الوطني » في البلدان المستعمرة، و « حركات

---

(١) المقاومة المدنية. (٤٥).		(٢) المقاومة المدنية (١٧)

(٣) المقاومة المدنية (١٨)

(٤) Charles Tilly, "Social Movements as Historically Specific Clusters of Political Performances," Berkeley Journal of Sociology 38 (1994): (1 30).

نقلًا عن (حركات الاجتماعية المفهوم والتاريخ) (ص ٢) للباحثين (ربيع وهبة، وجوزيف شكلًا)، بحث منشور على الموقع الإلكتروني.

http//-www.hic-mena org/homea htm.

مواجهة الاستغلال الطبقي » في كثير من البلدان الصناعية [1] إذْ « عبر مثل هذه الحركات الجماهيرية يقدم التاريخ البشري المعاصر أمثلة بارزة على الإمكانيات الواسعة، التي يتيحها النضال الجماهيري - خاصة حين تكون الجماهير ضعيفة - في مواجهة عدو مسلح، وقمعي، وقادر على البطش! » [2].

فـ « الحركة » بهذا المفهوم إذن؛ لا تخرج عن معنى كونها « مجموعة ضغط سياسي تحمل مجموعة من المطالب » ليس إلا وعلى ذلك أجمعت أغلب الدراسات والبحوث التي تناولت مفهوم « الحركات الاجتماعية » بشتى ألوانها. والسبب في ذلك كما يقول الدكتور إبراهيم البيومي غانم [3]. إن الحركات الاجتماعية إنما نشأت في سياق الأزمة، خاصة « أزمة الديموقراطية »؛ حيث « تنشأ الحركات الاجتماعية في مواجهة الدولة؛ نتيجة تعثر الدولة في أداء دورها، وتدخل الدولة المتزايد للسيطرة على السوق، وتدعيم قوتها وتوسعها على حساب المجتمع المدني، وهو ما يتزامن عادةً مع تآكل دور الأحزاب السياسية، كمنظمات للتعبئة والتمثيل الشعبي (.) وتنشط الحركات الاجتماعية في ظل هذا العجز؛ لتقوم بمهمة تمثيل المصالح، وتقديم خطط بديلة، والدفع باتجاه التغيير من خارج النظام، ولتمثل قوة ضاغطة تفرض على الدولة تعديل سياساتها وتطوير أدائها » [4].

ذلك هو مفهوم « الحركة » في المجال الاجتماعي، كما ظهر في سياق الصيرورة العربية الحديثة. ولا غبش في أن الخلفية المادية العلمانية واضحة فيه جدًّا. وهاهنا مناط الإشكال المصطلحي كما سيبين بعد قليل بحول الله.

ذلك أن هذه التعريفات والشروحات كلها تؤكد القصور الشديد لمصطلح « حركة » عن الدلالة الشمولية الكلية التي يتمتع بها مصطلح « الدعوة »، بما يتضمنه هذا من مصدرية ربانية، وخلفية إيمانية عَقَدِيَّة، ومرجعية تربوية إصلاحية شاملة. ثم إن مصطلح « الحركة » متهم بتضخيم بعض معاني العمل الإسلامي على

---

(١) المقاومة المدنية: (٤٨- ٦٤). (٢) المقاومة المدنية: (٤٨).

(٣) خبير سياسي في « المركز القومي للبحوث الاجتماعية » بمصر

(٤) الحركات الاجتماعية، د. إبراهيم البيومي غانم. بحث للدكتور إبراهيم البيومي غانم، منشور على الموقع الإلكتروني: « إسلام أون لاين » .

حساب بعض، لتصحمها عند أصحابها أصلًا من واضعي المصطلح في منظومته العربية! وتلك حضارة أخرى وقوم آخرون، كما أنه متهم بتجويز وسائل للعمل قد لا تقبلها - كليًا أو جزئيًا - أحكام الشريعة إلا باستصلاح أو (أسلمة) كما يعبرون اليوم، مع أن أمر الدعوة دين والدين واضحة معالمه، أصيلة وسائله، خاصة على المستوى المنهاجي الكلي، وليس كل الوسائل يقال فيها إنها من قبيل الاجتهاد، بل منها ما هو مرتبط بثوابت الدين، لا حاجة لنا فيه إلى «أسلمة» ولا إلى استيراد أو اقتراض!

ومن هنا، فقد كان لتوظيف مصطلح «الحركة» من الأثر ما كان في الاختلال الجزئي أو الكلي للعمل الإسلامي، والانحراف به إلى مضايق العمل الحزبي المباشر أو غير المباشر؛ حيث أصبحت كبرى الحركات الإسلامية في العالم مجرد أحزاب سياسية كبرى! [1] وتبعها في ذلك من تبعها من الحركات والتنظيمات في المشرق والمغرب حتى رسخ في ذهن الجيل أن صورة العمل الإسلامي إنما هي هذا النمط أو هذه الهيئة! فشاعت بذلك جملة من التصورات، وانقلب كثير من موازين الأولويات.

بل رسخ في ذهن الكثير أنه لا يمكن أن يعيش بالدين، ولا أن يكون من المسلمين، إلا بانتمائه إلى جماعة، أو انخراطه في تنظيم، وانحصاره داخل إطاره، لا يدور إلا بمداره، ولا يتعدى إلا بأفكاره! وقد عملت بعض الجماعات فعلًا على ترويج هذا البهتان، والله يعلم أنه ما أنزل به من سلطان، بل الفكرة بهذه الصورة بدعة منكرة، وعقيدة باطلة، أعني جعل النجاة الأخروية رهينة أغلال الجماعات ومضايق التنظيمات، فمن لم يمر عبر «مسركتها» هنا، حُرِمَ النجاة هناك.

وعليه؛ فإننا لسنا نقصد بهذا التأصيل الاصطلاحي مقارنة ألفاظ، وتقليب معاني ودلالات، وبيان دقائق إشكالات؛ من أجل أمور لا تزيد ولا تنقص من أمر العمل الإسلامي شيئًا، أو ربما قيل فيها ما يقال أحيانًا في سياق الخلاف الفقهي، إذا اكتُشف أنه راجع إلى مجرد اختلاف لفظ، لا إلى حقائق الأحكام ومفاهيم العلم،

---

(١) انظر تصريح الدكتور «محمد سليم العوا» أحد قياديي جماعة الإخوان المسلمين بضرورة ترك العمل السياسي بكل مفرداته والعودة إلى العمل التربوي الشامل! (حوار مع الموقع الإلكتروني إسلام أون لاين الأحد ١٠ يونيو ٢٠٠٧).

فيقال عندئذ: (لا مشاحة في الاصطلاح). كلا طبعًا! فالأمر هنا مختلف تمامًا؛ إذ هو عميق الارتباط بالمفاهيم الأساسية للعمل الإسلامي والدعوي، سواء من حيث مفاهيمه، أو من حيث أحكامه، أو موازين أولوياته، وكل ما تعلق بصحة الفعل الواقع في سياقه أو بطلانه.

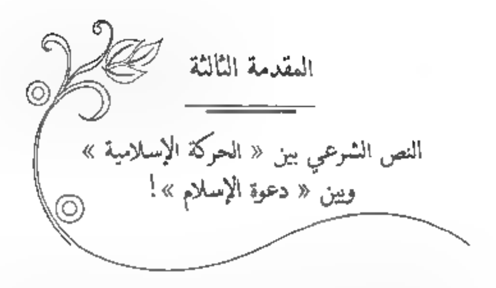
ولذلك فالمشاحة كل المشاحة في الاصطلاح. ولو نظرت إلى أمر الله تعالى أصحاب رسول الله مخاطبة نبيه ﷺ بلفظ: « انْظُرْنَا » بدل « رَاعِنَا » ؛ لوجدت أن العبارتين مترادفتان في اللغة، ورغم ذلك ورد النهي عن إحداهما والأمر بالأخرى، ولم يُقَلْ آنئذ: « لا مشاحة في الاصطلاح ».

إن « الدعوة » لها مجال تداول شرعي أصيل، تحمه أحكام معينة، وأصول معينة، وآداب معينة، ونظام معين من المراتب والأولويات المقعَّدة شرعًا، والموثقة نصًّا، أو المقاربة اجتهادًا بقواعد العلم وموازين الشريعة. أما « الحركة » فلها مجال تداولي آخر مختلف تمامًا، ونقلها إلى مجال « الدعوة » لا يسلم من استصحاب مرجعيتها الغربية، ولو على المستوى النفسي وهو أمرٌ له ما له من الضرر على العمل الإسلامي في مفهومه، وطبيعته، وميزان أولوياته، وحتى بعض أحكامه.

ولا يعني هذا كله أيضًا أننا نُجري الألفاظ على ظواهرها فحسب، بل العبرة بـ « المفاهيم » فقد يكون من التنظيمات أشكالٌ لم تتلقب بنمط « حركة »، وإنما تسمت باسم « جماعة »، أو « دعوة »، أو غيرهما من الألفاظ ذات الدلالة الشرعية الأصيلة، ولكنها في الواقع حبيسة مفهوم « الحركة »، ولو لم تتَّسم رسميًا بسيماه، وذلك حسب ما طبع تصوراتها المنهاجية والعملية لمفهوم العمل الإسلامي وطبيعته.

ومن هنا نادينا بفطرية العمل الإسلامي، أي الرجوع به إلى أصل فطرته الدينية، وإلى طبيعته الشرعية، الجامعة بين البساطة والعمق، سواء على مستوى المصطلحات والمفاهيم، أو على مستوى المناهج والتصورات؛ لأن بذلك - في نظرنا - يستوي ميزانه وتستقيم أحكامه. وذلك هو موضوع كتابنا هذا.

* * *



المقدمة الثالثة

النص الشرعي بين « الحركة الإسلامية » وبين « دعوة الإسلام »!

الفطرة هي الدين، وما الدين إلا وحي من الله، وما الوحي إلا نص من كتاب الله أو نص من سنة رسول الله ﷺ فآل أمر الدين كل الدين إلى أنه نص، وهنا يظهر الفرق جليًا بين « الحركة الإسلامية » وبين « دعوة الإسلام » فالحركة الإسلامية تشتغل حول النص، بينما دعوة الإسلام تشتغل بالنص وفي النص، وتدعو إلى النص، فعملها مرتكز أساسًا على التعامل المباشر مع الوحي، تخلقًا بأخلاقه وتحققًا بأحكامه وحِكَمه، ودعوةً للناس إلى الدخول في فَلَكه واستثمار مقاصده. فالنص في الأولى شعار، وهو في الثانية مَدار، يؤدي الدخول في محيطه إلى ابتلاء عملي للنفس، وسلوك تطبيقي في المجتمع

والاشتغال « حول النص » قد يوهم أنه عملٌ بالنص وفي النص، بينما هو في الحقيقة مجرد رسم لأهداف إسلامية، لكن بسعي فكري وكسب بشري محض لا علاقة له بالنص، بل هو - من حيث منهجيته « الحركية » - خارج إطار النص، كما بيناه في المقدمة السابقة، وإنما مرجعه في ذلك هو منتوج الفكر البشري في مجال « التغيير الاجتماعي »، مما أنتجه « الآخر » من مناهج وتصورات، وما رسمه من قواعد وأولويات، في السياق الحضاري الغربي، وكان من صلب تجربته التاريخية، مما قد يخالف أولويات الدين أو ربما خالف طبيعة الدين، بسبب عدم استشارة النص تأصيلًا واجتهادًا، وعدم الاحتكام إليه والاشتغال به ديانةً وتعبدًا، وعدم جعله وسيلةَ قَصْدِه، ومَسْلَكَ مُرَادِه، وسُلَّمِ بنائه وعمرانه. فالاشتغال للدين في المجال الدعوي لا يكون إلا بالدين؛ إذْ لا يتم التوصل إلى غايته إلا بوسيلته، فهو الغاية والوسيلة معًا. وعدم اعتبار ذلك هو ما يُحَوِّلُ أهداف الاشتغال « حول النص » إلى مجرد شعارات،

لا تجدد – في الواقع العملي – من الدين شيئًا [١].

وقضية حرية « الوسائل » في المجال الدعوي ليست على إطلاقها أبدًا بل هي مقيدة بما ذكرنا من الاشتغال بالنص اجتهادًا وتأصيلًا، وعدم ضبط هذا أدّى في كثير من الأحيان إلى الانحراف عن منهاج الدين، وإلى الضرب بعيدًا عن أهدافه ومقاصده! مما جعل بعض الحركات تتحول من مشروع ديني تجديدي، إلى مجرد مشروع « مدني » لا يرتبط بالدين إلا قليلًا.

ولا يعني هذا أننا نعرض مشروعًا « حرفانيًا » في مجال الدعوة والإصلاح! أو أننا نقول بعدم جواز الاستفادة من تجربة « الآخر »، كلا طبعًا، ولكن بشرط ألا تكون المنقولات من صلب المنهج وأركانه؛ لأن المنهاج هو الدين، بل يجب أن تخضع الاستفادة لمقاييس الدين استصلاحًا؛ حتى تصير جزءًا من الدين، وتدخل تحت سلطان النص، وتصير – في سياق التنزيل والتحقيق – عملًا بالدين وتعبدًا لله رب العالمين. وهو ما يستوعبه الدرس الأصولي الفقهي، بمناهجه الاستصلاحية والاستحسانية المنضبطة إلى قواعدها الشرعية وتحقيقاتها الاجتهادية.

والناظر في دعوة الإسلام كما وردت في القرآن يجدها لا تخرج عن مدرسة النص، بما هو وحي من الله جل علاه، وبيانٌ نبوي لمقتضياته وحِكَمه، ولا بد من التنبيه في هذا السياق إلى أن القرآن لم يترك المجال الدعوي همَلًا بلا بيان، بل ذلك كان من أكبر المجالات التي اعتنى ببيانها وتدقيقها. ويكفينا في ذلك آية وظائف النبوة الدعوية التي تكررت في القرآن أربع مرات من أوائله في سورة البقرة وآل عمران إلى أواخره في سورة الجمعة من المفصل، جاءت بألفاظ ثابتة لا تكاد تتغير إلا تقديمًا وتأخيرًا، على حسب مقام السياق ومقاصده، ليس إلا حيث حصر اللهُ ﷻ وظيفةَ الرسول ﷺ الدعوية في ثلاث وظائف، واحدةٌ منها يمكن أن تنقسم إلى اثنتين؛ فيكون الجميع أربعًا؛ وهي: التلاوة للآيات، والتزكية للقلوب، والتعليم للكتاب والحكمة. وواضح أن هذه الأخيرة يمكن أن تنقسم إلى تعليم للكتاب، وتعليم للحكمة. وتلك هي دعوة إبراهيم لهذه الأمة المسلمة. ولا يجوز أن

---

(١) لك أن تنظر تفاصيل لهذا من جانب آخر، على المستوى التنظيمي خاصة، وردت في الفصل الثالث من هذا البحث، خلال المبحث الأول في (المُقَدّم الرابع: التنظيم الفطري)

يكون تكرار هذه الحقائق بألفاظها في القرآن عبثًا بل هو تقرير تشريعي منهج الإسلام الدعوي، الابتدائي والتجديدي معًا، على سبيل الحصر والثبات والاستقرار، وكل وظائفه تلك تتعلق بالإنسان من النص وتنتهي به إلى النص. فاقرأ الآيات تَتَرى وتَدَبَّرْ، ثم عُدَّ حقائقها إن شئتَ عدًّا.

الأولى: قوله تعالى في دعوة إبراهيم لهذه الأمة: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة ١٢٩]

والثانية: قوله تعالى لهذه الأمة: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ۝ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة ١٥١، ١٥٢].

الثالثة: قوله سبحانه في سياق المن بنعمة الرسالة المحمدية على المؤمنين: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران ١٦٤]

الرابعة: قوله تعالى في بيان سر النقلة العجيبة للمسلمين من حال إلى حال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة ٢].

فأنت ترى أنه لا شيء من ذلك يخرج عن دائرة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [جمعة: ٢] وكلها اشتغال بالنص وفي النص. فهي وظائف ثلاث: تلاوة وتزكية وتعليم، ولكن قطعًا لكل وصيفة دلالة أعمق مما قد يتبادر إلى الذهن من معنى سطحي، بل هي - على ما فصلناه في غير هذا الكتاب - تلاوة بمنهج التلقي، وتزكية بمنهج التدبر، وتعليم بمنهج التدارس [1]. وكل ذلك مبثوث في الكتاب والسنة صراحة وضمنًا، يَرِدُ كلما تعلق الأمر ببيان منهج تجديد الدين أو الدعوة إليه، ولا شيء من ذلك كله يخرج عن

(١) مجالس القرآن (٣٥ - ٤٤) وبلاغ الرسالة القرآنية: (١٢٦)

مجال تداول النص الشرعي والاشتغال به قرآنًا وسنةً؛ ولذلك قال تعالى على سبيل الاستدراك على الذين بدلوا في المنهج وغيروا ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]

وقد قُرئت (تَعْلَمُونَ الكِتَابَ) كما هو معلوم؛ تنبيهًا إلى ضرورة الاعتصام بالوحي دينًا ودعوةً.

وأما السنة فأمرها في هذا الشأن أعظم من أن يحاط به، ومشهور جدًّا حديث النبي ﷺ، المضروب مثلا لمراتب العمل الدعوي في استثماره للوحي. قال عليه الصلاة والسلام: « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ. وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا. وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ! » [1] وقال: « بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً! » [2]. وقال أيضًا: « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ! » [3] فماذا بقي بعد ذلك من مدارات الدعوة غير النص؟

إن الجوهر الحقيقي والسر الأساس لوجود العمل الإسلامي إنما هو تجديد التلقي للقرآن الكريم رسالة الله رب العالمين؛ القرآن من حيث حقائقه الإيمانية ومفاهيمه الشرعية، مع استصحاب البيانات النبوية في ذلك؛ لتنزيله متدرجًا على المنهاج الدعوي السليم، وتحقيق مناطاته في واقع الإنسان بما هو حركة عمرانية في الزمان والمكان. القرآن هو رسالة الرحمن إلى العالمين، هذه حقيقة أضاعها اليوم كثير من المسلمين! ولعل عددًا غير قليل من أبناء الحركة الإسلامية سيحتاج إلى وقت ليس باليسير؛ من أجل أن تستيقظ روحه على هذه الحقيقة العظمى، ومن أجل أن يدرك كم كان يضرب - في حركته - بعيدًا عن المقاصد الأصلية للدين وللدعوة الدين. نعم كثير ما سيحتاج إلى وقت ليس باليسير، بل إلى مخاض فكري وروحي عسير، من أجل التخلص من الاعتقادات الباطلة، والمفهوم الزائفة، التي تراكمت على عقولنا وأهوائنا، في تصور مفهوم العمل الإسلامي، وفي تصور معنى الدين، وذلك بما طال

(١) متفق عليه. (٢ ، ٣) رواه البخاري.

علينا من الأمد - في حركاتنا وتنظيماتنا - ونحن نضرب خارج مدار القرآن العظيم؛ دينًا ودعوةً، وبما ضربنا على أنفسنا بأنفسنا من حصار فكري، وجدار تصوري، أعلت حجارته ومادته من الأباطيل، جدار شكل حولنا برزخًا سميكًا معقدًا، وكان حجابًا بيننا وبين فطرية الدين، يمنع عنا أشعة الشمس، ويحجب عنا الرؤية السليمة لدعوة الدين، وإنها لحقيقة كبرى نحن عنها غافلون. فانظر إليها - إن شئت - من خلال هذه الآية البصيرة وتدبر: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦] ثم اقرأ منهاج الإصلاح القرآني مقرَّرًا من لدن الله في كلمات ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠] فإنما الإصلاح: تمسيكٌ بالكتاب وإقامٌ للصلاة.

• • •



المقدمة الرابعة

الإنسان هو القضية!

والقضية ليست متعلقة بمصطلح « الحركة » فحسب؛ بل هي متعلقة « بجهاز مفاهيمي » كامل، وبنظام تصوري شامل، في إطار عمل منهاجي يرمي إلى الإسهام في تأصيل العمل الإسلامي في الكتاب والسنة، بين يدي بعثة تجديد الدين المقبلة.

ذلك أن العودة بالعمل الإسلامي إلى فطرته تقتضي العودة به إلى مجال عمله، والاشتغال به في صلب وظيفته، وفي جوهر موضوعه ومحل خطابه؛ بما هو عمل ديني أساسًا يُعْبَدُ الله به أولًا وآخرًا، ولا خلاف بين علماء الشريعة أن ذلك جميعًا إنما هو دائر – من حيث موضوعه الإجمالي على قضية واحدة، وهدف واحد، ومحل للخطاب واحد، هو الإنسان في علاقته مع ربه، وكل ما عدا ذلك فهو راجع إلى هذا المعنى بما في ذلك التشريعات المتعلقة بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان. فالعلاقات التشريعية والتربوية الأفقية في الكتاب والسنة كلها آئلة إلى العلاقة العمودية، التي هي ربط العباد بالله، تلك حكمة الخلق، وغاية الوجود البشري في الإسلام، وآيات القرآن وبيانات السنة لا تخرج عن هذا المعنى البتة كما سنفصل في متن هذه الدراسة بحول الله.

الإنسان إذن هو القضية، وهو مجال الاستثمار الرئيس للدين، وقضيته الكبرى دائرة بين أمرين اثنين. إما أن يكون عبدًا لله، وإما أن يكون متمردًا عليه، جل علاه، سواء في ذلك إيمانه وعقيدته، أو عبادته وكسبه، أو تشريعه وقوانينه، أو علاقاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية... إلخ. فالاستثمار الدعوي في الإنسان كفيلٌ - إذا استقامت الوسائل طبيعةً وفقهًا – بضمان ذلك كله، ذلك هو المنهج الفطري

الذي جاء به القرآن، واشتغل به الرسل والأنبياء، ومن سار على نهجهم من العلماء العاملين والحكماء الربانيين.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن تشخيص أمراض العصر في المجال الديني العام مؤدٍ - عند التتبع والملاحظة الاستقرائية - إلى حقيقة ظاهرة: وهي أن طبيعة الانحراف الحاصل اليوم في المجال الإنساني والاجتماعي إنما هو انحراف في الفطرة، واختلال في أخص خصائصها، كما سنبين بحول الله، وهذا لا يعالج إلا بمنهاج فطري رباني أصيل. فحاجة العصر وطبيعة الدين، كلاهما يقضي بضرورة العودة إلى « الفطرية » في العمل الإسلامي؛ لإعادة تشكيل الإنسان على موازين القرآن، وذلك هو جوهر بعثات التجديد الإسلامي عبر التاريخ، وتلك هي طبيعتها في دورتها المقبلة إن شاء الله.

لقد آن الأوان للتوقف عن إعادة إنتاج النمط المنحرف لبعض التنظيمات الإسلامية، التي خالفت منهاج الفطري السليم، بالتقعر في مصطلحاتها، والتنطع في مفاهيمها، والإغراب في وسائلها، والاختلال في أولوياتها، والخلط في مرجعيتها، فَعُقِّدَتْ وتَعَقَّدَتْ، وشُقَّتْ وتَشَقَّقَتْ، فلاَ ظَهْرًا أبْقَتْ ولاَ أرْضًا قَطَعَتْ! بينما هذا القرآن ينادي في كل وقت وحين: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

وعليه؛ فإن الاشتغال - في الوقت الراهن - بالتنظير لبرامج سياسية، أو حلول اجتماعية على المستوى السياسي؛ بدعوى الشمولية في العمل الإسلامي ما هو في الحقيقة إلا تجزيء له وتمزيق! بل الشمولية كل الشمولية إنما هي في إنتاج الإنسان القرآني أساسًا، وهذا كفيل بإنتاج كل شيء من تلك الفروع بصورة تلقائية، لكن عند وقته وإبانه. ورحم الله ابن عطاء الله السكندري ما سطره في حكمته الخالدة؛ حيث قال: « مَا تَرَكَ مِنَ الجَهْلِ شَيْئًا مَنْ أَرَادَ أَنْ يُحْدِثَ فِي الوَقْتِ غَيْرَ مَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ فِيه! »[1].

المشروع الإسلامي الشمولي هو المشروع القائم على شمولية القرآن في بناء الدين

---

(١) شرح الحكم العطائية للشرنوبي (٣١)

والشمولية - بمفهومها الإسلامي - إنما هي قائمة على بناء الأصول والكليات، من الحقائق والمفاهيم، على جميع المستويات العقدية والإيمانية والعمرانية. لكن بما هي أصول وكليات، لا بما هي تفاصيل وبرامج في السياسة والإدارة وقضايا العمل والعمال والبطالة فحسب، فهذه إنما هي وظيفة «الفقه التشريعي»، ومحاولة علاجها في بيئة مُنْبَتَّةٍ، غير مؤصلة في تلك الأصول والكليات، ضربٌ من العبث وتجريب للمحال.

إن العالم اليوم دولة واحدة، تحكمه كتلةٌ واحدة في القوة وفي السياسة وفي الاقتصاد والإعلام ومحاولة تغيير جزء منه على المستوى المحلي هنا أو هناك، مُؤَدٍّ بالضرورة إلى زعزعة أصله على مستوى مركزيته العالمية الاستعمارية، ودون ذلك ما دونه من مدافعة وصراع، لا بد من تقدير حجمه واستبصار مآلاته. فأي عملة قطرية في العالم اليوم ليست محكومة بالدولار؟ وأي سياسة في الوطن العربي والإسلامي لا تدور في فلكه ومداره؟ والملأ من أهله إنما يقاتلون في العالم هنا وهناك، ويوجهون سياسة هذا البلد أو ذاك، بالترغيب والترهيب خدمةً لسلطانه، هذه حقيقة العولمة اليوم، التي تقصد إلى صهر كل الشعوب والثقافات والمذهبيات، وسائر الخصوصيات في خدمة الدولار، ولا تسمح بوجود أي شيء ينقض أطروحتها الطاغية المتوحشة!

ومن هنا فكل مشروع إصلاحي لم يراعِ ذلك ضَلَّ وهَلَكَ! والإسلام في عهد الرسالة - وهو ينزل من رب العالمين القاهر فوق عباده - راعى توازن القوى الداخلية من قريش وأحلافها من العرب، والقوى الخارجية من فارس والروم؛ فبنى دولته بين ذلك جميعًا ببناء أصولها الأولى، دعوةً على المستوى البشري أولًا، عقديًّا وإيمانيًّا واجتماعيًّا، ثم ترقى بها - على المستوى البشري دائمًا - شيئًا فشيئًا، حتى تمخضت الدعوة عن دولتها في إبانها، والدارس للسيرة النبوية ومراحلها يدرك سنة التدرج الرباني بالدعوة الإسلامية، كيف انطلقت من القرآن إلى العمران، عبر بناء الإنسان والإنسان أساسًا، فكان من أمر الله ما كان.

ومن ثَمَّ فإن قضية الأمة اليوم في هذه المرحلة التاريخية ليست في البرامج التفصيلية بالدرجة الأولى، هذه قضية الأجيال اللاحقة، وهي فقه مرحلة التمكين للإسلام والمسلمين، المبشَّر به في القرآن وفي سنة سيد المرسلين، وهي من حيث

طبيعتها العلمية ليست ذات خطر عظيم. القضية اليوم هي أن يكون الناس مسلمين حقَّ مسلمين لله رب العالمين، كيف وهذه الأيديولوجيات اللادينية ما تزال تنازع الدين وأهله مشروعية التوجه والوجود في كثير من بلاد العرب والمسلمين؟!

وعليه؛ فالإنسان المقصود بالدعوة الفطرية؟ على المستوى القيادي – نوعان: إنسان فاعل، وإنسان متفاعل.

فـ « **الإنسان الفاعل** » هو العالم الرباني الحامل لرسالة القرآن، الفقيه المجدد، الداعية الحكيم – كما سيأتي بيانه خلال فصول هذا الكتاب – فخطابه هو على وزان خطاب القرآن عام شامل، يحمل إلى المجتمع – بكل شرائحه وطبقاته – كليات الدين، وأصوله الإيمانية والعملية، وقيمه الأخلاقية، تلاوةً وتزكيةً وتعليمًا؛ ولذلك كان هو الإنسان المركزي في دعوة الفطرية.

وأما « **الإنسان المتفاعل** » فهو الإنسان المتلقي خطاب الدعوة عن الإنسان الفاعل، ليحمله باعتباره فاعلًا أيضًا، لكن في مجال متخصص محدد، كالمجال التعليمي، أو المجال الإعلامي، أو المجال الاقتصادي، أو السياسي... إلخ. فالإنسان المتفاعل إذن هو: إنسان التعليم، أو إنسان الإعلام، أو إنسان المال، أو إنسان الاقتصاد، أو إنسان السياسة... إلخ

والناظر في قوى العمران البشري، المتحكمة في نسيجه الاجتماعي العام، يجد أنها ترجع إلى أربعة أسس هي: التعليم، والإعلام، والاقتصاد، والسياسة. إلا أنها ليست جميعها على تساوٍ فيما بينها، بل تتميز الأسس الثلاثة الأُوَل (التعليم، والإعلام، والاقتصاد) بكونها عملًا بنيويًّا تحتيًّا على المستوى القاعدي، بينما يتميز الأساس السياسي بكونه عملًا فوقيًّا، وبينه وبين الثلاثة المذكورة علاقة جدلية قوية جدًّا، أخذًا وعطاءً. ومن هنا كانت الأولوية الدعوية في المنهاج الفطري – باعتباره دعوة إسلامية تحتكم إلى سنة التدرج – إنما هي للعمل البنيوي التحتي، لكن طبعًا دون إهمال أهمية العمل الفوقي في علاقته الجدلية بالآخر.

ولذلك وجب أن تكون الأُسُسُ الثلاثةُ الأُوَلُ هي الميادين الرئيسة للعمل الدعوي في علاقته بالإنسان المتفاعل؛ إذْ من سيطر عليها صنع السياسة، ومن سيطرت عليه صنعته السياسة!

وأما محاولة صناعة السياسة بغير السيطرة عليها كليًّا أو جزئيًّا، أو على الأقل الحضور الميداني فيها؛ فهو ضرب من العبث، خاصة في الظروف العالمية والمحلية المعاصرة، والعمل فيها اليوم إنما يجب أن يكون من خلال البرامج الدعوية أساسًا. فالعمل الدعوي هنا هو العمل البنيوي التحتي، العمل الذي يشتغل في الميدان العملي في ظروف سيطرة الآخر عليه! وقد يختلف ذلك نسبيًّا على حسب طبيعة الميدان وإنسانه.

فتدخل الدعوة معركة التعليم بما هو وظيفة نبوية رئيسة، وذلك من خلال الاشتغال بإنسان التعليم أساسًا، من التلميذ إلى المُدرِّس، إلى أولياء التلاميذ وجمعياتهم، إلى المؤسسة التعليمية برمتها، المكلفة بهذا القطاع الحيوي الخطير، جهويًّا ومركزيًّا، تدخل ذلك كله داعيةً ومُدافِعةً ومُنافِسةً، وتشتغل فيه وبه، ممارسةً ومُنتِجةً! لكن على المستوى القاعدي دائمًا، وفي ذلك ما فيه من المكاسب الكبرى للإسلام ما لا يدانيه شيء آخر على الإطلاق.

كما تدخل الدعوة معركة الإعلام بما هو ميدان للبلاغ الدعوي ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢]. والإعلام هو ربيب التعليم؛ إذ هو عمل في الإنسان أيضًا، وصناعة لعقله ووجدانه، إصلاحًا أو إفسادًا! ومن هنا أهميته وخطورته على المستوى الدعوي؛ ولذلك فهو مجال وجب أن تدخله الدعوة على الوزان الأول أيضًا، أعني: داعيةً ومُدافِعةً ومُنافِسةً، وتشتغل فيه وبه، ممارسةً ومُنتِجةً.

فوسائل الإعلام اليوم رغم سيطرة التوجهات اللادينية على كثير من مواقعها الإستراتيجية، فإنه من الواجب على أصحاب العمل الإسلامي التدافع حول اعتلاء منابرها، لرفع كلمة الله، والصدع بدعوة الحق، ولا ننسى أن الوسائل المتاحة من شبكات الإنترنت والأشرطة السمعية والبصرية قد يبارك الله فيها، فتحرز بها الدعوة من المكاسب ما لا يحرزه المتغلب بفضائياته العظمى، فالمعركة الدعوية إذا تحقق أصحابها بإخلاصهم لله، تَوَلَّاهَا اللهُ جلَّ علاه، وبارك فيها، وجعل قليلها كثيرًا.

ثم تدخل الدعوة معركة الاقتصاد أيضًا، داعيةً ومُدافِعةً ومُنافِسةً، وتشتغل فيه وبه، ممارسةً ومُنتِجةً.

وتخوض معركته تربيةً للمستهلك أولًا، ثم دعوةً وتكوينًا للمستثمر والمنتج ثانيًا؛

لإشاعة قيم الإسلام الاستهلاكية والإنتاجية على السواء، في اتجاه أفق السيطرة الدعوية الجزئية أو الكلية على الإنتاج الرئيس وعلى السوق، لكن دائمًا على مستوى العمل التربوي القاعدي، المشتغل بصناعة رجل الاقتصاد المؤمن، ورجل المال المؤمن، ورجل الأعمال المؤمن، أكثر من الاشتغال بسياسة الاقتصاد العامة، فإنما هذه تكون بذاك ولا عكس. الرهان اليوم على إصلاح « إنسان المال »، الآخذ والمعطي سواء، استهلاكًا، وإنتاجًا؛ قصد الإسهام في توجيه دفة التدافع المالي شيئًا فشيئًا، على المستوى المحلي ثم العالمي عندما يأذن الله.

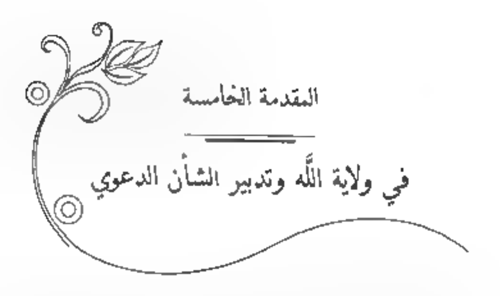
وأما العمل السياسي فَيُكْتَفَى فيه بمخاطبة إنسانه بكلمات الله، بعمقها الغيبي وامتدادها الأخروي، دعوةً وتوجيهًا، دون عمل ولا قصد إلى مدافعته في مغانمه ومناصبه، ولا حتى العمل بما يشعره بذلك من الدخول في منافسات انتخابية ضيقة أو تحالفات حزبية خاسرة، تؤدي في النهاية إلى محاصرة الدعوة ورجالها؛ إذ المقصود في الدعوة الفطرية - في هذا المجال - إنما هو « الإنسان السياسي » بشتى أطيافه، من « اليمين » إلى « اليسار »، ومن « المعارضة » إلى « الأغلبية »، ومن الميداني إلى الإداري كل أولئك جميعًا موضوع للعمل الدعوي؛ عسى أن يستعيد فطريته.

نعم، تعمل الفطرية في دعوتها للإنسان السياسي على تغليب فضله على نقصه، ونصرة خيره على شره، وحقه على باطله، ثم دفع كيده بإخلاصه، لكن دون أن تكون هي طرفًا في صراع الحقائب والمناصب، بل الرهان على أن يستجيب كل من موقعه لكلمات الله! أو ليس كلهم جميعًا بني آدم؟ أليسوا معنيين بخطاب القرآن وبدعوة الإسلام؟ أليسوا مسلمين؟ مهما كانت أحوالهم بين الصلاح والفساد؟ تؤرقهم حقيقة الموت، لو أوقفهم الخطاب الدعوي على مفهومها الإسلامي، وما يترتب عليه من الحقائق الإيمانية والمآلات الأخروية؟

إني على يقين بأن الدعوة الإسلامية بصبغتها الفطرية ستجد مكانها بين أولئك جميعًا، وتصنع تيارها من كل الأطياف؛ لأن السياسة الحزبية بصورتها الحالية إنما هي صنيعة بشرية « براجماتية » أشبه ما تكون بالطائفية؛ خلوها في الغالب من المصالح العامة الحقيقية؛ اللهم إلا ما كان شكلًا وكمًا، فمصالحها إنما هي لبعض الناس لا

لكل الناس، بينما الدين هو كله لله، وما كان كله لله عاد فضله على كل الناس ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

* * *



المقدمة الخامسة

في ولاية الله وتدبير الشأن الدعوي

واجب الوقت اليوم هو صناعة المسلم العبد لله الواحد القهار، كل المشاريع الدعوية يجب أن تدور حول هذا المدار، وكل البرامج الإسلامية يجب أن تخدمه وقد تقرر في الكتاب أن الله تعالى إذا أخلص له عباده تولاهم ونصرهم، ومكّنَ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وإلا فلا، مهما خاضوا في عجيج السياسات وانخرطوا في ضجيج النقابات! وولاية الله باب الخروج الأوحد بالعمل الإسلامي من أزمته، وباب الوصول به إلى غايته، وما زاده العدول عن هذه الوجهة إلا خبالًا

إن العمل الإسلامي الذي لا يتولاه الله لا يصل الغاية أبدًا، فإذا تولى اللهُ عبدًا أو قومًا؛ بما حققوا من تجرد له وإخلاص له وحده دون سواه، كفاهم كل شيء. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧].

تلك قاعدة كلية استقرائية تجري مجرى القوانين الراسخة في الكتاب والسنة، ويكفيك منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٦، ١٩٧] ومن هنا قرر سبحانه أن سرَّ وراثة الأرض قانونٌ ثابت لا يتغير، جعله في «عباده الصالحين» خاصة! وهو قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥-١٠٨].

وقوله سبحانه ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

وقال سبحانه ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦]. ذلك قدرُ الله السابقُ في علم الله، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

ومعنى الولاية هنا: إنما هو راجع إلى تولي الله لمن تولاه؛ أي أن الله - جل علاه - يتخذ هذا الإنسان، أو تلك الدعوة، أو أولئك القوم، من جنده وخاصته، بما رضي عنهم ورضوا عنه، وبما أخلصوا له العبادة والعمل، فعلًا وقصدًا، فتجردوا من كل الأهواء، وتخلصوا من كل الأدواء، ظاهرًا وباطنًا؛ فجعلوا كل شيء لله، ولم يجعلوا من أمر الدين والدعوة شيئًا لأنفسهم البتة، فلم يكونوا في ذلك كله إلا لله وبه، لا شبهة ولا شائبة، فإذا صفَوْا على ذلك أُلقيتْ عليهم محبة الله، وهو مقام "الولاية الحق" ودون ذلك ما دونه من مسالك المجاهدات، ولكنه يسير على من يسره الله له. واليسر فيه يكون على قَدْرِ ما أضمر العبد من الصدق لله في حاله، والتجرد له - جل علاه - في القيام بحقه ومراده. وإنما الموفق من وفقه الله.

وسبيل الولاية بهذا المعنى واضح جدًّا من الآيات الآنفة الذكر. ولنا أن نزيدها بيانًا بحديث الولاية المشهور، وهو المروي في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **إِنَّ اللَّهَ تعالى قَالَ: « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ! وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ!** »[1]. ومنه أيضًا قول النبي ﷺ: « **كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، ذِي طِمْرَيْنِ، لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ!** »[2] وهذا المعنى العظيم في الكتاب والسنة كثير.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الترمذي والضياء عن أنس مرفوعًا، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير، حديث رقم: (٤٥٧٣).

ومن هنا يتبين أن نجاح العمل الإسلامي رهين - أولًا - بمراقبة قصد الله في التفكير والتدبير، ومشروط بتحري مراده تعالى من عباده في علاقتهم به تعالى وبدينه، ثم مراعاة أولويات الشريعة كما عرضتها نصوص القرآن والسنة، قبل أولويات السياسة، وجعل هذه محكومة بتلك في الدعوة والعمل؛ إلا ما استثناه الدليل، واقتضاه الفقه السليم للدين.

فإذا حصل للصف الإسلامي ذلك على الإجمال، تبينت له قاعدة مهمة جدًّا في فقه الدعوة هي من القواعد الكبرى في الإسلام وهي: أن تدبير شأن الدعوة في الأرض إنما هو من شؤون الربوبية، لا قيادة للإنسان فيه على الحقيقة ولا ريادة وإنما المؤمن فيه جندي من جنود الله، وعبد من عباده! هكذا وصف اللهُ عبادَه في هذا السياق خاصة، كما مر في الآيات السابقة ثم إن آية التدافع الإصلاحي في القرآن تقضي بهذا الأمر قضاءً؛ قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]. ويفصلها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

فالفاعل على المستوى النحوي في الآيتين معًا واحد، هو: الله ﷻ فالمصدر (دفاع) أو (دفع) كما في رواية حفص أضيف إلى فاعله، أي إلى لفظ الجلالة (الله) ؛ فعمل عَمَل فعله؛ فاتحد مفعولًا به، هو: (الناسَ) فالناسُ مُدافِعُهُم ومُدافَعُهُم، كلهم جميعًا في هذا السياق، مفعولٌ به لقَدَرِ الله وتدبيره سبحانه، فهو الفاعل للإصلاح والمُدَبِّرُ لأمره، وما الناس في ذلك إلا عبيد، وإنما غاية أمرهم أنهم مبتلون في هذا الشأن بكسبهم ما بين عبدٍ جندي لله، وما بين عبدٍ متمرد على الله.

هكذا قرر القرآن أمر الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، وهكذا شاهده الأنبياء والصديقون، وهكذا عاشوه!

ولنا أن نتأمل ذلك بوضوح في قصص القرآن الكريم ومن أبلغ نماذجه في الكتاب

مشاهد ومواقف من قصة موسى عليه السلام التي تعكس من القواعد الدعوية ما يكشف بالله رائك البيان

إن أول أمر يستوقف الدارس في قصة موسى عليه السلام هو حضور «ثنائية الغيب والشهادة» في تدبير أمر الدعوة إلى الله. ذلك أن الله جلّ علاه يجري حقائقه بصيغة تلامس الثنائي بين الغيب على مقتضى الأمر القدري، والمكتوب القضائي؛ كـ قضاء الله وقدره منذ الأزل سبحانه جل علاه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه؛ لأن ذلك من خواص ربوبيته تعالى. فقص علينا سبحانه الترتيب الإلهي الحكيم، والتدبير الرباني العظيم لشأن الدعوة وإصلاح الأرض، بل بعد ما ملأها فرعون وملؤه فسادًا. فهذا الترتيب تمتد من قبل ميلاد موسى نفسه؛ حيث هيأ الحق سبحانه ظروفه للإصلاح كاملة، ثم بعث رسوله في بني إسرائيل عبدًا منفذًا لقضاء الله وقدره على سبيل الابتلاء به ولقومه، ولفرعون وملئه بهذا الأمر العظيم؛ فتسير الأحداث بعد ذلك تترى على الأرض حدثًا حدثًا على مقتضى تدبير الله وحكمته؛ فخريطة القصة الدعوية كلها مرسومة في السماء، محسومة في عالم الغيب. والمؤمن البصير بدين الله يرى هذه الحقيقة وإن لم ير تفاصيلها، فيستمد من مواده الشأن الدعوي؛ فمدافع الإصلاح هي في السماء، وإن عالم الغيب هو متحكم في عالم الشهادة والعكس غير صحيح. وعندئذ فالمهتم يكرر للواقع من كرامات لا يجوز حسبانها. فالداعية مع ذلك يحاول بما آتاه الله من إيمان وعلم بالله وبرحمته أن ينظر في مراد السماء وما يقتضيه من إكراهات الأرض، وكذلك أن للأمر ضروراته فالسماء بعد قضائها وقدرها [illegible] ومن لم يدرج هذه الحقيقة الإيمانية في تدبير الشأن الدعوي سيخطئ كثيرًا في السير، ويضل عنه باب الخروج من المضايق، إلا ما شاء الله.

والآيات الآن صرت من قصة موسى عليه السلام تبين لنا كيف أن الله جلّ علاه قد هيأ كل شيء من أمر قصته ودعوته قبل بعثته حتى جاء الإبان [illegible] تعالى وقائعه منجمة ومفرقة على حكمة تامة كما نزل القرآن مفرقًا على حكمة ترتيب إلهي متسلسل عجيب. وذلك في قول سبحانه لنبيه موسى عليه السلام: ﴿ ولقد مننا عليك

[illegible] ﴿ [illegible] ﴾ [illegible]

[illegible] ﴿ [illegible] ﴾ [illegible]

[illegible] قومه قال تعالى ﴿ فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ۝ قال كلا إن معي ربي سيهدين ۝ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ۝ وأزلفنا ثم الآخرين ۝ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ۝ ثم أغرقنا الآخرين ۝ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ۝ [illegible]

[illegible]

رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٦١ - ٦٨]. هكذا قررها موسى ﷺ ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ مبينًا ضرورة استحضار ثنائية الغيب والشهادة في تدبير الشأن الدعوي مما مضَى وبيّنا.

وهو عين ما سلكه محمد رسول الله ﷺ في قصته وفي تربيته لأصحابه، وذلك على أكمل ما يكون المثال، من تدبر قصته في القرآن، ودرس مراحلها وترتيب وقائعها في سيرته، عليه أطيب الصلاة والسلام. ويكفيك من تقرير هذه القاعدة في سيرته ﷺ وهو في أشد مراحل محنته، وقد اشتد ابتلاء بأصحابه المستضعفين أشد في مكة - الحديث الصحيح الذي يرويه الصحابي الجليل خباب بن الأرت ﷺ، قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بُرْدَةً له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يُؤْخَذُ الرجلُ، فَيُحْفَرُ له في الأرض، فَيُجْعَلُ فيها، فَيُجاءُ بالمنشار فيوضع على رأسه، فَيُجعلُ نصفين! ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه! فما يصده ذلك عن دينه! والله ليتمن هذا الأمر؛ حتى يسير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئبَ على غنمه! ولكنكم تستعجلون!»[1].

وغير ما مرة كشف النبي ﷺ لأصحابه مآل دعوته كما هو ثابت في سيرته الصحيحة وما سوف يحققونه من نصر، وما سوف تمتد إليه خيولهم من فتوح، فقد وَعَدَ أصحابَه امتداد سلطان الإسلام؛ ليستوعب ما بين مشارق الأرض ومغاربها، حتى يشمل كنوز الفرس والروم، قال لهم ذلك وهم يعانون أشد من الخوف والجوع، في ضيق الحصار الشديد على المدينة من غزوة الخندق.

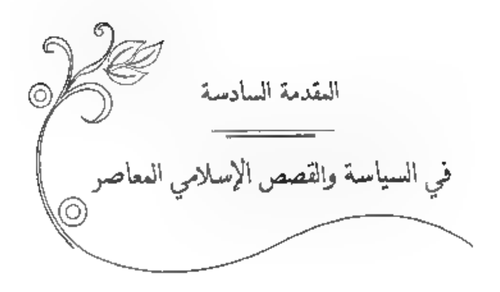
ومثل هذا في السيرة النبوية الصحيحة كثير.. والعجيب أنه ﷺ لا يذكره لهم غالبًا إلا وهم في أشد مضايق الابتلاء والاستضعاف! وذلك ربطًا لهم ولدعوتهم بثنائية الغيب والشهادة في تدبير الشأن الدعوي، واستنادًا إلى الله - جلَّ وعلا - وتوكلًا حقيقيًا عليه، وتجردًا من كل حول وقوة؛ مما قد يوقع الداعية في العُجْب والغرور؛ فيحبط عمله، وترتفع عنه ولاية الله ثم يكون من الخاسرين دينًا، ومن المهزومين دنيا! والعياذ بالله!

---

(١) رواه البخاري.

وما أفسد العمل الإسلامي شيء، ولا أخرجه عن مقاصده التعبدية، لدى كثير من الجماعات والتنظيمات؛ بل رفعَ ولايةَ الله عنه – تسديدًا وتأييدًا ونصرةً - مِثْلُ إفساد أصحابه له؛ بالحرص على تحقيق الذوات واستعراض العضلات.

* * *



المقدمة السادسة

في السياسة والقصص الإسلامي المعاصر

والذي يظن - بعد ذلك - أننا بهذا المنهج سنقاطع السياسة، فهو يعاني من مشكلة في مفهوم «الدين»؛ إن الدين - بما هو خضوع لله رب العالمين - يتضمن تصورات ومواقف سياسية في كل شيء؛ من أصوله إلى أدق فروعه! فأن «تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله» سياسة، وأن تسجد لله، ولله وحده، سياسة، وأن تستجيب لنداء المؤذن كل فجر سياسة، إن السياسة سارية في الدين (سريان السم في الحبيب) على حد تعبير المغاربة. لكن تجريد قضاياها في العمل الدعوي وعرضها على أنها هي الدين، أو على أنها عمود الدين، انحراف عن منهج الدين وهو ما سميناه من قبل بالتضخم السياسي [1].

إننا نسعى بهذا المنهاج الفطري إلى إنتاج سياسة تسوس السياسة ولا نشتغل بالسياسة أو بتعبير المناطقة: سياسة حاضرة «بالقوة» في كل شيء، وإن لم تحضر «بالفعل» في كل شيء وبذلك تكون - بإذن الله - موجهة لكل شيء ومعناه أن علينا أن نصنع السياسة بصناعة الدين؛ لا أن نصنع الدين بصناعة السياسة. كما تفعله كثير من الحركات الإسلامية اليوم! وبين المعنيين فرق كبير، بل هي معادلة ذات طرفين، مقتضاها: أن الدين في الطرف الأول أصل والسياسة فرع، وهو في الطرف الثاني فرع والسياسة أصل! كما أنه في الطرف الأول مصدر إنتاج حاكم؛ فيكون له الأثر البالغ في منتوجه على موازينه الشرعية ومقاصده التعبدية، بينما هو في الطرف الثاني مجرد منتوج محكوم، خاضع لضرورات الفعل السياسي وأهوائه

---

(١) البيان الدعوي والتضخم السياسي للمؤلف.

وبذلك ما له من آثار على المستوى التصوري والتربوي لأبناء العمل الإسلامي ودعاته على السواء؛ سلبًا أو إيجابًا على حسب موقعهم من المعادلة المذكورة

وهذا التصور للمسألة السياسية في العمل الإسلامي ليس ضربًا من التنظير الطوباوي أو التوهم الخيالي، بل هو عين العمل النبوي في بدء دعوة الإسلام، ثم هو تجربة وقعت بالفعل في التاريخ المعاصر للعمل الإسلامي. حيث كانت لها نتائج دعوية متميزة في مشروع تجديد الدين في المجتمع، وآثار واضحة في إرساء التوازن السياسي بأوطانها لصالح الدين وأهله، في سياق مشروع دعوي متدرج على موازين الأولويات الشرعية، ولم يكن هذا المنهج حكرًا على جماعة بعينها في العالم الإسلامي، ولا على تيار إسلامي معين بمفرده، بل قد اشترك فيه أكثر من مدرسة وتيار، وإن كان ذلك على اختلاف بينها في مراتب التحقق من منهجه وقواعده.

وليس معنى هذا أن ننقل تجربة هذا الاتجاه أو ذاك، أو أننا سنستورد هذا (السيناريو) أو ذاك، كلا قطعًا؛ لأنه ببساطة (لا يمكنك أن تسبح في النهر مرتين) كما قال الحكماء. وإنما نورد التجارب مورد القصص للاستئناس والاعتبار، واكتشاف سنن الله في أسرار التحولات الإنسانية والاجتماعية، على ما دلنا عليه القرآن الكريم والسنة النبوية، وللقصص في القرآن أثر عظيم في الدلالة على سنن التاريخ وقوانين العمران البشري.

ذلك هو منهج القرآن، وتلك هي طبيعة الدعوة النبوية، كما تواترت سننُها في كتب الحديث والسِّيَر، ثم تلك هي طبيعة الدين في كلياته وأصوله وما ينبغي أن تكون أصول الدعوة إليه إلا على موازينه، لا على موازين غيره من الأدبيات الدخيلة، والمقاييس الأرضية المستوردة!

ومن هنا؛ فإنه لا ينبغي أن نضرب بكل مكتسبات العمل الإسلامي المعاصر عرض الحائط، كلا، فهذا إنما هو جهل أو غرور! بل لا بد من الاستفادة من كل مكتسباته الإيجابية في بعثة التجديد المقبلة عند العودة به إلى فطرته وأصالته. ولا ينبغي أن نستثني من ذلك تجربة أو جماعة أو تيار. بل كل طائفة إسلامية عندها من الحق كما عندها من الباطل على قدر بعدها أو قربها من موازين الشريعة وأولويات الدين وقواعده. وصحيح أن الرجوع إلى نصوص الكتاب والسنة فيه الغنية

والكفاية، لكن القرآن علمنا أن التجربة الواقعية مهمة جدًّا في تمحيص الدعوة؛ لما تتيحه للمراقب الحصيف من النظر في طبيعة النجاح والإخفاق، عند تحقيق مناط المفاهيم والأحكام، في مجال الدين عمومًا ومجال الدعوة إليه خصوصًا؛ ولهذا قص الله القصص في القرآن. ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف ١١١]. ولا شك أن تجارب الحركات الإسلامية المعاصرة هي من «قصص» هذا العصر، فلا يضرب عن كسبها إلا جاهل بسنن الله في التاريخ.

والناظر في كسب العمل الإسلامي المعاصر يستطيع تصنيفه - باعتبار آخر - إلى ثلاثة أصناف على الإجمال، كل صنف منها اختص بجانب إيجابي في الدين والدعوة، وبرز فيه حتى كانت له فيه الريادة والإمامة، بينما ضعف في جوانب أخرى، ضعفًا أدى به في بعض الأحيان إلى الاختلال.

والأصناف الثلاثة للعمل الإسلامي المعاصر هي: المدرسة السلفية العلمية، والمدرسة الحركية التنظيمية الإصلاحية، ثم المدرسة الدعوية ذات الطابع التربوي الصرف. **والاستفادة من ذلك كله في سياق تجديد الدين على موازين الفطرة، مما قرره الكتاب والسنة، راجع - في نظرنا - إلى الإمكانات التالية:**

أولًا: الاستفادة من الإيجابيات التي حققتها المدرسة السلفية العلمية في مجال تصحيح المفاهيم العقدية، وتصفيتها من الشركيات والخرافيات، وما أنجزته من مجهود مشكور في مجال التحقيقات الحديثية، مما كان له أكبر الأثر في تصفية التراث الإسلامي على العموم.

ثانيًا: الاستفادة من إيجابيات المجهود الفكري في مجال الدراسات الواقعية والسياسية، مما أنجزه مفكرو الحركة الإسلامية الحديثة في العالم الإسلامي، وما أسهموا به من تحليل لمعطيات الواقع العالمي والإقليمي، ولما يتهدده من أخطار وأضرار؛ مما أنتج منهجًا متميزًا لفقه الواقع، مما لا مناص عنه للداعية في سياق تحقيق مناط الأحكام الدعوية، ومما يعتبر الإعراض عنه ضربًا من الجهل بطبيعة الدين، من حيث نزل؛ ليتحقق في إطار الزمان والمكان، وليجري على موازين العادات في سنن التاريخ، وما تقتضيه ضرورات الواقع البشري.

ثالثًا: الاستفادة من التجارب التربوية الناجحة، التي حققها التيار التربوي الروحي، في كلٍّ من جماعة الدعوة والتبليغ، ذات الطابع الفطري البسيط، وجماعة النور التركية ذات الطابع القرآني العميق، التي أسسها مجدد الدين ببلاد الأناضول الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، وطورها خَلَفُهُ الداعية الحكيم الأستاذ فتح الله كولن.

وكما نعلم أنَّ لكل مذهب عُقَلاءَهُ وحُكَمَاءَهُ، فإننا نعلم أيضًا أنَّ لكل مذهب سُفَهاءَهُ ودهْمَاءَهُ! وكما نعلم أيضًا أن لكل مذهب إيجابياته وإشراقاته، فإننا نعلم أيضًا أن لكل مذهب سلبياته وشَطَحَاته! وإنما الحَكَمُ في ذلك جميعه كتابُ الله وسنةُ رسوله ﷺ ومقتضيات أصول العلم وقواعده المستنبطة منهما.

ولذلك فإننا نكرر ونقرر - مرة أخرى - أن استفادة الدعاة من التجارب الدعوية المختلفة، لا ينبغي أن تكون على سبيل النقل الحرفي لصيغها، وإنما هي من الناحية التاريخية « قَصَصٌ » للاعتبار. وإلا فلكل بلد خصائصه التي يكون إهمالها ضربًا من الجهل بطبيعة الدين نفسه. وقد رأينا في « قَصَصِهِم » عِبَرًا من الفشل والنجاح في أمر الدين والدعوة، وحِكَمًا بالغة، مما تشد إلى مثله الرحال.

وبعد هذا وذاك؛ فنحن نرى بناءً على استقراء واقع الحركات الإسلامية، وطبيعة الأزمة الإسلامية الحالية، في محنتها وفتنتها معًا، أن العالم الإسلامي مُقْبِلٌ - بحول الله - على « بِعْثَةِ تَجْدِيدٍ للدين » جديدة كما سنوضحه مفصلًا بحول الله بهذه الورقات. بعثة تجديد تستوعب التراث الحركي والدعوي الإسلامي المعاصر، ثم تتجاوزه إلى استيعاب أدق للمستقبل بحول الله، على ما تقتضيه التغيرات العالمية الجديدة، مسترشدة بهدي القرآن، وبياناته النبوية في الشأن الدعوي. « بعثة تجديد » نرى أن معالمها بدأت تظهر بالفعل على أرض الواقع، في عدة أماكن من العالم الإسلامي، لكنها لم تكتمل صورتها بعد. وهذا الكتاب إن هو إلا إسهام من جانبنا على ما يسّره الله - في البناء النظري والتطبيقي لبعض معالمها. والله الموفق للخير والهادي إليه.

* * *



المقدمة السابعة

في أقسام مشروع الفطرية

ومن هنا فإن مشروعنا هذا قائم على ثلاث مجموعات من التصانيف، جعلنا أغلبها ضمن سلسلتنا الدعوية: (من القرآن إلى العمران)

المجموعة الأولى: في منهج تجديد العلم ومفهوم العالم، وقد أصدرنا في ذلك كتاب (أبجديات البحث في العلوم الشرعية: محاولة في التأصيل المنهجي) ؛ ورسالة (مفهوم العالِمِيَّةِ من الكتاب إلى الربانية) ؛ وذلك لأن المشروع الدعوي رهين بوجود العلماء المجددين أولاً؛ إذ هم مناط بعثة التجديد، كما تنص عليه نصوص القرآن والأحاديث النبوية المستفيضة، مما بيناه في هذا الكتاب وغيره. ثم هو رهين بتأسيس مدرسة علمية شرعية، تجمع ما بين (التأصيل والتأهيل) . التأصيل الذي يعيد إنتاج « الفقه في الدين » بمعناه الشمولي الأصيل، ويجدد مناهج البحث في التراث الإسلامي؛ بما يجدد حركة الاجتهاد، ويجدد حركة تداول النص الشرعي بمنهج فقهي راشد، لا حرفانية فيه ولا تسيب، والتأهيل الذي يُخَرِّجُ الطاقات العلمية الواعدة، ويُكَوِّنُ الملَكَاتِ الاستنباطية الراشدة، ويدفع بها إلى آفاق الاجتهاد والتجديد؛ لبناء صرح الأمة العلمي في منهج فقه الدين وتنزيله.

المجموعة الثانية: في التأصيل النظري للعمل الدعوي، وهي راجعة إلى بيان طبيعة المنهاج الفطري، القائم أساسًا على منهج التلقي التربوي للقرآن الكريم، وعلى التداول الاجتماعي لآياته ومفاهيمه. ويمثلها هذا الكتاب الذي بين يديك أساسًا أعني كتاب (الفطرية)، إضافة لما سبق أن أصدرناه في نفس الاتجاه من الكتب الممهدة له، مثل كتاب (التوحيد والوساطة في التربية الدعوية)، و (بلاغ الرسالة القرآنية).

المجموعة الثالثة: في مجالس القرآن وتَلَقِّي رسالاته، وهو العمود الفقري لمشروعنا الدعوي على المستوى التطبيقي خاصة. وقد أصدرنا فيه رسالة (مجالس القرآن)، التي ترمي إلى محاولة بيان المنهج العملي لتدارس القرآن الكريم وتدبره، وطريقة بناء مجالسه، ومنهج تداوله على المستوى الاجتماعي. والعزم بحول الله معقود على جعل ذلك الكتيب مقدمة لدراسات تطبيقية في كتاب الله، ذات طابع تربوي، تقوم على مدارسة السور والآيات على « وحدات » أو حلقات، كل وحدة أو حلقة تشكل « مَجْلِسًا قُرْآنِيًّا » متكاملًا، وذلك على حسب ما يستوعبه المجلس الواحد من قضايا، في ظرف زمني قريب، لا إفراط فيه ولا تفريط، مما تضيقه طبائع النفوس، مع تيسير طريقة التدبر للآيات، بصورة تربوية تعليمية، واستخراج ما تيسر استخراجه مما تتضمنه من هُدَى قرآني، ثم بيان مسلك التزكية والتحقق بالحقائق الإيمانية المتلقاة من الآيات المدروسة عند نهاية كل « مجلس ».

ونحسب أن هذا المشروع بهذه الصورة المدرسية التعليمية، هو مما لم تتداوله كتب التفسير، وما تزال المكتبة القرآنية تعاني من فراغ في هذا الشأن خاصة. أما العمل فهو من الناحية المنهجية عين مجالس القرآن النبوية، وهو عين ما تواتر الخبر به عن مجالس أصحاب رسول الله مع أتباعهم، بعد تفرقهم في الأمصار للدعوة والجهاد كما بيناه في محله (١) وإنما نحن في هذا مقتدون متبعون ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ولا شك أن كثيرًا من كتب التفسير تتضمن من بيانات الهدى القرآني الشيء الكثير، لكنها تحتاج إلى أهل العلم والاختصاص الشرعي لاستخراجها والكشف عن وجوهها. بَيْدَ أن الغاية من هذا المشروع إنما هو عرض ذلك واضحًا مفصلًا، بصورة مدرسية تربوية بنائية، ومرتبًا عبر رسائل بينة، سهلة التلقي للمتلقين، من غير المختصين بالشريعة أساسًا؛ قصد تعميم الاستفادة من كتاب الله جلَّ علاه، على مستوى إصلاح النفس والمجتمع؛ تحقيقًا لمناط أيه وظائف النبوة ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

---

(١) بينا ذلك مفصلًا في كتيب مجالس القرآن (٢٩)، وفي بلاغ الرسالة القرآنية (١٢٦)

والفكرة الرئيسة من كل ذلك هي قضية «التلقي» و«رسالات القرآن» من حيث نصحها لهدي الله جل علاه، لأنا نحسب أن أكبر محنة أصابت العالم الإسلامي في هذا العصر هي [illegible] في فصل الأمة عن كتاب ربها القرآن العظيم [illegible] جيال بعد جيل من المسلمين [illegible] مع الأسف الشديد لا تعرف القرآن إلا موهنة ومتوصلاً [illegible] منها من [illegible] ومحاربه.

والعودة إليه لا تكون بمجرد تشجيع حفظه واستظهاره فحسب، وهو عمل عظيم وجليل بلا شك، [illegible] ولكن قبل ذلك وبعده يكون بتجديد شيء أساس في الأمة هو ما نعبر عنه بـ «التلقي»، إلهاماً بمعنى [illegible] الإيمانية ومفاهيمه التربوية وصفاته الخلقية وأحكامه الشرعية، وذلك استفادة من [illegible] من مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [illegible] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [illegible] منهج النبي ﷺ في التعامل مع القرآن هو [illegible] كما بيناه مفصلاً [illegible] من قبل، كما سنبينه [illegible] بحول الله(١).

وهذا لا يكون إلا بالرجوع إلى منهج [illegible] في فهم قضية القرآن ومنهج الرسول ﷺ في تلقيه عن الله، ومنهج صحابته رضوان الله عليهم في تلقيهم عن رسول الله، وهو منهج واحد ثابت، لكن له تجليات على حسب [illegible] شتى، وهو أمر مسطور في الكتاب لا يحتاج إلا إلى استخراج، وهو ما نحاوله هنا مشروحاً بعون الله.

فلا [illegible] التي [illegible] النبي ﷺ إنما كانت «منهج تلقي» [illegible] [illegible] بعد [illegible] في [illegible] الإصلاح [illegible] في الإسلام كما هو واضح [illegible] في [illegible] من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً [illegible] عليهم [illegible] في [illegible] معرفة بذاتها على أنها [illegible] في الإسلام [illegible]

(١) [illegible] وبلاغ الرسالة القرآنية وبدائل المنهج.

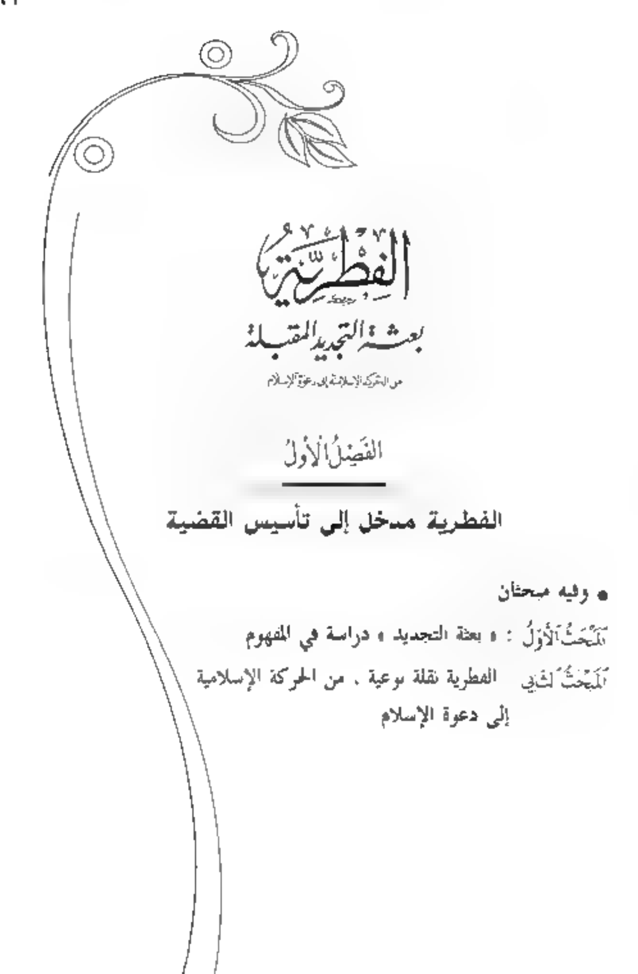
النبوي، وهو ما ورد في كتاب الله في أكثر من موطن، ويكفيك منه خاتمة سورة النمل، من قوله تعالى على لسان رسوله ﷺ مقررًا منهجه الدعوي بأسلوب الحصر المانع: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩١ - ٩٣] ولكنها تلاوة ليست كأيّ تلاوة إنها تلاوة المتلقين للقرآن العظيم، الذين هم وحدهم بهم القدرة على إلقاء حقائقه الإيمانية في قلوب المسلمين وفي قلوب من شاء الله من غير المسلمين وتلك هي فكرة مجالس القرآن الكريم.

والآيات لمن تدبرها جامعة مانعة لما نحن فيه.

ونحن نؤمن يقينًا أن هذا المنهاج القرآني الفطري في التعامل مع القرآن المجيد، إذا تم تعميمه (تِلَاوَةً وتَزْكِيَةً وتَعْلِيمًا) على مقتضى الوظائف الثلاث النبوية، وما يتفرع عنها من وسائل وبرامج، كان كفيلًا بإعادة تجديد دين الأمة بصورة شاملة، سواء في ذلك ما يصلحها في ذاتها لذاتها، وما يجعلها تسترجع دورها الحضاري العالمي، وموقعها الريادي القيادي، شهادةً على الناس أجمعين؛ دِينًا وشَوْكَةً، واجتماعًا وسياسةً، واقتصادًا وعمرانًا! ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

ذلك، وما التوفيق إلا بالله.

* * *



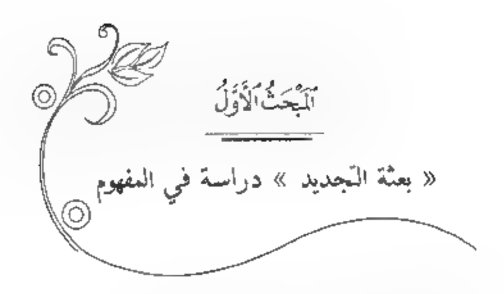
الفصل الأول

الفطرية مدخل إلى تأسيس القضية

- وفيه مبحثان

المبحث الأول : « بعثة التجديد » دراسة في المفهوم

المبحث الثاني : الفطرية نقلة نوعية ، من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام



المبحث الأول

« بعثة التجديد » دراسة في المفهوم

يرد مفهوم (البعث) في القرآن والسنة بمعنيين اثنين:

الأول هو معنى إحياء الأموات، كما في قوله ﷻ: ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ [البقرة ٢٥٩]. وقوله سبحانه: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل ٣٨] وقوله أيضًا: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج ٧]... إلخ، فالبعث هنا فعل قدري تكويني يرجع إلى إرادة الله - جلَّ وعلا - بإحياء الميت، وتجديد الحياة فيه؛ ليخرج من عالم الفناء إلى عالم البقاء، أو من دائرة العدم إلى دائرة الوجود.

ولا يكون البعث - بهذا المعنى - إلا بعد حياة سابقة يعقبها موت؛ لما معنى (البعث) من دلالة على إعادة الحياة إلى من فقدها، وليس بمعنى نفخ الحياة ابتداءً، فهذا إنما هو (خلق) .

وأما البعث فهو (إعادة خلق) ، كما هو مفهوم من النصوص السابقة، وفي قول الله أيضًا، في حق يحيى ﵇ ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم ١٥].

وأما المعنى الثاني لمفهوم (**البعث**) فيرجع إلى معنى (الإرسال) وهو: تكليف الرسل بوظيفة البلاغ. كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾ [القصص ٥٩] وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ

﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء ١٥]، وقوله جل وعلا: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ [الأعراف ١٠٣]. ونحو هذا وذاك في القرآن كثير.

فالبعث هنا يرجع إلى معنى تكليفي، وأمر تشريعي تعبدي، بينما هو في الأول راجع إلى أمر قَدَري تكويني، إلا أن هذا المعنى الثاني يستصحب المعنى الأول من الناحية السيميائية، فلا يمكن تجريد اللفظ من إيحاءاته الإحيائية، فكأنما ورود المبعوث على الأمة الضالة نوع من الغيث يحيي منها الموات، ويبعث فيها الحياة! ومن هنا كان قول النبي ﷺ: « **إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها** »[1]؛ تعبيرًا جامعًا لكل تلك المعاني، فهو دالٌّ بالأصالة على تجديد البعثة بالمعنى الإرسالي، أعني إرسال العلماء لا الأنبياء، وليس هو ابتداء وحي، وإنما هو تعليم وحي إعادةً وتجديدًا، وهو دال بالتبع على معنى الإحياء، فبعثُ المجددين إنما هو إحياء للأمة، ونفخٌ لروح القرآن فيها من جديد، حتى تعود إليها الحياة، وتنخرط من جديد في صناعة التاريخ. ومن هنا كان « **العلماء ورثة الأنبياء** »[2] كما صح في الحديث. هذا المعنى العظيم تؤكده بصائر القرآن العظيم، وبشائر السنة النبوية، وحركة التاريخ.

ولا تكون البعثة - بناءً على ذلك - إلا عملية جمعية شاملة وعامة، سواء رجعت في البدء إلى شخص واحد، أو إلى عدة أشخاص، على الخلاف في تأويل معنى لفظ (من) الوارد في الحديث: (**من يجدد لها دينها**)، أهو دال على المفرد أم على الجمع؟ قلت: هو في جميع الأحوال آيل إلى الجمع، حتى ولو حملناه على المفرد. أعني حتى ولو كان المنطلق التجديدي فردًا. ألا ترى أن أصل البعثة النبوية في هذه الأمة إنما هو رسول الله ﷺ نبي واحد خاتم، ولكن مظاهر بعثته ﷺ تجدرت في جيل كامل من الصحابة ﷺ، تلك هي الموجة الأولى من البعثة الأولى، حملت دفعة الوحي قوية، تحيي الموات في الأرض.

ثم كانت بعد ذلك موجات متفرعة عنها، هي منها وإليها، وهي بعثات التجديد

---

(١) رواه أبو داود، والحاكم، والبيهقي في المعرفة، عن أبي هريرة مرفوعًا. وصححه الألباني، رقم (١٨٧٤) في صحيح الجامع.

(٢) جزء حديث أخرجه أحمد، والأربعة، وابن حبان. وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٦٢٩٧).

التي حصلت في التاريخ؛ إذ شهد جيل التابعين الكبار والصغار، ومن عاصرهم من أتباعهم أول عملية للتجديد، في أواخر المائة الأولى وبداية الثانية، من أمثال سعيد بن جبير (ت٩٥هـ)، ومجاهد بن جبر (ت:١٠٤هـ)، وعامر الشعبي (ت:١٠٧هـ)، والحسن البصري (ت ١١٠هـ)، وقتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٧هـ)... إلخ. وغيرهم كثير، ممن كانوا جيل التجديد الأول بعد جيل الصحابة؛ حيث نشروا العلم، وربوا الأمة، وبنوا أصول مدارس العلم واتجاهاته، قبل تبلورها على أيدي جيل فقهاء الأمصار الكبار، الذين مثلوا بعثة التجديد بمرحلة الثانية، وللدورة جديدة من دورات التاريخ، من أمثال أبي حنيفة النعمان (ت١٥٠هـ)، وعبد الرحمن الأوزاعي (ت ١٥٧هـ)، والليث بن سعد (ت ١٧٥هـ)، ومالك بن أنس (ت.١٧٩هـ)، وعبد الله بن المبارك (ت ١٨١هـ) ومحمد بن إدريس الشافعي (ت.٢٠٤هـ)، وغيرهم .

وهكذا عرف جيل القرن، عند النصف الثاني من كل قرن حتى نهايته، أو عند النصف الأول من القرن حتى أواسطه، بعثة تجديد الدعوة، من جوانب متعددة؛ منها ما يتعلق بالدين أصالة ،ومنها ما يتعلق به تبعًا. فقد شهدت بداية القرن الثامن مثلاً؛ دعوة شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ،ومدرسته التجديدية، من تلامذته المشهورين كابن القيم وغيره، كما شهدت نهاية القرن بعثة أبي إسحاق الشاطبي (٧٩٠هـ) بالأندلس من الغرب الإسلامي، ومعه جيل من المجددين المعاصرين له، في ميادين شتى؛ كعبد الرحمن بن خلدون الإشبيلي (ت.٨٠٨هـ) في تجديد علم التاريخ وفقه العمران البشري مثلًا... إلخ.

إن القول بفردية المجدد، وحصر بعثة التجديد فيه؛ إنما هو نوع من التحكم، أو التعصب المذهبي ليس إلا! وكذلك التفسير الحرفي لـ (رأس المائة) من كل قرن بسنة محددة عينًا هو أيضًا سوء فهم؛ لأن حركة التاريخ لا تكون وليدة سنة أو سنتين، بل هي نتاج عمر كامل، وإنما قد تبرز ثمارها بشكل واضح مع مطلع هذه السنة بالتحديد، أو تلك. ذلك أن نضج الإنسان ونشاطه التجديدي إنما يكون على امتداد جيل، أي على نحو ثلاثين أو أربعين سنة، وليس مختزلًا في سنة واحدة، وإنما يفهم حديث رسول الله ﷺ على هذا الوزان، فبعثة التجديد من قوله ﷺ: « على

رأس كل مائة سنة »؛ قد تنطلق قبل تمام القرن بسنة، أو سنتين، أو ثلاث، وقد تتأخر عن ذلك بنفس المقدار، مع مراعاة سائر الاحتمالات الممكنة في تحديد بداية العد، مما سنذكره بعد قليل، ما دام المقصود أن الجيل المجدد للقرن - الذي قد يولد في أواخر القرن الماضي أو نهايته، أو في بداية القرن الجديد - هو حامل رسالة التجديد، وهو موضوع البعثة الحامل لرسالتها.

ثم بعد هذا وذاك، كيف بدء العد لتمام المائة سنة عددًا؟ ما هو رأس القرن الذي عليه مدار ظهور بعثة التجديد؟ هل هو بدء انطلاق دعوة المجدد السابق؟ أم هو نهايته ووفاته؟ أم هو مضي مائة سنة على لحظة الانتكاس والانهيار الذي يتطلب التجديد؟ تلك أسئلة كلها واردة ومحتملة، وأغلب العلماء إنما عدوا قديمًا (مائة التجديد) بالعد الهجري، وليس من تاريخ بدء البعثة النبوية، أي من يوم نزول (اقرأ)، وهو إمكان محتمل أيضًا، ولا من سنة وفاة النبي ﷺ وهو أيضًا ممكن محتمل أيضًا؛ حيث يبدأ النسيج الاجتماعي الديني في البلى شيئًا فشيئًا، حتى يبعث جيل التجديد عند نهاية القرن من ذلك التاريخ. وإنما كان العد - كما ذكرت - من عام هجرة النبي ﷺ وهو راجح أيضًا؛ لأنه صُلْبُ عهد البعثة النبوية، ومنعطف التاريخ لبدء التمكين للدعوة الإسلامية الأولى؛ دينًا ودولة في الأرض.

والعبرة في ذلك كله إنما هو بما يقربنا من تحقيق مناط الحديث - في زماننا هذا على أقرب معاد، يمكن الاستناد إليه في تبين ملامح بعثة التجديد المقبلة فنقول بحول الله:

إذا نظرنا إلى بعثة التجديد السابقة في جيل القرن الماضي، أي القرن الرابع عشر الهجري وجدنا أنه قد شهدت بدايته إلى أواسطه حركةً شاملة، ونهضة عامة، مع ظهور جيل الشيخ رشيد رضا، والإمام حسن البنا، وسيد قطب في مصر، والشيخ محمد إلياس في الهند، والأستاذ أبي الأعلى المودودي في الباكستان، وبديع الزمان النورسي في تركيا، والشيخ الطاهر ابن عاشور في تونس، والإمام عبد الحميد بن باديس في الجزائر، والشيخ أبي شعيب الدكالي في المغرب .. إلخ، مع تلامذتهم جميعًا، كلهم شكّل بعثة التجديد لجيل كامل من العلماء المنتصبين للدعوة

وبالعد الميلادي كان ذلك خلال النصف الأول من القرن العشرين، وهي فترة

شهدت أحداث مهمة جدًا بالنسبة للعالم الإسلامي، فقد كان عهد اكتساح الاستعمار الأوربي، وإسقاط الخلافة الإسلامية العثمانية، وتوزيع تركة الرجل المريض، ثم إنشاء الكيان الصهيوني بفلسطين كل ذلك كان مرحلة من سنة الله في التاريخ؛ لإنضاج بعثة التجديد، التي قاومت ظلمات الاحتلال الأوربي، ثم امتدت بعده لتصفية آثاره، على المستويات الفكرية والعقدية والاقتصادية والسياسية.. إلخ

وحد الآن لم يتكرر جيل من حجم جيل حسن البنا، وسيد قطب، وعبد القادر عودة، وسعيد النورسي، وأبي الأعلى المودودي، ومحمد إلياس، ومحمد إقبال، وابن عاشور، وأمثالهم بهذا الاجتماع، وبهذا التتابع والتكامل! ظهر أفراد هنا وهناك ولكن لم يصنعوا بعثة من جيلهم، بقدر ما كانوا امتدادًا فكريًا أو تنظيميًا.. وفي بعض الأحيان خرفيًا – لجيل البعثة السابق، ليس إلا!

وأحسب أن الزمان قد دار دورة أخرى، وأن بعثة جيل الاستعمار الأول قد استنفدت أغراضها، من حيث تأثيرها التجديدي، كما أن التحديات قد اختلفت وتغيرت، وتعقدت، كما أن طبيعة المعركة صارت لها أبعاد أخرى!

ويمكن أن نعتبر تاريخ إسقاط الخلافة الإسلامية (١٣٤٣هـ/١٩٢٤م) وانطلاق دعوة الإمام حسن البنا ﷺ بعد أربع سنوات فقط من ذلك التاريخ أي حوالي سنة (١٣٤٧هـ/١٩٢٨م)، وكتابة النورسي لأول رسائله التجديدية في السنة نفسها، دون معرفة أحدهما بالآخر! وما صاحب ذلك من حركات واجتهادات مشابهة في العالم الإسلامي، عجمية وعربية، مما ظهر في نفس الفترة تقريبًا من السوابق واللواحق، كل ذلك كان مؤشرًا على أن البعثة التجديدية، كانت في عنفوان موجتها القوية آنئذ، من مصر إلى المغرب ومن تركيا إلى الهند، وكل ذلك أيضًا كان عبارة عن دورة تجديدية واحدة، ذات طابع واحد في أسبابها وأغلب مصادرها.

ومن هنا؛ فإنه يستقيم إلى حدٍّ بعيد أن نبني عليه في عدِّ المائة التجديدية، بأننا نحن مقبلون عليه بحول الله – كأمة – خلال القرن الخامس عشر الهجري

والقراءة لظروف العالم الإسلامي اليوم، كما هي بادية من أحداث مرحلتنا التاريخية هذه، بآلامها وآمالها – ونحن نمضي نحو أواسط القرن الخامس عشر الهجري، في اتجاه إتمام المائة سنة على بدء دورة التجديد السابقة.. تثبت أننا على

أبواب تحولات جديدة، هي في تاريخ العالم قد بدأت بالفعل؛ إذ يمكن اعتبار سقوط الاتحاد السوفياتي، وتمرد الهيمنة الأمريكية الصهيونية على العالم أحد مؤشراتها، كما لا يمكن - في هذا الصدد - إهمال الاتجاه الوحدوي الأوربي، والتقاربات الوثنية الصهيونية، وكذا الانهيار العربي الفظيع ومقولاته السياسية والقومية، والإبادات الجماعية لشعوب العالم الإسلامي في كل مكان! ثم عجز الحركات الإسلامية في العالم - غالبًا - عن مواكبة التحولات العالمية الجديدة، وإصرارها على المنهج السياسي التقليدي في النقد والاحتجاج، هذا المنهج الذي ورثت أغلب تقنياته التنظيمية والحركية؛ عن الأحزاب السياسية العلمانية البائدة، التي نشأت في ظل الاستعمار ومُعَيَّده، ولم يبق لها اليوم في واقع الناس إلا أطلال باهتة، هي أشبه ما تكون بأطلال الماضي لم تستطع الحركات الإسلامية في الغالب أن تخرج من جبة الحزب السياسي، ونموذجه الضمني الدخيل! وإن ادعت أنها تفارقه وترفضه، وإنما هي صورة تقليدية له، إما بصورة اجتماعية، أو - في بعض الأحيان - بصورة حرفية!

تعقدت الحركات الإسلامية التقليدية بعقدة الأنظمة الحاكمة، ومشكلة الديمقراطية في العالم الإسلامي، وضخمتها إلى درجة التقديس العقدي فانحصرت آفاقها في دائرة الفعل السياسي الجزئي، وتاهت في جزئيات الحدث اليومي الذي لا يعرف قرارًا ولا استقرارًا.

وأحسب أن التاريخ الجديد بمعطياته الحاضرة، وبملامحه المستقبلية؛ قد تجاوز هذه المشكلات جميعًا، فلم تعد الأنظمة الحاكمة تملك شيئًا على الحقيقة، وباشر الاستعمار العالمي اليوم، في الصورة الأمريكية الصهيونية قمع الشعوب بنفسه، وبدون أي وكالة من هذا النظام أو ذاك!

ثم امتدت الآلة الإعلامية والثقافية والاقتصادية؛ لتستعمر الإنسان المسلم، في أخص خصائصه الوجدانية والعقدية والاستهلاكية؛ ليعيش على النمط الأمريكي، أو يسعى إلى ذلك، حتى صار على استعداد - في بعض الأحيان وفي بعض الأوطان - للتضحية بكل مقدساته من أجل ذلك! والآلة الاستعمارية الشمولية الجديدة، متمثلة في الكتلة الأمريكية/الصهيونية منهمكة في حرب شاملة؛ لتذويب البقي وتشريد من الشعوب الإسلامية؛ في هلوك (العولمة)، أو (حركة تهويد العالم) [1] هذه أشياء

مشاهدها على مرأى ومسمع من العالم، وهي اليوم أظهر من أن تحتاج إلى دليل! [١]

لقد تمكن الاستعمار القديم من الأوطان، فقامت عليه بعثة تجديد مجاهدة، مناسبة لفجوره وبحوره! فحاربت وجوده العسكري والأيديولوجي بعد ذلك بشتى الوسائل. بيد أن الاستعمار الجديد تمكن من الإنسان قبل أن يتمكن من الأوطان! فاقتحم جسور البلاد بالشهوات قبل أن يقتحمها بالمدرعات والدبابات! ففقدت الشعوب الإسلامية قوتها على الصمود أمام الإغراء العولمي، وفقدت نمط عيشها وطرائق استهلاكها، واحتوتها الفلسفة الأمريكية الشهوانية احتواءً كليًا إلا قليلًا!

نعم، إنهم معارضون لأمريكا، لكن على أنهم يكرهون ظلمها فقط، لا على الكفر بوثنيتها وتألهها الليبرالي، ورفض منهج حياتها، وطبيعة عيشها، ومن هنا كان نقدهم لها عملية تقويمية جزئية، من داخل بيتها، ومن خلال نمطها، لا من خلال منظومة القرآن العظيم، ولا من خلال مقومات الشخصية الإسلامية المستقلة الأصيلة!

ومن هنا فإن بعثة التجديد المقبلة مدعوة إلى تحرير الإنسان قبل تحرير السلطان، وإلى تحرير الوجدان قبل تحرير الأوطان! ولقد رأينا كيف أن أحزاب المقاومة للاستعمار القديم في كثير من البلاد العربية والإسلامية، لما تخلصت من هيمنته العسكرية والإدارية المباشرة؛ خلفته في شعوبها بكل ألوان الفسوق والعصيان، وإعلان التمرد على شريعة الرحمن! وليس معنى هذا أنه يجب علينا أن نهادن الاستعمار الجديد، كلا بل تجب مقاومته، ولكن على أن يؤسس ذلك كله على البناء العقدي والجهاد التربوي. إننا في حاجة إلى تنزيل جديد للقرآن؛ لكن هذه المرة ليس وحيًا من السماء، فمحمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام قد ختم بعثة الرسل. وإن التنزيل الجديد هو قدح حركة التداول الاجتماعي للقرآن، وذلك بأن ينطلق أهل البعثة التجديدية بآياته وحقائقه في المجتمع؛ تبصرًا وتبصيرًا، وتدبرًا وتدبيرًا، في دعوة تربوية بانية شاملة [٢].

لقد كان الرسول الخاتم ﷺ في اللحظات الأولى من نزول القرآن عليه، في حاجة إلى الإيمان بنفسه أولًا، وهذه قضية مهمة سنحتاج إليها قريبًا، ألم تر أنه خوطب –

---

(١) وذلك ما حذرنا منه في كتيبنا (الفجور السياسي)، فرد علينا بعضهم بنوع من السخرية، ورد آخرون بتقليل أهمية الخطر، وقلة من الدعاة هم الذين رأوا ما رأينا.

(٢) سيأتي بيان ذلك مفصلًا في الفصول اللاحقة بحول الله.

كما في الحديث المتفق عليه - بقوله تعالى: « اقرأ »؟ فكان جوابه مكررًا بتكرار الأمر « ما أنا بقارئ! » حتى قال - في سياق قصة هذا الحديث نفسه- لزوجه أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها: « **أي خديجة! ما لي؟ لقد خشيت على نفسي!** » فجعلت تواسيه وتطمئنه حتى ذهب عنه الروع، ثم ذهبت به إلى ورقة بن نوفل وكان عليمًا بالإنجيل، يستفسرانه عن حاله ﷺ وطبيعة ما يراه عليه الصلاة والسلام؟[1] وقد ورد في الصحيحين أيضًا أنه ﷺ قال: « **بينا أنا أمشي إذْ سمعتُ صوتًا من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرُعِبْتُ منه** » [وفي رواية أخرى للشيخين أيضًا: فَجُئِثْتُ منه حتى هويتُ إلى الأرض] فرجعتُ فقلت: **زمِّلوني زمِّلوني!** فأنزل اللَّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ [المدثر: ١ - ٥]، فحمي الوحي وتتابع[2].

---

(١) عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: « كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقال رسول الله ﷺ: « ما أنا بقارئ » قال: « فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥]. فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة، فقال: « زملوني زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: « أي خديجة، ما لي؟ لقد خشيت على نفسي! » فأخبرها الخبر، قالت خديجة: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا! فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل، وهو ابن عم خديجة، وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك! قال ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره النبي ﷺ خبر ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك! قال رسول الله ﷺ: « أوَ مخرجي هم؟ » قال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا أوذي، وإن يدركني يومك حيًّا أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي فترة، حتى حزن رسول الله ﷺ ». متفق عليه.

(٢) متفق عليه

ومن ثَمَّ استقر الإيمان في قلب رسول الله ﷺ الإيمان نفسه نبيًا ورسولاً من رب العالمين، حتى استيقن أنه أحد المرسلين، بل هو خاتم المرسلين والنبيين.

ولذلك كان ﷺ هو أول مؤمن في الإسلام. قال الله ﷻ في محكم القرآن: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. فهو أول مؤمن قبل أن يدعو إليه أحدًا من العالمين حتى أقرب الناس إليه، آمن هو أولًا[1] وهذا أمر بدهي، لكنه قضية منهجية، تحتل أهمية كبرى في فقه الدعوة الإسلامية.

فهل آمنت الحركات الإسلامية بنفسها على أنها دعوة إلى الله أساسًا؟ هل آمنت بأنها دعوة لتجديد الدين، من حيث هو « دين » قبل أي شيء آخر؟ أم أنها – في ذلك – على شكٍّ من أمرها؟ وعلى اضطراب في تحديد غايتها؟ إلى أي حد هي واعية، بل مؤمنة بوظيفتها الربانية؟ أم أنها تشتغل بمجرد وعي المشاركة في تطوير بنية مجتمع حديث؟ مجتمع هيكله الاستعمار الجديد وفق نظام حياة دخيل، ونمط عيش مستورد، فكان بذلك يخضع في خصائصه التنظيمية لنمط غير أصيل! وما المجتمع إن لم يكن نسيجًا من العلاقات، ونسقًا من المؤسسات؟ ماذا يمكن أن تعطي قراءة للحداثة من خلال بنيتها غير الحداثة نفسها؟

وإلى أي حد تجد الحركة الإسلامية نفسها مشتغلة في صلب الدين؟ ومجددة حقائقه الإيمانية في النفس وفي المجتمع؟ ثم إلى أي مدى هي مؤمنة اليوم أن وظيفتها هي وظيفة الأنبياء، في إعادة الصلة حية جديدة بين المسلمين وبين ربهم؟

ما أحوج الداعية المسلم – فردًا وجماعةً – اليوم إلى وقفة وجدانية تفكرية عميقة! وقفة يستطيع أن يربط مصيره الأخروي بنتائجها وهو مصمِّم، وقفة يسائل فيها نفسه خاليًا، ليس بينه وبين ربه شيء، وتكون المساءلة فيها دائرة على أربعة قضايا منهاجية: من هو؟ وماذا يريد؟ ثم هذا الدين ما هو؟ وماذا يريد؟ ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴾ [سبأ: ٤٦].

فإذن، البعثة بمعناها التجديدي إنما هي (دعوة إسلامية)، أكثر مما هي (حركة إسلامية) . إنها ليست حركة ترهن نفسها بمشروع (أسلمة) لواقع سياسي هجين

مشروع لا يعدو أن يكون مجرد تبنٍّ لمجموع مفاهيمه من خلال شواهد قرآنية ونصوص حديثية، مبتورة من سياقها، مجردة عن مقاصدها الشرعية، مفرغة من آثارها التربوية في النفس وفي المجتمع! إن (بعثة التجديد) هي دعوة كلية تعيد صياغة الإنسان من خلال استعادة إنتاج التنزيل القرآني بمنهجيته التربوية الربانية الشامخة، بوعي علمي راشد، قوامه (الفقه في الدين) بمعناه الكلي، يؤمه جيل من العلماء الحكماء، ينطلقون مرة أخرى بالمعلوم من الدين بالضرورة، فيجددون الأصول العقدية والعملية، بمعنى تجديد الغرس والتربية والتكوين.

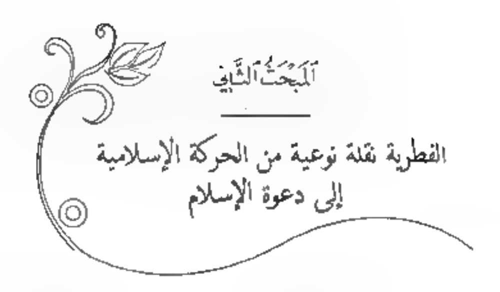
إنها إذن؛ تجديد المشاهدة لحقائق الإيمانية، وتجديد التمسيك الاجتماعي بالكتاب وإقام الصلاة. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

الحاجة إذن تدعو – كما ذكرنا – إلى تجديد « الدعوة الإسلامية » ؛ بدل « الحركات الإسلامية »! إن « الدعوة الإسلامية » هي مصدر بعثة التجديد، بما تحدثنا عنه من اصطلاح، وهي المتحكمة أساسًا في حركة تحول المجتمع، وتوجيه التيار، وبناء النسيج الديني.

إن دعوة الإسلام هي عمل في صلب الدين، واندماج في قضاياه الإيمانية، وأحكامه الشرعية، واشتغال بنصوصه تربيةً ودعوةً؛ سيرًا نحو مفهوم تجديد الدين في الأمة، بما هو دينٌ، أُنزِلَ أساسًا لِيُعْبَدَ به اللهُ في الأرض. بينما آل أمر « الحركة الإسلامية » – كما سبق بيانه – إلى « حركة سياسية » ذات توجه إسلامي! فهي عمل باسم الدين، ورفع لشعاره، تدور حوله لا داخله، ولو أن الأصل فيها أنها تشتغل من أجله.

وبيان ذلك هو كما يلي:

* * *



المَبْحَثُ الثَّانِي

الفطرية نقلة نوعية من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام

أول سؤال نضعه في هذا السياق إذن هو: هل استنفدت « الحركة الإسلامية » أغراضها؟

لا خلاف في أن « الحركة الإسلامية » تعمل من أجل الدين على الإجمال؛ ولذلك قلنا قبل: إنها (بيان دعوي) [1]. لكن هذا إنما هو من حيث الطبيعة العامة المتصفة بها، والرغبة الوجدانية الكامنة فيها، والمسببة لنشأتها. وأما من حيث الصيغة المنهجية فهي مظهر (حزبي)، بالمعنى السياسي العربي الحديث للمصطلح، يمكن أن يتجلى - على مستوى الشكل - في عدة صور اصطلاحية، من مثل مصطلح « جماعة »، أو « حركة »، أو « تنظيم »، أو « منظمة »، لكنه يرجع في النهاية إلى جوهر واحد، هو مفهوم « الحزب » بمعناه السياسي. وذلك بغض النظر عن مشاركته الفعلية في الانتخابات أو ما يسمى « باللعبة السياسية » على الإجمال، أو عدم مشاركته، فتلك قضية أخرى لا تغير من واقع الأمر شيئًا! وإنما العبرة بالبنية المنهجية والتصورية التي تتحكم في مسار الحركة؛ حيث إن الحزب السياسي قد يكون له وجود حركي « مشارك »، وقد يكون له وجود حركي « رافض »؛ وتكون مشاركته متحققة بالفعل من خلال الدعوة إلى « الرفض السياسي »، فيستوي بذلك مع الأول من حيث المآل المنهجي؛ ولذلك قلنا غير ما مرة: إنهما وجهان لعملة واحدة!

ومن هنا يمكن أن نميز في الحركة الإسلامية بين شيئين: المظهر والمنهج.

---

(١) البيان الدعوي (٢٤ - ٤١)

فالمظهر إسلامي، هذا على الإجمال، وقد فصلناه بأدلته في كتابنا « بيان الدعوي »

وأما المنهج فمن الصعوبة أن ننفي عنه التأثر بالأطروحة السياسية بمعناها العلماني الحديث، وبردود الأفعال المنهجية في مواجهة الأحزاب السياسية المعاصرة! هذا على الإجمال أيضًا، مع عدم نفي الخصوص الديني للحركة الإسلامية. فالتأثر العلماني راجع في جوهره إلى تبني النموذج الغربي في « التغيير »، وتبني الأطروحة التاريخية الأوربية للثورات الدموية، أو للتحولات الديمقراطية، وفي كلا الصورتين تبنٍّ واعٍ، أو غير واعٍ؛ لمنهج التغيير العلماني، وهو في نهاية المطاف لا ينتج مجتمعًا مجددًا؛ بقدر ما ينتج صورة طلية لذلك المجتمع نفسه! مهما حدث من تحولات ديمقراطية وسياسية، فلا تحول في الجوهر؛ إذ الجوهر إنما هو وجدان الإنسان.

الوجدان - أو « القلب » بمفهومه القرآني لا العاطفي - هو مناط الإصلاح الديني في الإسلام. وهو الذي منه تنبع - على الحقيقة - المواقف والتصورات والتصرفات، والذي عنه تنشأ العلاقات الأفقية والعمودية، التي هي أساس بناء النسيج الاجتماعي، في صلة الإنسان بربه، وفي صلته بأخيه الإنسان، على سائر المستويات العقدية، والتعبدية، والاقتصادية، والسياسية، والعمرانية عمومًا. وهذا أمر لا تصل إليه الحركات الإسلامية بملامحها الشكلانية هذه. فالوجدان لا يُصْنَعُ إلا في مختبرات الدين، بما هو « دعوة إسلامية » بالدرجة الأولى.

ومن هنا تكون « الحركة الإسلامية » عملًا محدودًا بحدود اجتهادية، وتنظيمية، وبشرية. إنها تصور بشري وضعي ذو أصول علمانية، لمنهج العمل في ترجمة قيم الدين ومقاصده، وهما أمران لا يجتمعان، ومن هنا لابست الإسلام وفارقته في آنٍ واحد؛ فقد لابسته في (الانتساب) على مستوى القصد العام وتجلياته، وعلى مستوى الشعارات والبرامج العامة، وفارقته في (النسبة) على مستوى المنهاج، في أساليب العمل والإصلاح.

وربما كان لهذه الظاهرة مبرر وجود في مرحلة سابقة، مرحلة الدعاية الإسلامية وإعلاء الشعار، بما أنتجته بعثة التجديد السابقة، بيد أن المعركة الحضارية الجديدة قد تجاوزته بتحدياتها العميقة وأسلحتها الفتاكة الجديدة، التي تمس مفهوم الإنسان

وفطرته، وتدمر نسيجه الاجتماعي وخصائصه الحضارية، مما تفرضه اليوم العولمة في صورتها الشمولية الجديدة.

وإذا كان ذلك كذلك؛ فإن الحركة الإسلامية - بصورتها التقليدية هذه - محكومة بسنن الاجتماع البشري، تمامًا كالحضارات والدول بالمعنى الخلدوني. أي أن لها مرحلة نشأة، ومرحلة نضج واكتمال، ثم مرحلة هرم وانهيار.

ولا يعني ذلك مطلقًا أن الإسلام يتأثر ضرورة بما يصيبها، فقد ينشئ الله ﷻ لدينه موجة تاريخية أخرى، تحمله وتؤصل دعوته. قال جل وعلا: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ [محمد ٣٨]. وقال سبحانه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام ٨٩]. فهذه قضية أخرى، والإسلام قائم حتى قيام الساعة.

وإنما حديثنا عن الحركة الإسلامية هنا إنما هو باعتبارها تجربة بشرية، أي بما هي حركة متولدة في التاريخ، محكومة بالسنن الربانية، التي تحكم سائر التجارب والمكاسب البشرية في المجتمع، فهي سنن ثابتة، لا تحابي أحدًا، ولا تتحامل على أحد. قال تعالى: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ [الأحزاب ٦٢]. وعليه فإننا نحسب أن الحركة الإسلامية في صيغتها التقليدية هذه، قد استنفدت أغراضها، أو - بالتعبير الأدق - هي على وشك ذلك. ونقصد بالصيغة التقليدية: الصورة الحزبية التي اكتسبتها الحركة الإسلامية الحديثة في نشأتها؛ تأثرًا بالنظام الحزبي الغربي، وقد بينا أن معظم الحركات الإسلامية اليوم في العالم الإسلامي؛ هي على تلك الشاكلة، سواء منها التي تسمت باسم (الحزب)، أو التي تسمت باسم (الجماعة)، أو (الحركة)، فجوهرها جميعًا واحد. ومعنى هذا أن الإسلام بما هو دين الله القدري، سينطلق بعثة تجديدية أخرى، تتجاوز الحركة الإسلامية الحزبية في صورتها الحالية.

نعم، إن التحولات العالمية الحديثة، في صورتها (العولمية) التهويدية، سائرة في اتجاه تغيير بنية المجتمعات الإسلامية؛ وذلك بمحاصرة إرادة الشعوب مباشرة، وتجاوز الوسيط السياسي الرسمي، الذي لم تعد لديه أي مقومات لإقناع الشعوب، خاصة والقوى العالمية الاستعمارية، تدرك جيدًا أنه اليوم - أكثر من أي وقت مضى - لا يملك إرادة الشعوب، وإن كان يملك السلطان السياسي بصورة نسبية.

إن العولمة الجديدة - في صيغتها الأمريكية الاستهلاكية - لا تسعى إلى إخضاع العالم الإسلامي، عسكريًّا واقتصاديًّا فحسب؛ على طريقة استعمار القرن التاسع عشر والعشرين؛ ولكنها تسعى إلى إخضاع الإرادات، أو بعبارة أدق، احتلال الإنسان من حيث هو انتماء وولاء ووجدان! تمامًا كما وقع للشعوب الأمريكية الأصلية، أو ما بقي منها، وما يقع للشعوب الأسيوية القصوى؛ مثل اليابان خاصة. هذا البلد الذي كان مضرب مثل لكثير من الدارسين العرب - ومنهم حتى بعض الإسلاميين - الذين ينظرون إلى سير الحضارة، وإلى حركة التاريخ؛ بعين واحدة فقط، فرأوا في التجربة اليابانية نموذجًا للنهوض لكنهم نسوا حقيقة أخرى خطيرة، وهي أن نهوض الشعب الياباني مدنيًّا كان على حساب فقدان الإنسان الياباني، لقد حل الوجدان الأمريكي في إرادة المجتمع الياباني، ولم يبق له من خصوصيته الثقافية والأنطروبولوجية غير مظاهر محدودة من الفلكلور السياحي ليس إلا، ولا يغرنك منهم هذا الاحتجاج، أو تلك المظاهرة ضد السياسة الأمريكية في العالم، فقد انخرط ذلك كله في نقد أمريكا بوجدان أمريكا! وانتهى وجود اليابان الإنسان.

ثم إن مقارنة إنسان اليابان - بخلفيته الحضارية والدينية المناقضة للإسلام تمام المناقضة - مع إنسان الإسلام، هي في الأصل أغلوطة فاسدة؛ إذ لا قياس - في خصوص هذا الشأن - مع وجود الفارق، كيف وهذا الفارق عميق جدًّا؟!

نعم لقد استعصى العالم الإسلامي وحده حقًّا على الابتلاع، وأبى أن يدور في ماكينة التغريب رغم كل ما حدث، ورغم ما تعرض له من تشوهات في طبقته (المثقفة) والأرستقراطية، وسائر شرائحه الاجتماعية، بقدر من التفاوت في التأثر والتشوه؛ بين هذه الشريحة أو تلك، حسب ما تعرض له من مناهج تعليمية وإعلامية. لكن جوهر الإنسان فيه بقي قريبًا من فطرته على الإجمال، مصرًّا على تجديد ذاكرته، ولم يفقد الرغبة ولا الأمل قط في توظيفها من حين لآخر، وليس وجود الحركات الإسلامية نفسها - رغم نقدنا لها - إلا نوعًا من التعبير عن هذه الرغبة، ومقدمة من مقدمات توظيف تلك الإرادة.

إن الاستعمار قد أدرك ذلك جيدًا؛ ولذلك فقد أنتج (العولمة)، باعتبارها أحدث

خطة لاحتواء الوجود الإسلامي الراسخ في وجدان الأمة، فإلى أي حدٍّ تستطيع (الحركات الإسلامية) في صيغتها الحزبية التقليدية – وهي التي نشأت في ظل رد الفعل الاستعماري القديم – أن تستجيب لتحديات العولمة في صورتها الجديدة؟ التي تحمل مشروع تهويد العالم؛ لتحقيق ما يسمى في المنظومة الصهيونية بـ (إسرائيل الكبرى)، وواضح جدًا أن دون ذلك قتل الوجدان الإسلامي في الأمة، بشتى ألوان المسخ والتشويه.

العولمة إذن؛ ما تزال في طور نشأتها، بل لم يكتمل تشكلها بعد، ولم تلتئم صورتها الكلية على تمامها، ولم يزل لها في المستقبل القريب نتاج جديد قصد تكميل الصورة.

أين الحركة الإسلامية إذن – بصورتها الموصوفة – من هذا كله؛ وعيًا وإرادةً، ومنهج عملٍ وجهاد؟ هذا هو السؤال الجوهري الذي يمثل صلب هذا البحث وجدواه

إننا نعتقد أن الحركات الإسلامية ستتطور إلى مآلات، هي نتيجة للمقدمات التي انطلقت منها ابتداءً، وهي (الحزبية التقليدية) نفسها، أو بعبارة أخرى (حركات) الحاضر هي (أحزاب) المستقبل.

فالقوى الاستعمارية الحديثة تسعى عن طريق نظمها الديمقراطية، واكتساحها العولمي إلى إخضاع الحركات الإسلامية للعبة، وإدراجها ضمن مقولة (النظام العالمي الجديد) بين لغة التهديد والتجويع والحصار، واللائحة السوداء للأنظمة، وللمنظمات والأشخاص، وما اكتنف ذلك كله من لغة إعلامية مدمرة، على المستوى النفسي والاجتماعي والسياسي، كمصطلح (الإرهاب) مثلًا، ومصطلح (التطرف)، و (الأصولية)، وما شابهها من خدع لغوية، تستصنع في المعامل الصهيونية (لسانيات الحديثة) ،هذه المعامل المخبرية، الخبيرة في تحريف الكَلِم عن مواضعه. قال تعالى ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾ [النساء ٤٦] وتدبر بعد ذلك في ضوء زماننا هذا – قوله تعالى. ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن

تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة ٤١]. اقرأ وتدبر ثم أبصر ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ﴾ [المائدة ٤١] ! أليس كذلك؟ بلى والله! إنه اليوم أظهر مما كان من قبل! كل ذلك إنما هو صور من (طُعْم) للصيد؛ من أجل الدخول في قمص (العولمة) أو (الديموقراطية الأمريكية)، فالنسبة لي لا فرق بين هذه وتلك في نهاية المطاف، إنها في الجوهر فلسفة واحدة

واستجابت فعلاً كثير من الحركات الإسلامية لذلك فهي الآن تتخلى عن كثير من مطلقاتها ومصطلحاتها، وتنتج (فقهًا) جديدًا، يناسب حداثة العولمة، ويدور في ماكينتها، شيئًا فشيئًا! إنها صارت تنتج جزءًا من خطاب امقولات العولمية الجديدة، التي تشكل نوعًا من الترويض، أو التدجين للإسلاميين، على مستوى المفاهيم وإنتاج الخطاب، وكلاهما أمر جوهري خطير في عملية فقه الدين إنها حركة تحريف مفهومي شامل! إنها - بلغة (الآخر) - عملية (أنسنة) الإسلام، أي إفراغه من مضمونه الرباني التعبدي؛ حيث يحل الإنسان - عندهم - محل الرب، في مركزية التفسير الوجودي والتشريع الاجتماعي.

إن استجابة الحركة الإسلامية اليوم هي نوع من الاعتذار اللاشعوري للغرب، ونوع من البرهنة على صلاحيتها للدخول في النظام العولمي، والتحدي الديمقراطي، وإظهار لنوع من (حسن السيرة)، و (صلاح المواطنة) على موازين المقياس الأمريكي.

من يجرؤ اليوم على اتهام الديموقراطية الليبرالية؟ هذا الصنم العولمي الجديد! بالأمس كانت الأصنام الشيوعية تمارس نوعًا من (ديكتاتورية البروليتاريا) على المستوى الثقافي والسياسي، فلا تسمح لأحد بانتقاد الصنم الماركسي أو اللينيني، واليوم أصبح تمثال الحرية في أمريكا الذي ليس له من مدلول الحرية غير التمرد على حقوق الله صنما يعبد من دون الله الواحد القهار! صنمًا منتصبًا لحماية مفاهيم (الليبرالية) بأبعادها الفلسفية والسياسية، وفرضها على العالم الإسلامي، ليس بما يضمن حقوقه السياسية، كلا! فمن يصدق هذه الأكذوبة إلا ساذج أو بليد، ولكن بما يذيب مفهوم (الإنسان) فيه، ويصهره في آلة الاستهلاك المدمرة، حتى يكون

عيدًا حسيمًا للوحشية العولمية الجديدة، ولحركة تدمير القيم والأخلاق، مما لم يعرف العالم الإسلامي له مثيلًا في التاريخ.

إن الحركة الإسلامية باستجابتها لشيء من ذلك؛ يعني أنها قد أحدثت د (مقدمة أولى) بالمعنى المنطقي للكلمة - من شأنها أن تنتج على سبيل اللزوم (نتيجة) حتمية. هي الذوبان في فلك العولمة نعم ربما درت فيه على سبيل النقد والمعارضة، ولكن تمامًا كما هي أحزاب أوروبا المعارضة للعولمة، والتلوث البيئي، وحماية الحيوان البري، بمعنى أن ذلك لا يخرج من دائرة (الأنا) العولمية نفسها، ومركزية الإنسان الغربي، وما عسانا أن نكون في هذا الاتجاه إلا تبعًا.

إن الصيغة التنظيمية للحركات الإسلامية، وآليات اشتغالها اليوم، وكذا جوهر خطابها الحركي، مما تسخه في أدبياتها وتجمعاتها، وخصوص خلاياها؛ كل ذلك كفيل بإدخالها نادي (النظام العالمي الجديد) على حد تعبير الأمريكان

إن دخولها (النظام العالمي) ليس يعني أنها تصير له بوقًا، بالمعنى التقليدي للكلمة، كلا، فليس هذا مقصودنا، وهو تصور تبسيطي لصيغة العولمة، وإنما المقصود بدخولها هو الخروج من عالم (اللامفهوم) أو (اللامدرَك) - بالنسبة للحسابات الأمريكية ودراساتها الإستراتيجية - إلى عالم (المفهوم) أو (المدرَك) ! وانتقالها من عالم (الخوارق والمفاجآت) إلى عالم (العوائد والطبيعيات) القابلة للحسابات، وذلك هو عين المقصود، حيث تصبح الحركة الإسلامية بالنسبة للإستراتيجية الأمريكية رقمًا قابلًا للإدراك، وعددًا قابلًا للحساب ومن؛ توضع في موضعها من خريطة التخطيط الأمريكي الصهيوني بسهولة، وتصبح في سياق معارضها ونقدها؛ قابلة للإعمال والاستعمال، وللتحييد والإهمال، أو على الأقل قابلة للمغالبة الميكانيكية! ونتائجها قابلة للتوقع، وللإدراج في معادلة الإمكانات والاحتمالات الرياضية المدروسة بعناية وليس لذلك من معنى عندي إلا أن الحركة الإسلامية قد فقدت كثيرًا من خصائصها الربانية، ومقوماتها الإيمانية، فأشبهت آلة ميكانيكية ليس إلا

أما أحزاب الماضي الرسمية، القومية منها والوطنية، والماركسية، والعلمانية، والعصرية، وكذا الكرتونية؛ فمآلها بناءً على تحولات الحاضر الجارية - إلى

التحول أيضًا أو إلى الانقراض. فتلك أحزاب ما بقي من حقيقتها اليوم غير أشكال باهتة، سواء في ذلك ما تجلى في قياداتها الشائخة الهرمة، ليس من حيث هي أجساد بشرية، ولكن من حيث هي أجساد تنظيمية وأيديولوجية، أما رصيدها على المستوى الوجداني الشعبي فعلى دركات تحت الصفر؛ ولذلك فإما أن تتحول إلى (الإسلامية)، ولو بصورة انتهازية؛ وإما أن تنقرض إلى الأبد، وتصبح جزءًا من التاريخ الذي كان.

ولِمَ (الإسلامية)؟ ببساطة لأنها المرجعية المستقبلية لأحزاب العصر العولمي الجديد؛ حيث بدأ الإسلام يصنف عالميًا عند العدو والصديق بأنه هو المحرك الأساس للشعوب في العالم الإسلامي، وهو المرشح في الإدارة الأمريكية الصهيونية للمخاصمة الجديدة، ولتسويغ التسلح العالمي المجنون في حرب باردة أو حارة، وقد بدأ ذلك يتضح، وتتجلى ملامحه منذ انهيار المنظومة الماركسية، بسقوط صرح الاتحاد السوفياتي البائد.

الدور الحزبي المقبل إذن؛ هو دور (الحركات الإسلامية)، فهي المؤهلة لذلك، وهي المقصودة للعب هذا الدور، وقد بدأت بالفعل في ممارسته بإعلان رسمي أو بغير إعلان، في أغلب دول العالم الإسلامي، فالهيئات التنظيمية الإسلامية، المشاركة صراحة في اللعبة السياسية، قد دشنت هذا الاتجاه بإرادتها، وأما الهيئات التنظيمية الإسلامية الرافضة، أو المعارضة؛ فقد دشنته أيضًا بمعارضتها، وبهذا فهي تمارس نوعًا آخر من المشاركة السياسية بطريقة أخرى، وإن أعلنت في خطابها (رفضها) لكل أشكال المشاركة، ولكن رفضها يصدر بالمنهج نفسه الذي تعتمده حركات المشاركة، أي منطق الحزبية. إنه مجرد رفض موقفي، إنه محكوم بالموقف من عقلية الحاكم، أو من طريقة تنصيبه، لا من فقه الدين وميزان أولوياته، ولا من مفهوم المجتمع الإسلامي وطبيعة مؤسساته. ومن هنا وقع تأصيلها لعملها السياسي في ورطة التصحيح! فهي إذن تتكلم من داخل الجبة العلمانية من حيث لا تدري؛ ولذلك فهي أقرب إلى التحول الكامل إلى الصورة الحزبية العتيقة، لكن في صورة إسلامية.

و « الرفض » و « المشاركة » بمعناهما السياسي - في خصوص العمل الإسلامي التنظيمي - خطان متجاوران إلى ما يقارب الترادف، وهما ممتدان على طول العالم

الإسلامي تقريبًا. وكلاهما يؤول أمره – بصورة أو بأخرى – إلى وضع لعب دور الأحزاب السياسية الشائحة، مُشارَكةً ورفضًا. لا سيما وأنهما يمتلكان كل مقومات الحزبية: « التنظيم الميكانيكي »، و« التعبئة الاستعراضية »، و« الخطاب السياسي المُنَمَّط ». ووصفنا خطاب الحركات الإسلامية بأنه (مُنَمَّط) مقابل لما هو موجود عند الأحزاب التقليدية العتيقة، من خطاب سياسي (مُؤَدْلَج) ؛ حيث تتحد تلك الحركات (رؤية) معينة للعمل السياسي، ترجع إليها تفكيرًا وتأطيرًا. فلا تكاد تجد من بين أفرادها من يفكر خارج تلك الدائرة، ولو بشيء بسيط من الاختلاف، مع أن المجال اجتهادي صرف! ومع أن رؤيتها المرجعية تلك ليست هي « الإسلام » كما تدعي بعض فصائلها، وإنما هي (فهم معين) للسياسة في الإسلام، إنها اجتهاد قابل للخطأ كما هو قابل للصواب، لكن أخطر مشكلة تعاني منها في هذا الصدد هي أنها تقوم بنوع من (الاستصلاح) للفكر السياسي العربي، فلا تنجو – لذلك – كثير من مقولاتها السياسية من التلوث بأصولها العلمانية، نعم لا شك أدنى شك في أن هدفها الكلي، ومقصدها الغائي فعلًا هو الإسلام، ولكن فرق بين (القصد) أو (الهدف) وبين (خطاب القصد) أو (خطاب الهدف) إذ ليس بالضرورة كل خطاب مؤدٍّ إلى قصده ترومًا، فربما زاغ عن هدفه؛ لعلة في منهج الخطاب والعمل، وهذا فرق ما بين نقدنا ونقد (الآخر) الذي تمارسه الاتجاهات العلمانية للحركات الإسلامية

إننا لا نقول بأنها (تستغل) الدين بمعنى (البراجماتي) ؛ لتمرير خطابها السياسي كما يقول بعض سفهاء العلمانيين كلا! فهذا مجرد نقد (أيديولوجي) ليس إلا! إننا على يقين بأن الحركات الإسلامية إنما تتعبد – على الإجمال – بعملها الحركي السياسي، سواء أصابت في ذلك أم أخطأت. لكننا على يقين أيضًا في أنها تتعبد من خلال فهمها الخاص للدين، ولا يمكنها إلا أن تكون كذلك؛ إذ المجال السياسي تفوق نسبة الرأي والاجتهاد فيه – من مجمل التشريع الإسلامي – درجة التسعين بالمائة، كما فصلناه بأدلته في كتاب (البيان الدعوي) . وهذا معنى قولنا: إنها تملك الخطاب السياسي المُنَمَّط، بما هو عنصر أساس من مكونات الحزبية

وبتوفر العناصر الثلاثة المذكورة (التنظيم الميكانيكي، والتعبئة الاستعراضية، والخطاب السياسي المنمَّط) تكون الحركة الإسلامية مؤهلة فعلًا – كما ذكرنا

لمآلها التاريخي: التحول والاندماج الحزبي الهيكلي. ذلك أن ما وصفنا من طبيعتها مؤشر قوي لقابليتها لذلك، على حد تعبير مالك بن نبي ﷺ في نظرية (القابلية للاستعمار) وجزء مهم من هذا المتوقع غدا هو – على كل حال – واقع اليوم! فما بقي من الصورة في الحقيقة إلا التكميل والتتميم، إذ لا يكاد يخلو قطر من أقطار العالم الإسلامي اليوم من شيء من ذلك؛ صراحةً أو ضمنًا.

وقد يقول قائل: إن الحركات الإسلامية هي غير الأحزاب التقليدية، من حيث القدرة على احتوائها، وتوجيهها من لدن الغرب ومؤسساته العالمية؛ فنقول نعم، هي غير ذلك من وجه، ولكن بها نوع من القابلية لذلك من وجه آخر وهو الاستجابة لمقولات الخصم الحضاري الثقافية والسياسية والاقتصادية، كما أشرنا إليه من قبل؛ ولذلك وُجدت العولمة والنظام العالمي الجديد، ومن هنا كان التوجه الاستعماري الجديد ليس إلى محاصرة الحركات الإسلامية فحسب؛ ولكن أيضًا إلى (منافسيها)، وهذا ما لم تنتبه إليه بعض الحركات الإسلامية بصورة جيدة لحد الآن، وهذا هو الاتجاه الراجح الآن في الصراع الحضاري العالمي المنافسة على الإنسان في العالم الإسلامي إن العولمة عملت جهدها على فتح الحدود الاقتصادية والثقافية والإعلامية؛ من أجل التمكن من الاشتغال المباشر؛ لاحتلال الشعور الفردي ثم الاجتماعي.

العولمة إذن تقوم بوظيفتين: الأولى فتح الحدود الأنطروبولوجية، **والثانية:** المنافسة على الإنسان في العالم، أو بعبارة أخرى احتلال الإنسان المسلم، ومن هنا فإن الحركة الإسلامية لن تواجه أمريكا، أو الصهيونية، أو الغرب فقط؛ بل ستواجه (الصوت الآخر) في مجتمعها أيضًا، بل ربما في صفوفها وفصائلها أيضًا، وهذا أسوأ ما يتوقع من هزيمتها وقد شاهدنا بعض تجلياته مع الأسف على مستوى الفكر وعلى مستوى الممارسة، حتى تكأنك أمام (علمانية إسلامية) لكن ليس بالمعنى التقليدي.

إن المواجهة لن تكون كما كانت من قبل ضد طابور العملاء السياسيين، أو الموالين ثقافيًا للغرب، من اللائكيين واليساريين، كلا؛ فتلك حرب - في منطق الرؤية المستقبلية انتهت ووضعت أوزارها، إن المواجهة الجديدة ستكون ضد (نمط

الحياة) الأمريكية، الذي لن يقتصر على الساحة المغربية فكريًا، أو على الطبقة الأرستقراطية، بل هو يصبح الآن بالتدريج نمط الشعوب الإسلامية، بما في ذلك الإسلاميون أنفسهم، من باب مقولات (الأسلمة)، و (التثاقف)، والانفتاح على (المجتمع المدني)، إن معنى ذلك أن الحركة الإسلامية ستواجه خصمها في ذاتها، ومعنى ذلك أيضًا خطر خسران المعركة حضاريًا؛ لأن الجسم لم يخلق ليحارب نفسه بل ليحميه، ومن هنا ستحتاج الأمة إلى (مضادات حيوية) جديدة وإلى (بعثة) أخرى، كما سيأتي بيانه بحول الله.

إن قدرات الحركات الإسلامية ذات الصبغة الحزبية، لن تعدو حدود مقاومة الظلم السياسي، والاختلال الاجتماعي، والإسهام إلى حدٍّ ما في التوجيه الاقتصادي والإعلامي... إلخ. وكل ذلك شيء مهم جدًّا، ولكن الأهم منه هو العمل الإستراتيجي المتعلق ببناء الرصيد الروحي المنتج للأجيال، وتوسعة (الاحتياطي) في مجال بناء الإنسان القرآني، وتأثيرها في هذا الآن محدود جدًّا ضمن دوائر ضيقة، ولن تزداد - مع تطورها الحزبي - إلا ضيقًا؛ لما للمنهجية الحزبية من ارتباطات ميكانيكية، تغرقها في الجزئي واليومي.

وقدرة الحركة الإسلامية وإمكاناتها - كما وصفنا - هو عينه دور الأحزاب التقليدية في الماضي، وهو ما سينال، بل قد نال فعلًا بعض الحركات الإسلامية، التي هي في طور التهيؤ للقيام بذلك، وهو بالنسبة إلى التحديات الشمولية للعولمة عمل محدود جدًّا، لن يبلغ حد التغيير الكلي للإنسان، ما دامت آلة الاشتغال الحزبي هي الوسيلة الوحيدة المتوفرة لديها للعمل، وهذه الوسيلة هي نتاج أوروبي، ومنهج غربي، لا يعدو في طبيعة تأثيره مجرد صناعة (الرأي العام) المؤقت والمتقلب! والديموقراطية الليبرالية التي هي فضاء وجود الحزبية لن تؤدى أبدًا إلى نقض أصولها، ما دامت فلسفتها قائمة في منهجها، ولا يمكن للمنهج أن ينقض مذهبيته، أو ينقلب على فلسفته، وما وجوده إلا بها، وقد تقرر عند أرباب « المنهجيات » أن المناهج وفية لمذاهبها، ومن ظن إمكان تجريد المنهج عن مذهبيته فهو واهم![1] نعم سيؤدي نضاليًا إلى توجيهها من الداخل،

---

(١) أبجديات البحث في العلوم الشرعية للمؤلف. (٩)

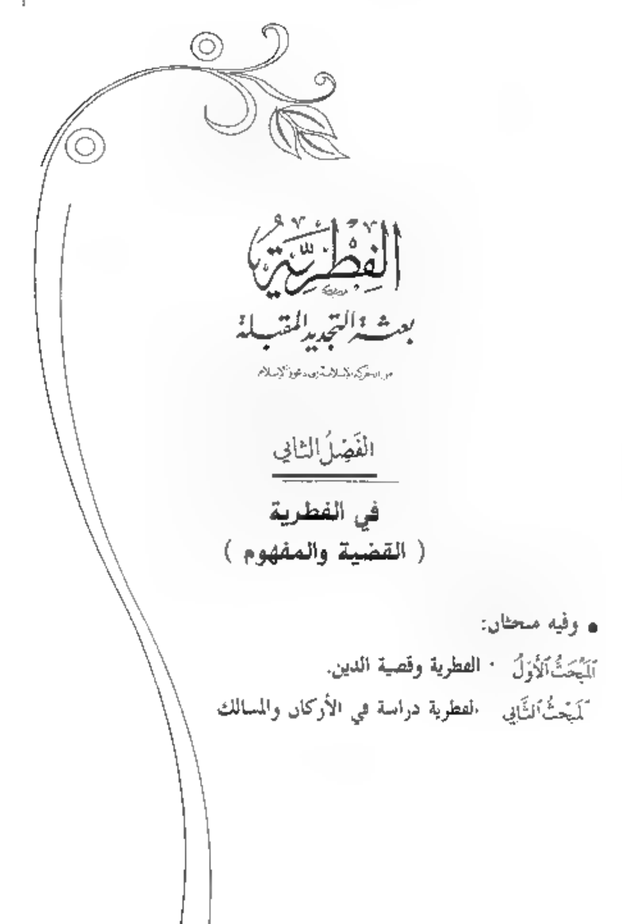
بمعنى أن الحربية الإسلامية ستعطي للديموقراطية مسحة إسلامية؛ لكن دائمًا في حدود الإمكانات المحسوبة، والقابلة للنقص في كل وقت وحين؛ إذ (الرأي العام) الذي يحسمه (العوام) هو الممثل الشرعي والوحيد لمصداقية اللعبة، وما الرأي العام الذي يصبح في أسابيع إلا ريح الأهواء، وأصوات الغوغاء.

ثم قد يقول قائل: إذن، إذا وعت الحركة الإسلامية ذلك ؛ فإنها تحسب كل تلك الإمكانات فتخرج عن حد أهداف العولمة. فنقول: لا يمكنها ذلك إلا إذا خرجت عن طبيعتها (الحربية) التي نشأت عليها، كما وصفنا؛ إلى شيء جديد، وهو ما نرجو أن تلده الأيام بحول الله. أو تبقى على طبيعتها تلك فتكون إذن محكومة بإمكانات (اللعبة الحربية)، وهي جميعها آئلة بطبيعتها إلى محيط العولمة، ولا مرية بين المرلتين، فتوجه العولمة يشتغل الآن وليس غدًا، وتوقع نتائجها مبني على مشاهدة مقدماتها، فإنما ننطلق إلى المجهول من المعلوم، بناءً على المنطق الرياضي.

أليس معظم الحركات الإسلامية حربي التنظيم؟ أليست ترجع في بنائها لـلسسني إلى نموذج الحزب الـسياسي؟ ثم أليست ذات أطروحات مختلفة، واجتهادات متباينة؟ ثم أليست تتفرق بشكل تناسلي إلى جماعات وجمعيات، كما تتناسل الأحزاب القومية والعلمانية، وينشقّ بعضها عن بعض؛ لأسباب سياسية وشخصانية؟ فإنها بهذا وبما ذكر قبله تنساق تحت تأثير بَخْشِ الصياد الأمريكي شيئًا فشيئًا إلى قفص (اللعبة الديموقراطية) ؛ لتقف أمام المشاهد العربي، كما تقف الحيوانات الآبدة في أقفاص حديقة الحيوان.

إن الابتلاء العولمي المشتعل الآن، هو أعظم وأشمل من أن تواجهه حركات إسلامية محدودة الغايات والوسائل، حركات بقيت حبيسة آليات تنظيمية، ووسائل تمهيدية، هي من تراث مرحلة الاستعمار القديم، وظروف سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية، ونتاج ردود فعل؛ لصيحات الماركسية والقومية، التي تلاشى صداها في الماضي.

إن بصائر القرآن، وسنن التاريخ، وطبيعة التحولات الكبرى في العالم الإسلامي، وخروج الدجال العولمي؛ كل ذلك يحدثنا عن ميلاد شيء جديد في أفق العمل الإسلامي.



الفَصْلُ الثاني

في الفطرية
(القضية والمفهوم)

• وفيه مبحثان:

المَبْحَثُ الأَوَّلُ: الفطرية وقضية الدين.

المَبْحَثُ الثَّانِي: الفطرية دراسة في الأركان والمسالك



المَبْحَثُ الأَوَّلُ

الفطرية وقضية الدين

عندما تضطرب المفاهيم وتختلف التصورات بين المشتغلين في المجال الواحد، أو ربما تتناقض، نكون مضطرين إلى العودة إلى المنطلقات الأولى للمجال الذي نشتغل فيه؛ لإعادة تجديد السؤال حول ما نعتبره عادة من البدهيات.

ولذلك وجب أن نبدأ التفكير والترتيب من الخطوة الأولى لبناء مفاهيم الإسلام في نفوسنا.

فلا خلاف أولًا في أن الإسلام -قبل أن يكون أي شيء- إنما هو «دين». ذلك هو معناه الجوهري الأساس، وهو معنى كلي قطعي، ثابت بالنصوص المتواترة كتابًا وسنةً، وبالإجماع الكامل. ويكفينا من ذلك قوله تعالى الوارد على سبيل التعريف والتقرير: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. ومنه بيان غاية إنزال الكتاب على رسوله ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۞ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣]. ثم خطابه العام للأمة جمعاء في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. تلك حقيقة الإسلام كله، وتلك قصة الدين كله! ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]

هذا، وإنما أوردنا هذه النصوص هاهنا -على سبيل التذكير- لأنا نعلم أن هذه

الحقيقة - رغم بدهيتها - بدأت تهتز وتضطرب، بصورة واعية أو غير واعية، لدى كثير من العاملين في الصف الإسلامي من الحركة الإسلامية الحديثة، ونحن الآن بإزاء إعادة تفسير بدهيات، وجدنا أنها في حاجة إلى مراجعة وإعادة تقرير، لبناء منهج الاستدلال، حول ما يحتدم حوله الآن كثير من الخلاف والاختلاف، في مناهج العمل الإصلاحي المعاصر ومفاهيمه.

وأقول - كشاهد على المرحلة: لقد أتى علينا حين من الدهر في الحركة الإسلامية نسينا فيه، أو كدنا ننسى، أن الإسلام دين!

هذه خطوة أولى، أو « مقدمة أولى » على حد تعبير المناطقة.

فوجب الآن أن نتساءل: ما معنى كلمة « دين »؟ وما دلالتها المفهومية في القرآن الكريم وفي السنة النبوية؟ ولتكن هذه خطوة ثانية، أو « مقدمة ثانية ».

الدين في اللغة راجع إلى معنى: الانقيادِ والذلَّة والخُضوع، وهو معنى مجمع عليه بين أهل اللغة. قال ابن فارس في مادة « دين »: (« الدال، والياء، والنون »: أصلٌ واحدٌ، إليه يرجع فروعُه كلُّها، وهو جنسٌ من الانقياد والذُّل. فالدِّينُ: الطاعة، يقال دَانَ لَهُ يَدِينُ دِينًا، إذا أَصْحَبَ وانقادَ وطَاعَ. وقومٌ دِينٌ، أي: مُطيعون منقادون، قال الشاعر:

« وَكَانَ النَّاسُ إلاَّ نحنُ دِينا) »[1]

ومنه قيل للدَّيْنِ - بمعنى السَّلَف - دَيْنًا؛ لما فيه من ذِلَّةِ الْمَدِينِ وخضوعه للدَّائن.

ولنا أن نورد - بعد ذلك - كلام الراغب الأصفهاني صاحب مفردات القرآن، في بيان علاقة اللغوي بالاصطلاحي، فهو من أجمعها وأبينها، قال رحمه الله: « الدين يقال للطاعة والجزاء، واستعير للشريعة، والدين كالملة، لكنه يقال اعتبارًا بالطاعة والانقياد للشريعة، قال: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: طاعة. ﴿ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ [النساء: ١٤٦] (...) وقوله: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] قيل: يعني الطاعة، فإن ذلك لا يكون في الحقيقة إلا بالإخلاص، والإخلاص لا يتأتى فيه الإكراه »[2].

---

(١) معجم مقاييس اللغة: مادة « دين ».

(٢) المفردات: مادة « دين ».

ومن هنا كانت حقيقة الإسلام - بما هو دِينٌ - راجعة إلى معنى خضوع القلب والجوارح لله رب العالمين، وهو معنى العبادة. ومآلها إلى المعنى المبني الخاص؛ إذ لا خضوع للجوارح على الحقيقة إلا بالخضوع التام للقلب، وهو معنى الإخلاص. وعلى ذلك قام عنوان الإسلام، ومدخله الذي لا مدخل له سواه، أعني «شهادة أن لا إله إلا الله». ولا وجود لشيء في الدين خارج هذا المعنى، منذ أسسه - بأمر الله - أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، على ما بينه القرآن. ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣١].

أي خضعت وأطاعت. وسياق الآية - بسوابقه ولواحقه - دال على هذا المعنى القلبي الخالص، وعلى أنه أساس التسمية العَلَمية لهذا الدين بمصطلح «الإسلام»! كما أنه دال على أن ذلك هو أساس الدين الذي كان عليه الأنبياء عبر التاريخ، ولك أن تستعيد قراءتها بلواحقها - متدبرا - قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١-١٣٣].

فكان معنى «الدين» - المصطفى للمؤمنين بالله - هو توحيد الله بإخلاص العبادة له، والخضوع له في ذلك وحده خوفًا وطمعًا، وهو معنى «الإسلام»؛ فلا تشتغل القلوب والجوارح في شيء من مُسمَّى الدين إلا لله؛ سيرًا إليه تعالى حتى يوم لقائه، ذلك اليوم الذي هو غاية الدين ونهاية حكمته، ومناط تنزيله وتشريعه. ومن هنا قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

فكل أركان الإسلام، وأركان الإيمان، لا تخرج عن هذا المعنى البتة، ودونك نصوصها في الكتاب والسنة، فتدبَّر!

وقد أوردنا لذلك من نصوص القرآن ما يكفي، وأما نصوص السنة النبوية

الصحيحة ما أكثر من أن تحصى. ويكفينا منها الحديث المشهور في النيات، الذي صار قاعدة كلية في بيان صحة الأعمال أو بطلانها في الإسلام، من قوله عليه الصلاة والسلام « **إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ** »[1].

وأما حديث جبريل المشهور، الذي بيَّن فيه النبي ﷺ كلَّ مسمَّى (الدين) ؛ وذلك ببيان أركان الإسلام، وأركان الإيمان، وحقيقة الإحسان، ثم منهجية السؤال والجواب تعلمًا وتعليمًا، في سياق بناء منهج « فقه الدين » ؛ فقد ختمه النبي ﷺ بكلمة جامعة مانعة، وهي قوله لعمر بن الخطاب رضي الله عنه « **يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ** » قُلْتُ « الله ورسُولُهُ أعْلَمُ » قَالَ « **فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ!** »[2]، هكذا « دينكم »، بكل ما لهذا التركيب اللغوي من عموم واستغراق لكل معاني الدين، فرجع ذلك إلى أن ما ذُكِرَ فيه من كليات، هي أصول الدين، وأن ما سواها فروع، ولا صحة لهذه إلا بالابتناء على تلك. وواضح جدًّا في أن ما ذُكِرَ في الحديث من أركان وحقائق إنما هي معانٍ تعبدية محضة، راجعة إلى معنى خضوع القلب والجوارح لله رب العالمين.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال مبيِّنًا الجوهر الروحي للدين « **إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ!** »[3] قال ابن حجر في شرح هذا الحديث: قوله:

---

(١) متفق عليه

(٢) رواه مسلم. ونصه: (عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: بينما نَحْنُ جُلُوسٌ عند رسُول اللهِ ﷺ ذات يوم، إذْ طَلَعَ علينا رجُلٌ شديدُ بياض الثِّياب، شديد سواد الشَّعَرِ، لا يرى عليه أثَرُ السَّفَرِ، ولا يَعْرِفُهُ منَّا أحدٌ، حتَّى جلس إلى النَّبيِّ ﷺ فأسند رُكْبتيه إلى رُكْبتيه، ووضع كفَّيه على فخذيه، وقال: يا محمَّدُ، أخبرني عن الإسلام فقال رسُولُ اللهِ ﷺ « الإسلامُ أنْ تَشْهدَ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وتُؤتِيَ الزَّكاةَ، وتَصُومَ رمضان، وتَحُجَّ البيت إن استطعت إليه سبيلًا » قال: صدقت. فعجبنا له يسْألُهُ ويُصدِّقُهُ قال: فأخبرني عن الإيمان. قال « أنْ تُؤمِنَ باللهِ، وملائكته، وكُتُبه، ورُسُله، واليوم الآخر، وتُؤمن بالقدر خيره وشرِّه » قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال « أن تعبُدَ اللهَ كأنَّك تراهُ، فإن لم تكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ » قال: فأخبرني عن السَّاعة. قال « ما المسْؤُولُ عنها بأعْلمَ من السَّائِلِ » قال: فأخبرني عن أماراتها. قال « أنْ تَلِدَ الأمةُ ربَّتَها، وأنْ ترى الحُفاةَ العُراةَ العالة رعاء الشَّاءِ يتطاولُونَ في البُنيان » ثُمَّ انطلق فلبثتُ مليًّا، ثُمَّ قال « يا عُمر، أتدري من السَّائِلُ » قُلْتُ: اللهُ ورسُولُهُ أعلمُ. قال « فإنَّهُ جبريلُ أتاكُم يُعلِّمُكُم دينكُم »)

(٣) رواه البخاري

« واستعينوا بالغَدْوَةِ »، أي استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في الأوقات المنشطة. والغَدْوَةُ بالفتح: سَيْرُ أوَّلِ النهار، وقال الجوهري: ما بين صَلاةِ الغَداةِ وطلوع الشمس. والرَّوْحَةُ بالفتح: السيرُ بَعْدَ الزوالِ. والدُّلْجَةُ: بضم أوَّلِهِ وفتحِه، وإسكان اللام - سَيْرُ آخرِ الليلِ، وقيل: سيرُ الليلِ كُلِّه، ولهذا عبَّر فيه بالتبعيض. ولأنَّ عملَ الليلِ أشقُّ من عملِ النهارِ. وهذه الأوقاتُ أطيبُ أوقاتِ المسافر. وكأنه ﷺ خاطبَ مسافرًا إلى مقْصِدٍ، فنبَّهَهُ على أوقاتِ نشاطِه؛ لأن المسافرَ إذا سافرَ الليل والنهارَ جميعًا عجَزَ وانقطعَ، وإذا تحرَّى السيرَ في هذه الأوقاتِ المُنْشِطَةِ أمْكَنَتْهُ المُداوَمَةُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ، وحُسْنُ هذه الاستعارةِ أنَّ الدُّنْيا في الحَقِيقَةِ دَارُ نَقْلَةٍ إلى الآخرة، وأنَّ هذه الأوقاتِ بِخُصُوصِهَا أرْوَحُ ما يَكُونُ فيها البَدَنُ للعبادَةِ! »[1].

فهذه معانٍ قلبيةٌ، وحقائقُ أخرويةٌ، وعقائدُ إيمانيةٌ، وأعمالٌ تعبديةٌ، كلها تتضافر - في سياقات شتى - لتحديد المعنى الجوهري « للدين »، ولذلك صح في الحديث أنَّ « خيرَ دِينِكُمُ الْوَرَعُ! »[2] وهو معنى قلبي صرف!

فمدار « الدين » - كل الدين - إذن، إنما هو على قضية الإنسان مع ربه الذي خلقه، لتحديد مصيره الأخروي الذي هو خاتمة المطاف في قصة الوجود البشري كله! وكل التشريع الإسلامي إنما هو دائر حول هذا المدار، سواء في ذلك ما تعلق بالمصالح الدنيوية أو المصالح الأخروية، وهو ما قرره منذ القديم شيخ المقاصد العالم الرباني الحكيم أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله، في قاعدته المقاصدية المشهورة، قال: « المصالح المجتبة شرعًا والمفاسد المستدفعة، إنما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الأخرى، لا من حيث أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية، أو درء مفاسدها العادية، والدليل على ذلك (...) أن الشريعة إنما جاءت لتخرج المكلفين عن دواعي أهوائهم حتى يكونوا عبادًا لله »[3].

ولديَّ هاهنا نص ثمين، يتضمن حكمة بالغة في سياق منهج تجديد الدين وبيان مراتب أولوياته لأحد المجددين المعاصرين، هو الأستاذ بديع الزمان سعيد

---

(١) فتح الباري، (١/٩٥).

(٢) رواه البزار، والطبراني في الأوسط، والحاكم، عن حذيفة، كما رواه الحاكم عن سعد. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) الموافقات (٢/٣٧، ٣٨).

النورسي رحمه الله، يقول: « إن نسبة الأخلاق والعبادة وأمور الآخرة والفضيلة في الشريعة هي تسع وتسعون بالمائة، بينما نسبة السياسة لا تتجاوز الواحد بالمائة »[1].
ومن ثَمَّ قال في بيانٍ تربوي حكيم « إنَّ أسعد إنسان في هذه الحياة الدنيا هو ذلك الذي يتلقَّى الدنيا مَضيفَ جُنْديَّة، ويذعن إلى أنها هكذا، ويعمل وفق ذلك، فهو بهذا التلقي يتمكن من أن ينال أعظمَ مرتبة، ويحظى بها بسرعة، ألا هي مرتبةُ رضا الله سبحانه، إذ لا يَجْعَلُ قيمةَ الألماس الثمينةَ الباقيةَ بقطعِ زجاجيةٍ تافهةٍ (...) نعم إنَّ الأمور التي تعود إلى الدنيا هي بمثابة قِطَعٍ زجاجيةٍ قابلةٍ للكسر، بينما الأمورُ الباقيةُ التي تخص الآخرةَ هي بقيمةِ الألماس المتين الثمين »[2] ذلك مثلُ الحقائق الإيمانية الأخروية، وما تعلق بها من قول أو عمل.

ومن هنا كان جوهر الرسالة القرآنية إنما هو إنذار البشرية بحق الله العظيم عليها، وما ينبني على ذلك من معاني العبودية، في طريق السير إليه تعالى؛ رَغبًا ورَهبًا، ثم ما يترتب عن الإخلال به أو الوفاء من مصير وجزاء، وفي ذلك جاءت الآيات والسور تترى لبيان حقيقة الحياة الدنيا، واقرأ القرآن من أوله إلى آخره – من خلال هذه الحقيقة – تجد إنما هو « كتابٌ أخروي » بامتياز، وما « الحياة الدنيا » في هذا السياق إلا وسيلة تابعة، وآلة خادمة للأخرى، وأي حقيقة في القرآن أشد وأهول من مثل ما تَصْدَعُ به هذه الآيات الصارخات: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران ١٨٥] ﴿ وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت ٦٤].

وأي خبر أوقع على النفس وأشد، من هذا البيان الرباني الرهيب؟! ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ

(١) كليات رسائل النور: صيقل الإسلام. (٤٤٦)
(٢) المكتوبات: (٢٣).

اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢٠، ٢١].

ماذا بقي إذن؟. . فأي شيء في القرآن لا يدور بهذا المدار؟ وأي شيء منه لا يتجه نحو هذا المسار؟ أوَ لم تكن الكلمات الأولى لرسول الإسلام، يوم أمره الله بالصدع بدعوته إعلانًا للعالمين أن خصص للناس أول من خطبهم – بقوله ﷺ: « **إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد!** »[1].

فما بالنا اليوم في مجال العمل الإسلامي ننشر الدين بجنة أرضية؟ وننسى قضية الإنسان الكبرى الآخرة!

لقد انحرفت تصورات كثير منا فعلًا! وانخدعنا بمقولات دبجناها بأنفسنا فكنا نحن أول ضحاياها! لقد أتى علينا حين من الدهر وجدنا أنفسنا في مواجهة التيارات الماركسية والمنظمات الإلحادية، والنظريات المادية التي تبني مشروعها كله على عرض جنة وهمية على الأرض، فسقطنا في الفخ إلا قليلًا، ثم صرنا نحن أيضًا نبشر الناس على سبيل المنافسة بوعود مادية محضة، ونقدمها على أنها مرتكزات مشروعنا، أصالةً لا تبعًا، متوسلين إلى ذلك بكثير من المصطلحات البراقة في عالم السياسة والإعلام.

لقد خدعت الحركة الإسلامية نفسها بنفسها، عندما وظفت مفاهيم « **الشمولية** » الإسلامية، كرد فعل على حركة تجزيء الإسلام التاريخية، التي قصرته على الأذكار والعبادات في التكايا والزوايا، فراهنت في سياق رد الفعل على الشمول، لكنها – مع الأسف لم تربح الرهان! فغلَّبت العادات على العبادات، إلا قليلًا.

والإسلام شامل لكل معاني الحياة، نعم، تلك حقيقة راسخة من حقائقه الكلية، لا مراء فيها ولا إشكال. ولكن أين من يضبط الميزان؟ وأين من يرتب أولويات الدين كما عرضها الدين؟ لا كما تشتهيه رغائب الصحافة والإعلام، ثم أين من يبني الفروع على الأصول ولا يقلب الميزان؟

لقد جعل كثير من أبناء الحركة الإسلامية المعاصرة حقائق القرآن الأخروية التي هي مناط الدين، كل الدين – تابعة « لجنة الدنيا »! وذلك بسبب التوصيف السيئ

---

(١) متفق عليه.

لمفهوم « شمولية الإسلام » في كثير من مقولاتهم وخطاباتهم!

ولقد آل هذا المنهج المقلوب ببعض التيارات إلى نسيان الآخرة إلا قليلًا مما أدى إلى طردها من القاموس النضالي للحركة « الإسلامية » .

وهكذا صرنا إلى نتيجة عجيبة: وهي التأليه اللاشعوري للإنسان! فكان أن احتلت « حقوق الإنسان » مرتبة « حقوق الله » رب الإنسان. دائمًا في إطار مفهوم « شمولية الإسلام »، كذا

فأين الخلل إذن؟

إن علينا أولًا أن نعيد قراءة القرآن، بما هو خطاب رب العالمين للإنسان، يصحح تحقيق كل مفاهيم الدين، ويوثقها توثيقًا لا يدع مجالًا لباطل أو بهتان، وذلك ما نحاول صناعته بحول الله الآن.

خلل في الفطرة:

فإذا جمعت ذلك إلى ما أسلفنا من مقدمات منهجية، وجدت أن الخلل اليوم قد أصاب فِطْرَةَ الإنسان، إصابات تتفاوت على حسب موقع ذلك الإنسان - قربًا وبعدًا، وقبولًا ورفضًا - من مشرب القرآن، إلا أن الإصابة في هذا العصر - رغم تفاوتها - عامة شاملة، قد مست أغلب تصورات الإنسان، وعمران الإنسان، بما في ذلك إنسان هذا الصف الإسلامي الراكض في سباق الحركات والتنظيمات الإسلامية المعاصرة؛ فاختلال المفاهيم الفطرية واضطرابها، أصبح فتنة عامة أشبه ما تكون - في عمومها وشمولها - بالفتن التي ذكرها النبي ﷺ في بيانه الرهيب لما يقع بين يدي الساعة، فسمَّى من بين ما سمَّى « فِتْنَةَ الدُّهَيْمَاءِ لا تدَعُ أحدًا من هذه الأمة إلا لطمته لطمة، فإذا قيل انقضت تَمَادَتْ » [1] . وهي أشبه أيضًا ما تكون - في عمومها وشمولها - بـ (فتنةِ القَطْرِ) المذكورة فيما رواه أُسَامَةُ بن زيد رضي الله عنه (أَنَّ النَّبِي ﷺ أَشْرَفَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ [2] . ثُمَّ قَالَ « هَلْ تَرَوْنَ ما أَرَى؟ إِنِّي

(١) رواه أحمد وأبو داود والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير

(٢) الأُطُم بضمتين، هو كل حصن مبني بحجارة على هيئة مربعة جمعه آطام وقد كانت هناك في عهد النبي ﷺ، آطام بضواحي المدينة لحراستها.

لأرى مَوَاقِعَ الْفِتَنِ خِلال بُيُوتِكُمْ، كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ! ») [1]. ألا وإن حال الفطرة الإنسانية اليوم لكذلك! نعم، وأيك الله!

ولكن، لنشرع أولاً في مقاربة هذا المفهوم: (الفِطْرَة) ،بعد مفهوم « الإسلام » ومفهوم « الدين ». فهي سلسلة متعاضدة، بعضها من بعض.

ولنبدأ الدعوى بالقول على سبيل التعريف: إذا تقرر أن الإسلام دين، فلك أن تقول: إن الدين فِطْرَةٌ بل لك أن تقول: إن الدين هو الفِطْرَةُ.

وهنا نحسب أننا نقترب أكثر وأكثر من تشخيص الخلل، عسى أن نتمكن - بإذن الله - من وصف منهاج العمل.

ولنعد سؤال البَدَهِيَّة الثالثة: ما الفطرة؟

الفِطْرَةُ - كما سنتبين بأدلتها - هي: ذلك السر الكامن في قلب الروح، إنها الجوهر المكنون للخلق الإنساني، والسر المصون للوجود البشري، فهي أم اللطائف، ومرجع الأسرار في المعنى الوجودي لحقيقة « الإنسان »، بكمالها يكمل مفهوم الإنسان، وبنقصها ينقص معناه، وبانخرامها الكلي يخرج عن طبعه وحده إلى دَرَكِ المعنى البهيميِّ لجنس الحيوان.

فأي مس بها وأي خدش يؤدي حتمًا إلى اضطراب - على قدر ذلك المس وذلك الخدش - في المعنى الوجودي للإنسان، وإلى تخبط نفسي واجتماعي، بما ينقض منها على وجوده الروحاني والجسماني من معاني الحياة؛ ذلك أنَّ الخُرُوج عن الفطرة درجات، تمامًا كما خروج الجسد، فخدش الجلد ليس كشق اللحم، ولا هذا ككسر العظم، ولا هو كبقر البطن أو طعن الصدر، فعلى قدر التغيير لطبيعتها يكون حجم الفساد في الأرض، إذ هي من أخص خصائص الصنع الإلهي، والتكوين الرباني للخَلْق البشري.

ولذلك كانت الفِطْرةُ - بما هي « اسم هيئة » كما يقول النحاة - هي الصورة المصنوعة الأولى التي خلق الله عليها الإنسان، بما سوَّاها عليه من توازن وكمال، أي قبل تدخل اليد البشرية العابثة فيها بالخرم والخدش.

---

(١) متفق عليه

ومن هنا كان تدخل الإنسان فيها بالتغيير والتبديل مغامرة خاسرة قطعًا؛ لأنه تدخل فيما لا علم له به من أمر خلقه وماهية وجوده؛ ولذلك كان ممنوعًا من مد يده الطائشة إلى صندوقها قصد محاولة العبث بسرها؛ إذ فساد شيء من حقيقتها لا يمكن تلافيه بأي إصلاح جهوي من عنده، أو أي استدراك بليد من عدمه، بل لا بد فيه من تدخل ثانٍ لخالقها العظيم، الذي لا تعجزه الإعادة كما لم يعجزه البدء. ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس ٧٩] فهو وحده - سبحانه - العليم بأسرارها، الخبير بطبيعة تركيبها ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك ١٤]

ذلك هو مقتضى البيان النبوي العميق من قوله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتِجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟»[1] وفي رواية مسلم زيادة مهمة، نصها: «كَمَا تَنْتِجُونَ الإِبِلَ فَهَلْ تَجِدُونَ فِيهَا جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا» فتدبر، ما أعجب هذا الكلام النبوي العميق!

فلا يكون التدخل في هذا المعنى اللطيف الممنوع إذن، إلا هوًى وضلالًا؛ ولذلك جعل الله الدين أساس الصيانة لهذا السر العجيب في معنى الوجود الإنساني، وهو مقتضى هذا النص القرآني العظيم ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم ٢٩ - ٣٢].

ففطرة الله التي فطر الناس عليها، هي صورة الروح المؤمنة، المجبولة على صفاء الإخلاص لله، بما هو رب العالمين، الخالق وحده لكل شيء، المستحق وحده للعبادة من دون كل شيء. من هنا يبدأ تصور معنى الفطرة فيتفرع بعد ذلك إلى كل أعمال

---

(١) متفق عليه، من رواية أبي هريرة مرفوعًا.

الدين، سواء في ذلك ما كان من الروحانيات أو من الجسمانيات؛ لأن الدين هو المؤهل وحده على تحديد معنى الفطرة، وهو المؤهل وحده على صيانتها ورعايتها خاصة وأن الله - جلَّ علاه - جعل الروح بحكمته الابتلائية معمورة بالجسد، أو الجسد معمورًا بها، على سبيل التداخل والامتزاج الدنيوي، لتحقيق حكمة الابتلاء، فكانت فطرة النفس إذن بذلك مهددة بالضياع في غمرة نوازع الجسد الحيوانية، وفي وَحلِ رغائبه الطينية؛ إن هي لم تُضبط بالتهذيب والتشذيب، لتبقى على أصل خلقتها، بما هي فطرة نفسانية أولى، وهيئة روحانية سابقة، مجبولة على تسوية تامة وتوازن حكيم.

وهذا يحيل على ذلك المفهوم القرآني العجيب، المؤسِّس لأصل الإيمان في الخلق البشري ابتداءً، بما هو سر من أسرار المُلْك والملكوت، لكنه مهدد بالضياع في متاهات الغفلة عن صيانة العهد الأول، وميثاقه المؤسِّس على الفطرة الأولى. وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٤].

فالصيانة لهذا المعنى، تهذيبًا وتشذيبًا، هو بالضبط ما تقوم به أحكام التكليف التي جاءت بها الشريعة، ولا شيء من الدين يخرج عن هذا المعنى؛ ولذلك فإنك ترى كيف يمتد معنى الفطرة في الإسلام، من المنطلق الأول للدين، في بيان هيئة المؤمن النفسانية الباطنة، ابتداءً من حقيقة التوحيد بما هو إخلاص العبادة لله وحده، وانتهاءً ببيان هيئة المؤمن الجسمانية، بما يتعلق بحصول الفطرة الظاهرة في تجلياتها الجمالية.

فالمعنى الأول - الهيئة الإيمانية - هو الأصل، وهو مرتبط بعالم الغيب؛ ولذلك فهو صندوق السر، حيث يكمن المعنى الوجودي للإنسان. **والمعنى الثاني** - الهيئة الجسمانية - إنما هو الفروع المتجلية منه على عالم الشهادة.

فالنصوص الشرعية المؤسسة للمعنى الأول والمبينة له، يتقدمها هذا النص القرآني المذكور، بعبارته الصريحة الواضحة في بناء المعنى الإيماني للفطرة، بما هي إخلاص

لله الواحد القهار، ونفي لكل ضلالات الأهواء والأغيار، وعليه تجري كثير من البيانات النبوية الصحيحة، من مثل حديث الفطرة المذكور في شمول كليتها على كل مولود بشري. وقد صح عن النبي ﷺ غير ذلك من النصوص، التي تؤصل لهذا المعنى التوحيدي وتفصله، منها قوله لمؤذن وقد سمعه يرفع الأذان بالتكبير في الصحراء: «**على الفطرة**»(١) ومنها قوله - عليه الصلاة والسلام - للبراء بن عازب رضي الله عنه: «**إذا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلاَةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلِ: «اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ» فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ**»(٢). وغير ذلك من النصوص كثير... فكل هذه المعاني للفطرة ترجع إلى أصل واحد هو مدار التوحيد والإخلاص، الذي هو الصورة الجبلية الأولى لنفس الإنسانية، وهيئتها الروحانية التي كانت عليها يوم سؤالها بارئها جلَّ علاه.

وأما المعنى الثاني، وهو امتداد تجليات الفطرة إلى المظاهر الجمالية الجسمانية، فمن أشهر النصوص الواردة في ذلك قوله ﷺ: «**الفِطْرَةُ خَمْسٌ: الخِتَانُ، وَالاِسْتِحْدَادُ، وَنَتْفُ الإِبْطِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ**»(٣).

وهناك ارتباط وثيق بين المعنيين؛ لكون الثاني امتدادًا للأول - من جهة - وتجليًا من تجلياته؛ ولأنه - من جهة ثانية - علامة سيميائية على سلامة الباطن، بما هو تهذيب وتشذيب، فهو دائر على معاني القص والنتف والتقليم، وما شابهها من معاني الصيانة التشريعية للفطرة الإنسانية، وتلك كلها تجليات ما يجب أن يقع في عالم النفس أولًا، من قص ونتف وتقليم للنوازع الطينية، والرغائب الشهوانية، التي تزيغ بالمؤمن عن هيئة الصورة النفسانية الأولى للفطرة الإيمانية، بما يجعلها تنحرف عن حقيقة التوحيد والإخلاص، إلى ضلالات الأهواء المعبودة من دون الله.

(١) رواه مسلم. ونصه: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُغِيرُ إِذَا طَلَعَ الفَجْرُ، وَكَانَ يَسْتَمِعُ الأَذَانَ فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا أَمْسَكَ وَإِلاَّ أَغَارَ، فَسَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ: «اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَى الفِطْرَةِ» ثُمَّ قَالَ: «أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَرَجْتَ مِنَ النَّارِ» فَنَظَرُوا فَإِذَا هُوَ رَاعِي مِعْزًى».

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه، من حديث أبي هريرة مرفوعًا.

فالفطرة في الإسلام إذن معنى واحد منسجم، راجع إلى الإيمان الخالص، والدين الخالص، ثم إلى ما انبنى على ذلك من حقيقة الخلق الإنساني، تسويةً وتقديرًا بدءًا بالحقائق الإيمانية وسائر التصورات المفهومية لمعاني الخير والشر، والحق والباطل، وانتهاءً بالمواقف السلوكية الاجتماعية، بما تتضمنه من سلامة الأذواق، وصلاح العادات، وسائر ضروب التصرفات البشرية في العمران والحياة.

لكن ذلك جميعًا قائم على المعنى الأول، أعني الصورة النفسانية والهيئة الروحانية للإنسان، كما وصفنا وأصلنا. فلا يسلم شيء من الفروع في مجال التجليات العمرانية والاجتماعية والجسمانية إلا به.

والناظر في مأساة الإنسان المعاصر اليوم يدرك أن الفساد الحاصل في الاجتماع البشري فساد عميق جدًّا، بمعنى أنه مسّ توازن الفطرة، وخرم صورتها الأولى، وخدش أخص خصائصها الباطنة؛ فنتج عنه اضطراب كبير، وفوضى عارمة في كل مناحي العمران البشري فشاهت المفهوم والتصورات، وشاهت الأذواق والتصرفات وشاهت الحياة البشرية أجمعها إلا ما شاء الله.

فكل ضروب الانحراف البشري المعاصر، وكل صور التمرد على الله، سواء في مجال الإيمان والتوحيد، أو في مجال العبادات والمعاملات والأخلاق، وسائر ضروب التشريع وأنواع النُّظم الإسلامية، وما شابهها من خرق سافر عريض، وتمرد على شؤون الربوبية، وانتهاك لحقوق الله، بما هو رب البشرية ورب العالمين. كل ذلك راجع على الإجمال إلى انحراف في المعنى الباطن للفطرة؛ بسبب ما حصل لها من تشوهات في المفاهيم الإيمانية، وانحرافات في فروعها السلوكية والأخلاقية.

وخذ لذلك إن شئت مثال العري السافر الرهيب، الذي آل إليه حال المرأة المسلمة اليوم، وما يقع من الارتكاس المصنوع للشباب - ذكرانًا وإناثًا - في الشهوات، وترديهم في مستنقعات الموبقات، وما يحدث - في سياق ذلك - من الانتهاك الفاجر المحموم لحرمات الله، كل ذلك وما في معناه راجع إلى ما حدث لدى الجيل، من انحرافات وتشوهات في صندوق الأسرار الجبليّ: الفطرة. لقد تم تطبيع التصورات والأذواق على تمجيد صور الباطل، وتزيين مفاهيم الضلال، فحصل استقذار معاني الجمال والحياء، واستحلاء معاني الفحش والبذاء! وطغى التمرد على كل معاني القيم

العصرية والأخلاق الفاسدة! فسدت حاسة الذوق الروحي لدى الإنسان، تمامًا كما يفسد الذوق الحسي لدى مدمن الخمور والمخدرات، عندما تراه يستحلي روائحها النتنة القذرة فهذا وذاك، كلاهما فساد في أصل الفطرة مبين؛ ولذلك صرنا في حاجة إلى إعادة تأسيس جديد لمفاهيم الخير والشر، والجمال والقبح، والحق والباطل، والصلاح والفساد، إلى غير ذلك من المقولات والمفاهيم المؤسسة للحياة العمرانية على الأرض في شتى صورها الحضارية.

وهذا لن يقوم به فرد، ولا جماعة إسلامية محدودة، ولا حزب يصارع في دائرة ضيقة، بل هذا مشروع بعثة تجديدية شاملة، ينهض به جيل كامل من العلماء العاملين، والحكماء الربانيين؛ بقصد رد البناء إلى أصله، وإعادة صياغة الإنسان على أساس موازين الوحي وعلى عينه

لقد انحرف المعنى الأصلي للفطرة الإنسانية في عالم الروح؛ فانحرف بانحرافه السلوك البشري في الأرض؛ ولو لم يحصل الأول لما حصل الثاني؛ ففجور العري الجسماني - مثلًا - ليس سوى تجلٍّ لفجور العري الإيماني. وتلك أن تتدبر عمق الارتباط بين الأمرين في هذا النص القرآني العجيب، من قوله تعالى ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾
[الأعراف: ٢٦ - ٢٩].

فالانحراف المبينُ في الآية مؤسَّس له من قبل بانحراف مفهومي في طبيعة الحقائق والقيم، بدءًا بوسوسة الشيطان لآدم في خطيئته الأولى، وانتهاءً بما وصل إليه حال البشرية من تمرد على مفاهيم الحق والجمال؛ حيث صارت تُسوِّغ كل ضلالاتها بأنها هي الحق، وأنها هي عين الفضيلة والجمال. ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ

ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ ﴾ [الأعراف ٢٨] كذا؛ فأي خراب للفطرة بعد هذا؟

لقد استطاع الشيطان في صراعه المرير مع الإنسان أن يغريه بمد يده الطائشة المستهترة إلى مركز الأسرار من حياته، ويقنعه بتغيير ما هو منهي عن الاقتراب منه، بَلْه مسه والعبث به. ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩]. فالتغيير لخلق الله هاهنا هو بمعنى إفساد الفطرة، في هيئتها المعنوية أصالةً ثم الجسمانية تبعًا؛ فَتَبْتِيكُ آذان الأنعام هو بمعنى تشقيقها؛ لجعلها علامة على ما وهبوه لآلهتهم من قرابين لا تُرْكَبُ ولا تُحلَب! وهذا تغيير للفطرة ونكس بما هو إفساد للدين أساسًا وتغيير له؛ لأن التشقيق إنما يقع بقصد الشرك بالله. وأما قوله تعالى بعدُ: ﴿ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ ﴾. فهو في إفساد الفطرة المعنوية مطلقًا؛ الفطرة بما هي دين الله الحق.

وعلى ذلك أورد ابن كثير مذهب عدد من السلف في تفسير هذه الآية، قال رحمه الله: (وقال ابن عباس في رواية عنه، ومجاهد، وعكرمة، وإبراهيم النخعي، والحسن، وقتادة، والحكم، والسدي، والضحاك، وعطاء الخراساني، في قوله: ﴿ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ ﴾، يعني: دين الله ﷻ. هذا كقوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الروم ٣٠] على قول من جعل ذلك « أمرًا »، أي: لا تبدلوا فطرة الله، ودعوا الناس على فطرتهم، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « **كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تجدون بها من جدعاء؟!** ». وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار، قال: قال رسول الله ﷺ: « **قال الله ﷻ: إني خلقتُ عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجْتَالَتْهُمْ عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحْلَلْتُ لهم** »)[1].

إن حجم التشوهات الحاصلة في إنسان هذا العصر البئيس، وما عليه من

(١) تفسير ابن كثير (١/٥٥٧)

انحرافات تمتد من العقائد والتصورات والمفاهيم، إلى الممارسات والتصرفات والأخلاق، وسائر ضروب الأذواق؛ لتبينَ عن عمق التشوه الذي أصابه في فطرته التي فطره الله عليها، بما هو إنسان.

إن خطورة التشوهات المعاصرة أنها قد عمت بها البلوى، بصورة توهم الأجيال أنها هي الوضع الطبيعي للإنسان! وأن الشذوذ والانحراف إنما هو في عكسها.

لقد تدفق سيل الفساد على خلايا الروح المشكلة للفطرة الناطقة، حتى صار من الصعوبة جدًا أن تجد من نجا من آثار هذا الخراب الروحي الرهيب، إذ امتدت التشوهات الروحية، والاختلالات التصورية، والانحرافات السلوكية، حتى إلى كثير من الشرائح العاملة في إطار الحركة الإسلامية نفسها إلا قليلًا. وكانت المأساة أن بعض مَنْ يعرض نفسه على أنه حامل الدواء - للنفس وللمجتمع - هو ذاته يعاني من الداء! الداء الذي يزعم أنه يملك علاجه، لقد تسرب المرض إلى كثير من البدهيات الدينية في تصورات (الحركة الإصلاحية) المعاصرة، بصورة خفية، قد لا تخطر على بال؛ بما جعل محاولة إقناعها بمراجعة ذلك في أدبياتها ضربًا من العبث! وجعلها تعتقد جهلًا بأن ما هي عليه من فهوم ومقولات، هو عين الحق القاطع لكل جدل عقيم.

إن صدمة الطبيب عندما يكتشف أنه هو نفسه مريض، تكون أشد عليه من أي صدمة أخرى مما يجعله - في بعض الأحيان - يرفض عرض نفسه على زميل له، ولو على سبيل الاستشارة فيتمادى في طمس حقيقة مرضه، والدخول في علاجات فردية غير مجدية؛ إيهامًا لنفسه وخداعًا لها، مصرًّا على عدم الاعتراف بالواقع حتى يكون من الهالكين.

إن طبيعة المرض اليوم في الحياة الإسلامية العامة والخاصة، أعمق من أن تعالجه يد بشرية قاصرة، لا خبرة لها ولا اختصاص، إن اختلال سر الفطرة في الإنسان اليوم في حاجة ماسة إلى تدخل الرحمة الإلهية، بما تملك من معاني الربوبية وشؤونها العظمى، المحيطة بأسرار الملك والملكوت، فلا يستطيع إصلاح الفطرة البشرية اليوم، وإعادة تسويتها على أصل خلقتها، إلا الذي فطرها أول مرة؛ الرب العليم بطبيعة تكوينها، وخصائص تركيبها؛ بما خلق فيها من لطائف وأسرار، فهو وحده الخالق، وهو وحده

من يملك حق الصيانة والرعاية. ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ﴾ [الزمر: ٦٢].

ومن هنا كان خطاب الوحي - بما هو خطاب الفطرة حقًّا - هو وحده المؤهل لإصلاح العطب الحاصل في محركات العمل الإسلامي المعاصر، والقادر على ترشيد السير وتصويب الاتجاه، وضبط بوصلة المقاصد والغايات، وإعادة ترتيب سلم الأولويات، كما أنه هو وحده المؤهَّل لإعادة تسوية ملامح الصورة الفطرية في النفس الإنسانية على العموم.

إن اشتغال العمل الإصلاحي بإعادة بناء العمران الروحي للفطرة الإنسانية، مؤدٍّ بالضرورة إلى إعادة تجديد العمران الاجتماعي والمادي للحياة الإنسانية برمتها، سياسةً واقتصادًا واجتماعًا؛ إذ ذلك هو المنهاج القرآني الذي سلكه رسول الله ﷺ طيلة مدة بعثته الشامخة، بما استقرت عليه من كل وظائف النبوة، تلاوةً وتزكيةً وتعليمًا.

وإذا صح للعمل الإسلامي هذا، وجب أن يضبط الوسيلة الأساس، ألا وهي اعتماد خطاب الوحي لا غير، القرآن الكريم وبياناته النبوية. فالقرآن بما هو كلام رب العالمين، المرسل لهذه الوظيفة أساسًا، هو المؤهل وحده لإعادة بناء هذا النوع من الهدم والردم، الحاصل في الحياة البشرية اليوم، كما وصفنا وشخصنا. ولك أن تتدبر قوله تعالى في بيان طبيعة القرآن: ﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [الفرقان: ٦]. وقال في خصوص وظيفته: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ۝ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣]

فإذا صح الأمران معًا - الهدف والوسيلة تشخيصًا وعلاجًا - ثم شرع أبناء العمل الإسلامي فعلًا في تطبيق « المنهاج القرآني الفطري »، كانوا هم أول من يخضع لعملياته الجراحية، من حيث يشعرون أولًا يشعرون؛ لأن الوحي لا يصل إلى الناس إلا بعد أن تشتعل بحرارته قلوبُ الدعاة إليه، وتلتهب هي ذاتها بحقائقه، وتتوهج بخطابه، فلا نور ولا اشتعال إلا باحتراق. ولك أن تتدبر معاناة محمد بن عبد الله، ومكابدته للقرآن العظيم كيف كانت، وليس عبثًا أن يرسل ﷺ هذا

الشعور العميق نفسًا لاهثًا بين يدي أصحابه الكرام، قائلًا لهم «شيبتني هُود وأخواتُها!»[١].

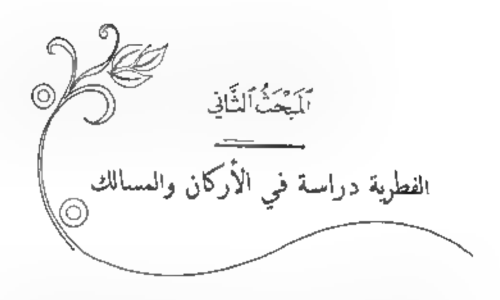
فشعور الداعية بأنه هو عينه قد صار موضوعًا للإصلاح، لا آلة له فحسب، وبأن نفسه ذاتها قد صارت حديقة لمقص القرآن، يشتغل فيها بالتهذيب والتشذيب، وتربة لمائه الصافي الرقراق تتلقاه بشغف وشوق، ومصباحًا لزيته الوهاج تحترق به مواجيدها توهجًا واشتعالًا، كل ذلك علامة على أنه قد دخل في أول خطوات العمل الإسلامي السليم، وانخرط في مسلك السير العملي إلى الله، عبدًا لله أولًا، ثم داعيًا إليه بصدقٍ، جلّ علاه. ذلك هو الحق إن شاء الله، وإلّا ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس: ٣٢].

فقضية الفطرة إذن، هي قضية الدين في هذا العصر، وهي قضية الإنسان، ومن هنا كانت الفطريةُ مشروعًا دعويًا قائمًا على هذا المعنى، يحمل رسالته التربوية هدفًا ووسيلةً.

هذا، وبعد استقراء مواردها في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، ثم تشخيص أدوائها وتشوهاتها في عصرنا هذا، جعلنا لها – لتيسير الاشتغال بها – أدوات منهجية، نعرضها في مجموعة من المفاهيم القرآنية، تشكل جهازًا تربويًا متكاملًا، هو مسمى «الفطرية» أو «المنهاج الفطري» في القرآن.

* * *

(١) رواه الترمذي والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع.



المَبْحَثُ الثَّانِي

الفطرية دراسة في الأركان والمسالك

الفِطْرِيَّةُ: مصدر صناعي أحدثناه من الفطرة، وهو دالٌّ بمصدريته تلك على معنى دعوي؛ أي على «فِعْلٍ» واقع في الفطرة ومن أجلها، سواء في النفس أو في المجتمع. ومن هنا شكَّلْنَاهُ مصطلحًا نعبر به عن مشروع دعوي عام، وعن تصور كلي للعمل الإسلامي، نرجو أن يوفقنا الله إليه، وهو ما نتوسل إلى محاولة ضبطه - في هذه الورقات - بمسمى الفطرية.

ولذلك جعلنا لها حَدًّا، وستةَ أركانٍ، وثلاثةَ مَسالِكَ.

فأمَّا حَدُّهَا فهو:

إِقَامَةُ الوَجْهِ للدِّينِ حَنِيفًا، خَالِصًا للهِ؛ وذلك بِمُكَابَدَةِ القُرْآنِ ومُجَاهَدَةِ النَّفْسِ به تَلَقِّيًا وبلاغًا، قَصْدَ إِخْرَاجِهَا مِنْ تَشَوُّهَاتِ الهَوَى إلى هُدَى الدِّينِ القَيِّمِ، ومِنْ ظُلُمَاتِ الضَّلالِ إلى نُورِ العِلْمِ باللهِ.

فبناءً على هذا التعريف؛ تكون «الفِطْرِيَّةُ» بمثابة عملية إصلاحية وجدانية، تقوم أساسًا على تصحيح ما فسد من فطرة الإنسان، المجبول أصلًا على إخلاص التوحيد، وإصلاح ما أصابها من تشوهات تصورية وسلوكية، في شتى امتداداتها العمرانية.

ذلك مقتضى الآيات - عِبارةً وإشارةً وسياقًا - من قوله تعالى، الجامع المانع في هذا المعنى العظيم، وهو النص القرآني الفريد الذي أوردناه من قبل، من قوله تعالى:

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٩ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ

ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٢٩ - ٣٢].

وهي دائرة من حيث المنهج على تلقي رسالات القرآن، من خلال تلقي آياته كلمةً كلمةً، ومكابدة حقائقه الإيمانية مَنْزِلَةً مَنْزِلَةً؛ إذ لا تَخَلُّقَ للنفس إلا بمعاناة، ولا تخلص لها من أهوائها إلا بمجاهدة، فالقرآن هو خطاب الفطرة، من حيث هي راجعة إلى « إقامة الوجه للدين » ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ ﴾ [الروم: ٣٠] وقد كان ذلك - منذ كان - بتلقي آيات القرآن، وما تجدد قط في التاريخ إلا بتجديد التلقي لها، بناءً وتربيةً وتثبيتًا، على مُكْثٍ من الزمان.

ذلك هو المنهج الدعوي الأصيل الذي يصرح به القرآن ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةًۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢]. ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦]. وتلك هي الحكمة الأولى من تنجيم القرآن على مدى ثلاث وعشرين سنة فإما أن نستقيم الدعوة والتربية على هدى القرآن؛ وإلا فلا تَخَلُّقَ ولا تَحَقُّقَ، ثم لا صَلاحَ وإصْلاح.

ومن هنا كان مدار التربية الفِطْرِيَّةِ ومحورها الأساس، إنما هو كتاب الله جلَّ علاه؛ إذْ هو كتاب الفطرة الذي عليه استقامت يوم قامت، وعليه يجب أن تستقيم كلما انحرف بها المسار، ولا يكون ذلك إلا بأن تستأنف تلقي حقائقه الإيمانية مرة أخرى، وتتغذَّى من روحه العظيم، تخلقًا وتحققًا، ثم تشتغل ببلاغ ما تلقته بالمنهج نفسه - أعني تخلقًا وتحققًا - أي بتلقين ذلك للآخرين عبر مجالس القرآن، التي هي المحاضن التربوية للفطرية، وأحد أهم مسالكها الإصلاحية.

ذلك أنه قد تقرر بنصوص القرآن وبما تواتر من سنة النبي العدنان - عليه أفضل الصلاة والسلام - أن الصلاح والإصلاح لا يكونان - على الوجه الحقيقي - إلا عبر مسلك القرآن، وأن من لم يكابد القرآن لم يذق حلاوة الإيمان، وأن من لم يعانِ وقع الفرقان على الوجدان لم يجد أشواق الجنان، ولا رَهَبَ النيران، وأن من حُرِمَ ذلك كله لم يذق معنى محبة الرحمن.

فأي دعوة تكون أم أي داعية، إذا كان فؤاده فارغًا من هذه الحقائق والمعاني؟ شاردًا عنها في تيه شقشقات الكلام، ومهاترات الجدل والخصام؟ ولا هو كان ممن اتخذ نفسه مسلكًا إلى الله عبر ربانية القرآن؟ وكيف لا؟ وها الرحمن - جل علاه - يبين الطريق للعباد - بما لا يدع مجالا للشك ولا للتردد - بقوله الواضح الصريح: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]، ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠]. وختم سورة النمل ببيان هذا المنهج الرباني الفريد، فقال على لسان رسوله ﷺ ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩١ - ٩٣]

والمصطلح المفتاح لمنهج التعامل مع القرآن، في مدرسة « الفطرية »، هو مصطلح « التلقي »؛ لأن التربية القرآنية في مجالس القرآن لا تكون إلا بتلقي الرسالات الكامنة في الآيات، تلك الرسالات هي التي تتضمن حقائق الإيمان المقصودة بالتخلق والتحقق، في طريق الدعوة والسير إلى الله صلاحًا وإصلاحًا.

فمن قرأ سورة الإخلاص ولم يتخلق بالإخلاص، ولا هو تحقق به، فمعناه أنه لم يتلقَّ سورة الإخلاص، ولا هو ممن تلاها حقًّا، ولو ظل يرددها آلاف المرات! ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢١]. وكذلك من قرأ المعوذتين ولم يتحقق بما فيهما من أمان، ولا نزلت عليه سكينتهما، فإنه لم يتلق شيئًا من السورتين، ومن قرأ سورة الفاتحة ولم يجد نفسه قد تحقق بالحمد، ثم تدرج بمدارج « إياك نعبد وإياك نستعين » ؛ طلبًا لهداية الرضى والتثبيت، فإنه لم يتلق الفاتحة بعد!

وإنما يكون « التلقي للقرآن » - بما بيناه في كتيب « مجالس القرآن » - من حيث استقبال القلب للوحي على سبيل الذِّكْر. وبيانه هو كما يلي:

(كثيرون هم أولئك الناس الذين يتلون القرآن اليوم، أو يستمعون له على الإجمال، على أشكال وأعراض مختلفة، ولكن قليل منهم من (يَتَلَقَّى) القرآن!

وإنما يؤتي القرآنُ ثمرَ الذكر حقيقةً لمن تَلَقَّاهُ. وإنما كان رسول الله ﷺ يتلقى القرآن من ربه. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل ٦]. ولا يزال القرآن معروضًا لمن يتلقاه، وليس لمن يتلوه ظاهرًا فقط.

وأما تلقي القرآن فهو استقبال القلب للوحي؛ إما على سبيل النبوة، كما هو الشأن بالنسبة للرسول ﷺ، على نحو ما سبق في قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل ٦]. ونحو قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [القصص ٨٦]. حيث أُلقيَ الله عليه القرآن بهذا المعنى، كما فسره الراغب الأصفهاني من قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل ٥]. قال رحمه الله: « إشارة إلى ما حُمِّلَ من النبوة والوحي »[1].

وإما أن يكون (تلقي القرآن) بمعنى: استقبال القلب للوحي، على سبيل الذِّكْر.

وهو عام في كل مؤمن أخذ القرآن بمنهج التلقي؛ فذلك المنهج هو الذي به تنبعث حياة القلوب؛ لأنها تتلقى آنئذ القرآن (روحًا) من لدن الرحمن. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى ٥٢].

و (تلقي القرآن) بمعنى استقبال القلب للوحي، على سبيل الذِّكْر؛ إنما يكون بحيث يتعامل معه العبد بصورة شهودية؛ أي كأنما هو يشهد تنزله الآن غضًّا طريًّا، فيتدبره آيةً آيةً، باعتبار أنها تنزلت عليه لتخاطبه هو في نفسه ووجدانه، فتبعث قلبه حيًّا في عصره وزمانه، ومن هنا وصف الله تعالى العبد الذي (يتلقى القرآن) بهذا المعنى: بأنه (يُلْقِي) له السمع بشهود القلب. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق ٣٧] ذلك هو الذاكر بالقرآن حقًّا، الذي يُحَصِّلُ ثمرة الذكرى ولا يكون من الغافلين.

---

(١) المفردات، مادة (لقي).

فأن تتلقى القرآن: معناه إذن؛ أن تصغي إلى الله يخاطبك، فتبصر حقائق الآيات وهي تتنزل على قلبك روحًا، وبهذا تقع اليقظة والتذكر، ثم يقع التَّخَلُّق بالقرآن، على نحو ما هو مذكور في وصف رسول الله ﷺ، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، لما سئلت عن خُلُقِه - عليه الصلاة والسلام - فقالت: « كان خُلُقُهُ القرآنَ! »[1].

وأنْ تتلقى القرآن معناه أيضًا أن تتنزل الآيات على موطن الحاجة من قلبك ووجدانك، كما يتنزل الدواء على موضع الداء، فآدم عليه السلام لما أكل هو وزوجه من الشجرة المحرمة؛ ظهرت عليهما أمارة الغواية؛ بسقوط لباس الجنة عن جسديهما، فظل آدم عليه السلام كئيبًا حزينًا. قال تعالى: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ [طه ١٢١]. ولم يزل كذلك حتى (تلقَّى) كلمات التوبة من ربه فتاب عليه؛ فكانت له بذلك شفاءً، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة ٣٧]. فهو عليه السلام كان في حاجة شديدة إلى شيء يفعله أو يقوله؛ ليتوب إلى الله، لكنه لا يدري كيف؟ فأنزل الله عليه برحمته تعالى كلمات التوبة؛ ليتوب بها هو وزوجه إلى الله تعالى وهي كما يقول المفسرون قوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف ٢٣] فبمجرد ما أن تنزلت الآيات على موطن الحاجة من قلبه؛ حتى نطقت بها الجوارح والأشواق؛ فكانت له التوبة خُلُقًا إلى يوم القيامة، وكان آدم عليه السلام بهذا أول التوابين، وذلك بأخذه كلمات التوبة من ربه على سبيل (التلقي). ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ [البقرة ٣٧]

فعندما تقرأ القرآن إذن؛ استمع وأنصت! فإن الله عز وجل يخاطبك أنت! وادخل بوجدانك مشاهد القرآن، فإنك في ضيافة الرحمن، هناك حيث ترى من المشاهد ما (لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!)[2] وبذلك تخرج إلى الناس في هذا العصر العصيب - بكل تعقيداته وظلماته - تحمل رسالة القرآن، كما حمل موسى عليه السلام من قبل عصاه، فتُلقي آياتها كلمةً كلمةً على سِحْرِ الشهوات

(١) رواه مسلم.

(٢) مجالس القرآن (٣٧ - ٤٠)؛ بتصرف يسير

والشبهات، وعلى سائر الأهواء والأدواء. ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ۝ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۝ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٧ - ١٢١].

نعم، ذلك هو فعل القرآن في هذا الزمان، على النفس وعلى المجتمع، كما كان في كل زمان، لكن لمن تلاه حق تلاوته.

بهذا المنهج إذن تتلقى عزيمتُك رسالةَ الكلمات، فتشعر بمعاناتها، ويتلقى قلبُك هدايةَ الآيات، فتشعر بمكابداتها، وتجد نفسَك أنك تترقى حقيقة بمدارج الإيمان، تشاهد ذلك وتبصره، فلا يمضي عليها إلا وقت وجيز حتى تراها - بإذن الله - قد تحولت إلى منزلة أعلى من منازل الصلاح والإصلاح؛ فتتحول المعاناة إلى لذة، وتصير المكابدة إلى حلاوة، ويصير الخوف إلى أمان، وإنما الموفَّق من وفقه الله.

تلك هي الفطرية، وذلك هو منهاجها لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلًا.

وأما أركانها فستة:

هي مصطلحاتها المفتاحية - وهي:

١ - الإخلاصُ مجاهدة.

٢ - الأجرةُ غاية.

٣ - القرآنُ مدرسة.

٤ - الربانيةُ برنامجًا

٥ - العلمُ طريقة

٦ - الحكمةُ صبغة

فأما الركن الأول، وهو: الإخلاصُ مجاهدة:

فهو فَصُّ الفطرية، ومُخُّها الذي تنطوي عليه، بما هي محاولة لإعادة بناء النفس على ما بنيت عليه أول ما خلقت، وقد كان أول بنائها على الفطرة، وقد سبق أن أصل الفطرة الإنسانية إنما هو إخلاص التوحيد لله رب العالمين، فكان مدارُ الفطرية - دعوةً وتربيةً - إنما هو على إفراد الله ﷻ بالعبودية، وحده دون سواه، ونبذ سائر

ضروب الشرك والشركاء، ظاهرًا وباطنًا. فسائر الأعمال والعبادات في الإسلام إنما هي خادمة لهذا الركن الركين، وفروع لهذا الأصل العظيم، هو غايتها، وهو مقياس صحتها وفسادها؛ ولذلك وجب أن يُجعل الإخلاص - كما جعله الله في كتابه، وبيّنَهُ الرسولُ في مناهجه - مدار الدين والدعوة جميعًا، وإلا صار العمل الإسلامي كله إلى انحراف وضلال!

إلا أن إخلاص التوحيد ليس مجرد معلومات تُلقَّن، ولا منظومات تُستظهر، بل هو حقيقةٌ إيمانيةٌ عظمى، وخُلُقٌ قرآني عميق، لا يُنال إلا بمجاهدة ومكابدة؛ ولذلك قيدنا ركنيته ببيان طريقة التحقق به؛ بقولنا: « الإخلاصُ مجاهدةً »؛ إذ مقتضاه راجع إلى معنى السير إلى الله على طريق الفناء في طاعته؛ لتحقيق خالص العبدية له وحده جل علاه، حتى لا يبقى منك شيء لسواه، فتجعل كل رغائبك وكل أهوائك وكل دوافعك، الظاهرة والباطنة، فانية في قصده هو ﷺ، حتى يتحقق لك دوام الشهود لعبديتك الكاملة له، فلا تكون في شيء من عبادتك وعاداتك إلا بالله وله. ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

هذا هو المقصد الأساس من المدرسة القرآنية، والغاية الكبرى لبرنامج الربانية، والجامع المانع لمفهوم الفطرية. فمن أراد الإخلاص حقيقةً، وجب أن يتحقق بطريقة التحلي بمقامه، ومعراج الرقي إلى مرتبته، وإلا كان ممن يتمنى على الله الأماني، وليس لذلك دون مكابدة القرآن ومجاهدة النفس به من سبيل، وإنما الموفق من وفقه الله.

وأما الركن الثاني، وهو: الآخرةُ غايةً.

فهو ميزان الداعية المؤمن لتقويم صفاء دينه، وبوصلته لضبط مسار دعوته، وما ارتبط شيء في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ كما ارتبط ركن الإيمان بالله بركن الإيمان باليوم الآخر على نحو ما في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [البقرة: ٢٣٢]. وهو في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصى؛ إذ الإيمان بالآخرة هو حادي العبد إلى تحقيق مرتبة الإخلاص في إيمانه بالله جل علاه؛ ولذلك كان هذا البيان النبوي العجيب في رسم طريق الآخرة للمؤمنين، قال عليه الصلاة والسلام: « **مَنْ كانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جعَلَ اللهُ غناهُ في قَلْبِه، وجمعَ له**

شملَه، وأتته الدنيا وهي راغمةٌ! ومَن كانَتِ الدُّنيا هَمَّهُ جعلَ اللَّهُ فقرهُ بين عينيه وفرّقَ عليه شَمْلَهُ! ولم يأْتِهِ مِنَ الدُّنيا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ »[1].

فالحضور الأخروي الدائم في وجدان المؤمن يجعله آمنًا من فتن الشهوات، ومن بريق الإغراءات، التي تفسد الدعوات وتدمر الحركات، وعدم العض على هذا المعنى العظيم في الإسلام بالنواجد مُلْقٍ بامرء - أنى كان موقعه الحركي في العلم والعمل - إلى متاهات الضلال؛ ذلك أن قضية الحياة الآخرة هي جوهر العقيدة الإسلامية، ومآل العالم الوجودي كله ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت ٦٤].

وأحسب أن هذه الحقيقة العظمى لَمِمَّا ينبغي لكثير من الحركات الإسلامية، أن تراجع تصوراتها، وبرامجها، وأولوياتها، على ميزانها؛ وذلك لِمَا شاهدناه لدى بعضها من انحراف عن وعد جنة الآخرة إلى وعد جنة الأرض في سياق التنافس المحموم مع الحركات اليسارية والأحزاب العلمانية، وإنما المؤمن الصادق بهذا الدين - بله الداعية إليه - رجلٌ أخروي بالقصد الأول. ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة ٣٨]

وتتميز الفطرية بأنها تجعل لكل حقيقة من حقائق الدين ما جعله الله لها من الحجم والقَدْرِ، في الصورة الكلية للإسلام دينًا ودعوةً؛ لأن ذلك من خصائص الفطرة، ومن صفاتها الذاتية، كما هي الهيئة الأولى للدين، قبل أن يصيبها التغيير والتحريف، ومن هنا كان الركن الثاني من أركان الدعوة الفطرية: « الآخرةُ غايةٌ »، وقيّدناه بالغاية؛ حتى لا يبقى هذا المعنى حبيس التصورات النظرية في الجدل الكلامي، بل ليصبح هدفًا محددًا، واضحًا، لكل عمل إسلامي يُرْجَى به نيلُ رضا الله، والفوز بالنعيم المقيم في جنات الخلد، والنجاة من عذاب الجحيم، ألا جعلني الله وإياك يا صاح من الفائزين بنعمته، الداخلين في رحمته. ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء ٨٨، ٨٩].

(١) أخرجه الترمذي عن أنس مرفوعًا. وصححه الألباني، حديث رقم (٦٥١٠) في صحيح الجامع

وأما الركن الثالث، وهو: القرآنُ مدرسةً.

فهو الصبغة العامة للفطرية، بما هي قائمة أساسًا على تلقي رسالات القرآن، سواء عبر برامج الربانية أو عبر مجالس القرآن. وقد تبين ألا إمكان لإصلاح الفطرة الإنسانية إلا بالقرآن؛ لأنه إنما أُنزِلَ أساسًا لهذا القصد الرباني العظيم، فالقرآن - بما هو كلام خالق الإنسان، العليم بأسرار تكوينه - هو كتاب إصلاح الفطرة الإنسانية وصيانتها، ومن هنا كانت الفطرية مدرسة قرآنية بالدرجة الأولى [١].

وأما الركن الرابع، وهو: الربانيةُ برنامجًا.

فهو أحد مسالكها التربوية الرئيسة، الهادفة إلى تخريج طبقة الدعاة المربين، وهم طائفة الربانيين الحاملين لرسالة القرآن، المشتغلين بدعوته في الناس أجمعين، بما يقتضيه مفهوم الربانية من مقام إيماني عظيم، وفقه دعوي متين؛ ولذلك جعلنا لها برنامجًا قرآنيًا خاصًّا، استقريناه من مجموع الآيات الدالة على أخلاق الربانيين، وخصوص منازلهم الإيمانية، وما تقتضيه من العلم والحكمة، معزَّزًا بالبينات النبوية، الرامية إلى تخريج أئمة الهدى في الدين.

وأما الركن الخامس، وهو: العلمُ طريقةً

فهو راجع إلى كون العلوم الشرعية أساسًا، ومناهجها الاستدلالية والاجتهادية، وقواعدها النقدية والتأصيلية، هي المسلك الأساس لبناء علم الناس بالله وبدينه، عقيدةً، وشريعةً، وتربيةً وسلوكًا، فلا مكان في الفطرية للخرافية، ولا للأهوائية الشخصانية، ومن هنا وجب أن تحمل رسالات الفطرية، لكل المسلمين، الحد الأدنى من العلم الشرعي، الذي لا يُعبد الله إلا به، عقيدةً وشريعةً، وذلك هو المسمى عند العلماء بـ « المعلوم من الدين بالضرورة »، أو « ما لا يسعُ المسلمَ جهلُه »، ثم تحرص - في الوقت نفسه - بدعاء الشباب على تحقيق واجب الوقت، من التفرغ لطلب العلم الشرعي، بشروطه التخصصية؛ وذلك لمد الأمة بأجيال العلماء الربانيين، على ما بيناه في كتابنا « مفهوم العالمية » فذلك هدف إستراتيجي، وجب أن يكون عمودًا فقريًا، في كل مشروع دعوي، انتصب لتجديد الدين بصدق وبجدية. وما التوفيق إلا بالله.

---

(١) قد فصلت ذلك بما يكفي، فيما سبق من بيان، وكذا في مواطن تقديم برنامج الربانية ومفهوم مجالس القرآن، فلا داعي للإطالة

وأما الركن السادس، وهو: الحكمةُ صفةً:

فهو صمام الأمان لسير العمل الدعوي، وقد كان غياب الحكمة سببًا رئيسًا في هلاك كثير من الدعوات واندثارها، أو انحرافها، والحكمة في العمل الدعوي هي: « اتخاذ الإجراء المناسب، في الوقت المناسب، بالقَدْرِ المناسب » فهي إذن راجعة في النهاية – إلى كلمة واحدة جامعة هي: حُسْنُ التَّقْدِيرِ والتدبير.

ويُتَحَقَّقُ منها بأمرين، أحدهما كسبي والآخر وهبي. **فأما الكسبي** فهو: الفقه في الدين بمعناه المنهجي، وخاصة منه ما يسمى عند الأصوليين بفقه « تحقيق المناط في عامِّهِ وخاصِّه »[1]، ويدخل فيه فقه الأولويات وفقه الموازنات، وما يندرج فيهما من قواعد التدرج والتلطف والتترس.

وأما الوهبي فهو: راجع إلى التحلق بمقامات التقوى والورع، إذ هي سبب وضع المؤمن في منزلة التعرض لنفحات الله، التي تفتح البصائر وتنير السرائر، وهو معنى الفرقان في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال ٢٩].

وكذا قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وفي هذا السياق أسند الله تعالى فعل إيتاء الحكمة لنفسه تعالى؛ لنفي مطلق كسبيتها عن الإنسان، وهو قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة ٢٦٩].

وقد كان شيخ المقاصد أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله – بما فتح الله له من العلم والحكمة – من أمهر العلماء الربانيين فقهًا لهذه الحقائق وتعبيرًا عنها، بشقيها الكسبي والوهبي، وقد وردت عنه في ذلك إشراقات عجيبة، في نصوص شتى من كتابه الرائد الموافقات، ولنا أن نختار منها هذا النص الفريد، قال رحمه الله في وصف العالم الرباني الحكيم أنه « لا يَذْكُرُ للمبتدئ من العلم ما هو حظ المنتهي، بل يربي بصغار العلم قبل كباره، وقد فرض العلماء مسائل، مما لا يجوز الفتيا بها، وإن كانت

---

(١) انظر تفصيل ذلك – إذا تشاء – في كتاب الموافقات للشاطبي (٤/٩٧)

صحيحة في نظر الفقه، (...) وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة، فإن صحت في ميزانها؛ فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة؛ فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها، إما على العموم إن كانت مما تقبلها العقول على العموم، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم، وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ؛ فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية » [1] .

وهذه مرتبة من العلم الرباني، وجب على الداخل في مدرسة الفطرية أن يحرص على التحقق بأسبابها، والتحقق بشروطها؛ عسى أن يكون من أهلها، ولو على مستوى المنهج في المجال الدعوي، إن لم يكن من أهل الاختصاص الشرعي والاجتهاد الفقهي، ومدرسة القرآن بما هي مَشْرَبٌ رباني صافٍ، كفيلة بتحقيق ذلك للصادقين من طلابها، بما يجعل الحكمة - بإذن الله - صفة جوهرية في التصرفات الدعوية لأبنائها؛ ولذلك جعلنا الركن الأخير من أركانها (الحكمة صبغةً). كذلك، والله الموفق للخير والمعين عليه

تلك إذن هي أركان الفطرية الستة. ونحسب أن الدخول في برامجها القرآنية، من خلال مسالكها التربوية، كفيل بالتحقق التلقائي بها، ركنًا ركنًا، وإنما ذكرناها ههنا معزولة من باب ذكر المقاصد قبل الوسائل؛ حتى تكون لك عونًا على حسن تطبيق هذه. والله المستعان.

وأما المسالك التربوية للفطرية فثلاثة، وهي:

١ - مجالس القرآن لتلقّي حقائق الإيمان، والتحقق بمقتضياتها.

٢ - بلاغ رسالات الله بدعوة الناس إليه.

٣ - رباطات الفطرية، بما تتضمنه من صلوات وأوراد معنوية؛ للتغذية الفردية [2] .

---

(١) الموافقات: (١٩٠/٤، ١٩١)

(٢) جعلنا ذلك فيما كتبنا من قبل - بكتابنا بلاغ الرسالة القرآنية - في ثلاث خطوات، بصيغة (اغتنام المجالسات، والتزام الرباطات، وتبليغ الرسالات) وكان الكلام عن « الرباطات » مقصورًا على التزام المسجد، لكننا توسعنا هاهنا بجعلها متنوعة بأعمال أخرى من أوراد الفطرة الضرورية للمؤمن فعلًا وتركًا، على ما يقتضيه قوله تعالى: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وبالله تعالى التوفيق

وبيان ذلك هو كما يلي.

المسالك التربوية للفطرية:

المسالكُ التربويةُ لتجديدِ بناءِ الفطرة، هي: مجموعة من المسالك التعبدية التي تقود العبد إلى الله، فتُقَوِّمُ مَا شَاهَ من أخلاقه وطباعه، وتُصلح ما فسد من مزاجه وأفكاره؛ ليستقيم على خالص فطرته، وصفاء سريرته، عبدًا خالصًا لله، ثم ترتقي به عبر مدارج الربانية، إلى أن يتحلّق بِمَقَامِ الصِّدِّيقِيَّةِ - إن شاء الله - ويتحقَّق به.

وهي ثلاثة مسالك، نوردها كما يلي.

المسلك الأول: الدخول في مجالس القرآن:

وهي مجالس تربوية لِتَلَقِّي آيات القرآن، والتخلق بأخلاقها وبحقائقها الإيمانية، والتحقق بها، تعلمًا وتعليمًا، وتدبرًا ومدارسةً، وهي تقوم على وظائف النبوة الثلاث، التي هي

١ - التلاوة بمنهج التلقي.

٢ - التزكية بمنهج التدبر.

٣ - تعليم الكتاب والحكمة بمنهج التدارس [١].

ويستعان على إعداد القلب وتهيئته للتلقي بقيام الليل، ولك أن تختار لنفسك ليلة - على حسب ظروف عملك - تقوم فيها بنحو مائة آية من القرآن [٢]، مرة كل أسبوع على الأقل، عسى أن يصير ذلك لك عادةً يومية، تتنقل خلالها عبر منازل القرآن، وإذا أمكن أن نتحدث - في بداية الطريق - عن «تحقيق المناط التربوي»؛ فإنه يحسن الإكثار من القيام بسورة الفرقان في الركعة الأولى، وبسورة الحديد في الركعة الثانية، أو بسورة الملك؛ وذلك لما لهذه السور وأمثالها من ترياق عظيم لأمراض هذا العصر العصيب.

كما يحسن أن تكون سورةُ الفرقان خاصة، مما يُبدأ بتعلمه من القرآن الكريم، حفظًا

(١) قد بينا ذلك مفصلًا في كتيب «مجالس القرآن» (٣٥ - ٤٤)

(٢) قال رسول الله ﷺ: «من قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كُتِبَ من القانتين، ومن قام بألف آية كُتِبَ من المقنطرين» رواه أبو داود وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير

ومدارسةً وتدبرًا؛ لأنها باب عظيم من أبواب القرآن، ومدخل فسيح من مداخله الكبرى، مَنْ تَخلَّقَ بحقائقها الإيمانية، وتحقق بمارتها الربانية؛ نال من كنوزه الوفيرة فضلا عظيما؛ إذ فيها من الأسرار العَجَبُ العُجَابُ، عيونًا تتدفق بالأنوار واللطائف والبركات، من بدايتها إلى نهايتها؛ مما يكفي السالك ويُمَكِّنُهُ - بعد تحققه بأخلاقها وتحققه بمارها - أن يلج إلى مسالك القرآن جميعها ويكون من (عباد الرحمن) حقيقةً [١]

ويلحق بهذا المسلك فرع أصيل، وهو مجالس قرآنية لتخريج الدعاة القائمين على مجالس القرآن في الناس، والمؤطرين لها، يعتمدون فيه برنامجًا تربويًا خاصًا، منتقى من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، وهو:

برنامج الربانية لتخريج الدعاة

إن الربانية: هي مرتبة الإمامة في مجاهدة النفس بالقرآن، على الالتزام بحقائقه الإيمانية، والتحقق بحِكْمَتِهِ الرحمانية؛ إخلاصًا لله أولًا؛ حتى تفنى في دعوتها عن كل حظوظها، فلا يقوم شيء منها إلا لله وبه، ثم شهادةً بذلك على الناس، تربيةً ودعوةً، ثم صبرًا واحتسابًا.

والربانيون هم الأمناء على هذا المنهاج الدعوي، والقائمون به في المجتمع، والحاملون رسالته، تربيةً ودعوةً، على ما قرره القرآن الكريم في غير ما آية، من مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران ٧٩] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ

---

(١) يكفيك من ذلك إشارةً أنَّ اسمها هو أحد أهم أسماء القرآن! ولا سورة سميت بمثل اسمها، مع أن أسماء القرآن الواردة بنصه كثير. ثم إن موقعها منفتح على أواسط القرآن؛ وبذلك فهي تدخل مصاحبها إلى ساحاته وباحاته؛ وتفضي به إلى معارجه ومقاصده، ومن هنا كانت آياتها كلها تدور على محاور القرآن الكبرى، بدءًا بأصول الإيمان وحقيقة التوحيد والإخلاص، ودلائل النبوة، وحقائق البعث ومشاهد القيامة، والوعد والوعيد وموازين العدل، وعبر القصص، ثم حكم التشريع وجماله؛ وبذلك كانت خاتمتها تُجمل من ثمار الإيمان ومدارجه ما يرتقي بالعبد إلى منازل الأولياء والصِّدِّيقين. وما التوفيق إلا بالله.

ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وكذا قوله سبحانه: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ٦٣].

وقد أورد الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه قولًا تفسيريًّا لابن عبّاس رضي الله عنهما قال: (« كُونُوا رَبَّانِيِّينَ » : حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ). وقال الإمام البخاري بعد ذلك شارحًا: « وَيُقَالُ: الرَّبَّانِيُّ: الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ » [(١)]

ومن هنا فالأمة في حاجة ماسة إلى تخريج طائفة عريضة من هذه النماذج الدعوية، وبثهم في كل منطقة وقطاع؛ للقيام بدور تجديد الدين، على موازين العلم والحكمة [(٢)] .

المسلك الثاني: بلاغ الرسالات.

وهو راجع إلى واجب الالتزام الدعوي للإنسان المسلم، وذلك لِمَا تعلق به من أهم صفات ما انتسب إليه من الإسلام: « الرسالية ». قال ﷺ في أمر مطلق لكل الأمة: « **بلّغوا عني و لو آيةً** » [(٣)] . ومن هنا كان المجتمع الإسلامي كله جماعة دعوية بطبيعته، وحياة إصلاحية بفطرته، إنه مذ أعلن أنَّ محمدًا رسول الله، تقلد - بمقتضى عقيدة الاتباع - مهمة الدعوة إلى الله، فليس عبثًا أن يحض النبي ﷺ - بكل وسائل التحريض والتشجيع - على الدعوة إلى الخير والهدى، كما في قوله: « **فوَاللَّه لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ** » [(٤)]

ومن هنا شهادة الله بالخيرية لهذه الأمة، في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾ [آل عمران: ١١٠]. إنها صفة عامة في كل من أسلم لله الواحد القهار، كل ينال منها على قدر طاقته ومسؤوليته

لكن لا بد من بيان أن البلاغ اليوم في المسلمين ليس بلاغ (خبر) هذا الدين.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل.

(٢) قد أوردنا بعض المعالم المنهجية؛ لتكوين شخصية الداعية الرباني، في تمهيد « برنامج الربانية ».

(٣) أخرجه البخاري. (٤) متفق عليه.

فذلك أمر قام به الأولون، وما بقي اليوم صقع في الأرض لم تبلغه قصة الرسالة الإسلامية، على الجملة، وإنما المسلمون اليوم في حاجة إلى « إبصار » إبصار الحقائق القرآنية التي تتلى عليهم صباح مساء، وهم عنها عمون، على نحو ما وصف الله سبحانه في قوله: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨]، وقوله سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥]. فالبلاغ الذي نحن في حاجة إليه إنما هو بلاغ التبصير، لا بلاغ التخبير.

وأما مادته فما ذكرناه من أصول الرسالة القرآنية، وبلاغات القرآن (١). من اكتشاف القرآن العظيم، والتعرف إلى الله والتعريف به، واكتشاف الحياة الآخرة، واكتشاف روح الصلوات وحفظ الأوقات، وحقيقة الدعوة إلى الخير، وحكمة اتباع السنة؛ تزكيةً وتعلمًا وتحلمًا، ومفاتيح ذلك كله في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ. وتلك هي وظيفة مجالس القرآن.

ومعلوم أن من أهم الوسائل الدعوية ذات الأثر العميق، خاصة في هذا العصر، إنما هي تأسيس « مجالس القرآن » كما وصفنا وبينا، وتكثير حِلَقها وسوادها في الأمة؛ حتى تصبح جزءًا أساسيًّا من حركة النسيج الاجتماعي العام، وتلون كل شرائحه الاجتماعية، على اختلاف طبقاتها وقطاعاتها، فالداعية المسلم يدعو إلى الله كلَّ الناس، وفي كل مناسبة، ومن على كل منبر، لكن « مجلس القرآن » في النهاية، هو أساس التزكية والتعليم، ومحضن التربية والتكوين، وضمان السير إلى الله، ومن هنا كان مسلك « بلاغ الرسالات » إنما يتم بالرجوع إلى مسلك « مجالس القرآن » تأسيسًا وتوسيعًا.

المسلك الثالث: رِبَاطُ الفِطْرِيَّة

(بما يتضمنه من صلوات وأوراد فطرية؛ للتغذية الفردية، وما يلزم عن ذلك كله من فعل الصالحات وترك الموبقات).

فرباط الفطرية: هو أعمال واجبات، وتروك لازمات، وأذكار مندوبات، مما صح أن الرسول ﷺ التزمه وداوم عليه، فالرباط الفطري هو معراج المؤمن الدائم إلى الله،

(١) هو عنوان كتابنا « بلاغ الرسالة القرآنية ».

وحصنه المنيع من كل فتنة أو آفة؛ ولذلك فهو يتضمن بالأساس، أعمالًا واجبةً وأخرى محرمةً - من المعلوم من الدين بالضرورة - يلتزمها المؤمن فعلًا وتركًا أبدًا، على أنها أذكار معنوية تُذَكِّرُهُ أبدًا بالله؛ إذْ لا يصح سيره إلى الله إلا بها، كما سترى بحوله إن شاء الله، والغايةُ منه إنما هي إصلاح صورة النفس بتهذيبها وتشذيبها، وكذا تزكيتها بتغذية لطائفها؛ حتى تعود إلى أصل فِطْرَتِهَا.

وقد سمى رسول الله ﷺ الاشتغال بالصلوات الخمس، وبكل ما تعلق بها من وضوء، ومشي إلى المساجد، وما انبنى عن ذلك كله من سوابق ولواحق من الاستعدادات والعبادات: « رِبَاطًا » - ففي الحديث الصحيح من رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟** قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: **إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ! فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ! فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ!** » (١)

فكون الصلاة والاشتغال بمقدماتها وتوابعها « رباطًا »، بهذا الشمول التربوي الجامع، إنما هو باعتبارها صلةً للعبد بربه، وعاصمًا له من الزلات والغفلات فهي لذلك فعل وترك، وهي ذكر دائم لله، فذلك هو « الرباط »، وتلك هي غاية كل فعل تربوي في الإسلام؛ ولذلك كانت الصلاة أعظم شعيرة عملية في الدين، فهي أم الالتزامات والأوراد، وأساس كل الأذكار اللفظية والمعنوية جميعًا، فالصلاة إذا تحقق بها العبد صدقًا، وتخلق بمقاصدها الشرعية حقًّا - كانت عبادة جامعة مانعة، واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وصدق رسول الله ﷺ: « **فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ! فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ! فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ!** »

ومن هنا فإننا لم نعتمد في هذا المسلك سوى منهاج السنة النبوية الصحيحة، التي اشتغلت - في مجال إصلاح النفس - بالمعاني أساسًا؛ حيث **إنَّ الذِّكر على نوعين، هما: الذِّكْرُ العَدَدِيُّ والذِّكْرُ المَعْنَوِيُّ.**

---

(١) رواه مالك في موطئه ومسلم في صحيحه، كما رواه أحمد والترمذي والنسائي.

فالعددي: هو الذي يرهن فيه المسلم نفسه بأعداد هائلة من الأذكار، تسبيحًا وتهليلًا واستغفارًا... إلخ، بلوغًا إلى «الآلاف»! وعلى هذا كان أغلب طرق الصوفية من المتأخرين خاصة، وتلك طريق طويلة محفوفة بالمخاطر، وقلما تصل بصاحبها إلى بر الأمان.

وأما النوع الثاني فهو: الذِّكْرُ المَعْنَوِيُّ:

وهو قائم أساسًا على قصد ربط المؤمن بربه أبدًا، بالأقوال والأعمال والتروك؛ حيث يجتهد العبد ليحقق في كل حركة، وفي كل كلمة، وفي كل هيئة، من سائر الأعمال والتروك التعبدية التي يدخل فيها، معناها الذي شُرعت له؛ فيكون بذلك في أعلى مقامات الذِّكْرِ، ولذلك كانت الصلاة مثلًا بهذا المعنى ذِكْرًا، كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ [طه: ١٤]، وكان القرآن أيضا بهذا المعنى ذِكْرًا، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤]، كما كان ترك الكبائر والموبقات - كلما عرضت للمؤمن - ذِكْرًا أيضًا؛ لأن الوقوع فيها آنئذ لا يكون إلا غفلة منه عن إيمانه، وهو ضد معنى الذكر، ومثاله الواضح ما ورد في الحديث النبوي المتفق عليه، من قوله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن**»[1]. وذلك ما لهذه الأعمال والتروك وأضرابها جميعًا من تعبدية قوية للقلب، وإمداد له بحقائق الإيمان، وهو معنى الذكر وغايته.

فإذا أُخِذَ الذِّكْرُ العددي بموازينه الثابتة في السنة الصحيحة، وطُبق على هذا الميزان، كان ذكرًا معنويًّا أيضًا، وكانت عدديته تابعة لهذا القصد؛ لأن الأذكار النبوية التي بنيت على أعداد معينة إنما جعلها وسيلة لتعميق المعاني أساسًا، ولضمان تعبدية القلب بها، فالأعداد فيها تابعة للمعاني والعكس غير صحيح.

وذلك هو الذكر الشرعي النبوي؛ ولذلك ما ثبت في السنة منه إلا ما يدور على المرة الواحدة والثلاث ثم العشرة حتى المائة، على أقصى تقدير. ولم يرد ما يجاوز

---

(١) متفق عليه.

ذلك ليبلغ امتثاث به الآلاف، إذ القصد الشرعي من الذكر إنما هو ربط القلوب بالله، والترقي بها عبر مدارج الإيمان، وهذا إنما يتم بالتحقق والتخلق بالحقائق الإيمانية والصفات الربانية، ولا يكون ذلك إلا بالإبحار في سمائر المعنى، تركيزاً على قليل الألفاظ، المكتنزة بالحقائق الروحية، والمتدرجة بالعبد تربيةً وتزكيةً في طريق السير إلى الله، بما تتيحه له من التدبر والتذكر، والتعبئة الإيمانية المنقطعة النظير، التي تقوم بإعادة بناء عمرانه الروحي، وترميم حصنه النفسي، عسى أن ينجح في ابتلاءاتها في مجال التدافع الاجتماعي، والافتتان الدنيوي من أمور المال والأعمال، وسائر معارض الشهوات ومواطنها.

وعلى ذلك المنهاج كان النبي ﷺ يدرب أصحابه ويعلمهم، وشواهده في السنة كثير، بل ذلك هو فعله – عليه الصلاة والسلام – في نفسه بنفسه، ويكفينا من ذلك ما رواه مسلم في صحيحه، من حديث أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح، وهي في مسجدها – يعني وهي تُسَبِّحُ – ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة على حالها، فقال: « **ما زلتِ على الحال التي فارقتك عليها؟** » قالت: نعم. فقال النبي ﷺ: « **لقد قلتُ بعدكِ أربع كلمات ثلاث مرات، لو وُزِنَتْ بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عددَ خلقه، ورضَا نفسه، وزِنَةَ عرشه، ومِدَادَ كلماته** »[1].

ومعلوم أن الكثرة من ذلك تُفْقِدُ اللفظ حقيقته في النفس، وتخرجه عن منهاج السنة النبوية؛ فتحتجب أسرارُه وتغيب أنواره، إذْ إن تضخيم جانب من جوانب الدين – بما يخرجه عن أصله المسنون – يؤدي قطعًا إلى ضمور جانب آخر، ربما كان أوجب في الدين وأهم، والحكمةُ إنما هي إعطاء كل شيء قدْرَهُ الذي أعطاه الشرع له.

وعلى هذا المنهج بنينا ما جمعناه من « أوراد الفطرة » للعمل اليومي، في « رباط الفطرة » الدائم. وهو أربعة التزامات:

الالتزام الأول: شهود الصلوات الخمس والتزام رباطاتها

وذلك بمجاهدة النفس في كل صلاة من الصلوات الخمس؛ للتحقق من مقام

---

(١) رواه مسلم.

العبودية خشوعًا فيها؛ حتى تجد فعلًا أنك بين يدي الله ﷻ تناجيه، ثم تركع له وتسجد، بما هو ربك ورب العالمين، وبما أنت عبده المتبتل بين يديه، فهذا جوهر هذا المسلك وحقيقته، فكل صلاة ضاع منها شهود المناجاة لله رب العالمين، فَقَدَتْ معنى كونها مسلكًا تعبديًّا، وورِدًا تربويًّا، بل فقدت معنى كونها صلاة على الحقيقة! فعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ »[1] وفي رواية أبي هريرة وعائشة ﷺ: « إِنَّ الْمُصَلِّي يُنَاجِي رَبَّهُ، فَلْيَنظُرْ بِمَا يُنَاجِيهِ! »[2] وفي صيغة لأبي هريرة خاصة: « فَلْيَنظُرْ كَيْفَ يُنَاجِيهِ! »

وإنما ذلك يكون بثلاثة أمور:

أولها: تحقيق تكبيرة الإحرام ابتداءً؛ حيث يكون شهود العبد لحقيقتها تخلصًا من مؤثرات كل الأغيار، وإشهادًا لنقلب مقامَ الوقوف بين يدي الواحد القهار.

وأما الثاني: فهو شهود مقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ عند قراءة الفاتحة؛ بما هو تحقيقٌ عميقٌ لإخلاص العبادة لله رب العالمين، وحده دون سواه، وبما هو تحصيلٌ للقلب على توحيد المعبودية في ذات الله جل علاه.

وأما الثالث: فهو تحقيق الخضوع في هيئتي السجود والركوع؛ لتذوق مواجيد العَبْدِيَّةِ لله، وذلك مفضٍ إلى مشاهدة معاني كل حركات الصلاة وتسبيحاتها، فإن لكل هيئة مقامًا ولكل عبارة حالًا.

ذلك أنه إذا استقامت هذه الثلاثة للعبد في صلاته استقام له كل أفعالها وأقوالها؛ لِمَا لتلك من تأثير كبير على صلاح باقيها قولًا وعملًا؛ وبذلك تكون الصلاةُ وِرْدًا تربويًّا حقيقيًّا، ينهى صاحبه عن الفحشاء والمنكر فعلًا، ويعرج به عبر منازل الإيمان، ولا معراج أسرع في الوصول إلى الله من الصلاة.

ومما يعطي للصلاة عمقَها الروحي عُمْرَانُ سجودها - بعد التسبيح - بخالص الدعاء، فإنه لا يذوق معنى السجود حقًّا، ولا يستفيد من أنواره الفائضة على القلب، إلا مَنْ وَضَعَ جبهته على الأرض خاضعًا لله، ومتذللًا بين يديه تعالى بِأَحَرِّ الدعوات

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الحاكم والطبراني. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، وقد رُوي نحو ذلك بطرق شتى في الصحيحين وغيرهما.

وأخلصها، وحريٌّ بالمؤمن أن يذكر هَدْيَ النبي ﷺ في ذلك. وهو قوله عليه الصلاة والسلام: « أَقْرَبُ ما يَكُونُ العبدُ من رَبِّهِ وهو ساجدٌ، فأَكْثِرُوا الدُّعاءَ »[1]. وكذلك قوله ﷺ: « فأمَّا الركوعُ فعظِّمُوا فيهِ الربَّ، وأمَّا السُّجودُ فاجتهِدُوا في الدُّعاءِ، فقَمِنٌ أنْ يُسْتَجابَ لَكُمْ »[2].

وأما التزام رباط الصلاة فإنما المقصد به المساجد حيثما كانت، وذلك بذل غاية الوسع لأداء الصلاة المفروضة بها، قال الله جل علاه: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨]. ذلك ما سماه رسول الله ﷺ (بالرباط)، في حديثه المذكور قبل.

الالتزام الثاني: في المختار من الذِّكْرِ الفِدَذِيِّ:

صيغ الأذكار المسنونة الواردة في السنة الصحيحة كثير، وللمؤمن أن يختار منها ما يشاء، على حسب حاجته وعلته؛ إذ لكل داء دواء، وهذا نوع من تحقيق المناط الخاص، كما عبر عنه الإمام الشاطبي رحمه الله. إلا أنه ثبت باستقراء تلك الصيغ والأذكار، أن منها ما يمكن اعتباره أصولًا للذكر في الإسلام، مما اطرد العمل به، أو تواتر الأمر به في نصوص القرآن الكريم وبيانات السنة النبوية الصحيحة، ومما اشتهر محكيًا في كتاب الله على ألسنة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ومما مُدِحُوا بالتزامه والمداومة عليه بالغدو والآصال، وصيغه جميعها - باختلاف عباراتها - تدور على الإجمال حول أربعة أصول:

أولها: الاستغفار، وثانيها: التهليل، وثالثها: التسبيح، ورابعها: الصلاة على النبي ﷺ[3].

ولا شك أن غيرها من الأذكار النبوية كثير، لكننا نحسب أن هذه المحاور الأربعة

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم. وقوله « قمِنٌ »، معناه: جديرٌ وحريٌّ.

(٣) ن. ذلك مفصلًا بأدلته في رسالة ميثاق العهد (١٤٥).

المذكورة - لأصليتها، ولتواتر الأمر والعمل بها - هي مما لا يجمل بالمؤمن أن تخلو أوراده منه، ومن هنا كان لك - أخي المحب في الله - أن تتوسع ما شئت في الذكر، على حسب حاجتك وطبيعة علتك؛ بشرط الالتزام بالمنهج المسنون قولًا وعملًا، عسى أن تكون على الفطرة.

وعليه؛ فلك أن تختار من صيغ الأصول الأربعة الصيغ النبوية التالية، تركب منها لنفسك وردًا يوميًّا، وذلك على نحو ما يلي:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٠-٣٢][1].

اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. (١ مرة)[2].

---

(١) يجوز للمؤمن أن يختار آية من كتاب الله، أو سورة، يلتزم قراءتها يوميًّا أو كثيرًا؛ إذا وجد فيها مناسبة لحاله أو علاجًا لدائه، أو لعصره. كما في حديث أنس ﷺ قال: «كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، وكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به، افتتح: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها. وكان يصنع ذلك في كل ركعة! فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بأخرى. فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى. فقال: ما أنا بتاركها! إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، وما يحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟ فقال: إني أحبها! فقال ﷺ: حبك إياها أدخلك الجنة» رواه البخاري.

ونحن نرى أن في آيات الفطرة المذكورة أعلاه علاجًا مهمًّا، وترياقًا عظيمًا لداء الانحراف المنهجي عن الفطرة الإيمانية في هذا العصر، فيحسن لذلك الإكثار من تلاوتها والاعتصام بهداها تزكيةً وتدبرًا.

(٢) عن شداد بن أوس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ...» إلخ، (كما هو مذكور أعلاه) فقال ﷺ بعدها: «مَنْ قَالَهَا بِالنَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الْجَنَّةِ» رواه البخاري.

أستغفر اللَّه الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأتوب إليه. (١ مرة) [١].

- أستغفر اللَّه وأتوب إليه (١٠٠ مرة) [٢].

- لاَ إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. (١٠ مرات) [٣].

- لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلا بِاللَّه (٣ مرات) [٤].

---

(١) عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « من قال أستغفر اللَّه الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، غفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف ». رواه أبو دَاوُدَ والتِّرمِذِيُّ والحاكم وقال: حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني أيضًا في صحيح الترمذي (٣/ ١٨٢).

(٢) عن أبي هُرَيْرَة ﷺ قال: سمعت رَسُول النَّبِي ﷺ يقول: « واللَّه إني لأستغفر اللَّه وأتوب إليه في اليوم أكثر مِنْ سبعين مرة ». رواهُ الْبُخَارِيُّ. وقال ﷺ: « استغفروا ربكم إني استغفر اللَّه و أتوب إليه كل يوم مائة مرة ». رواه البغوي، وصححه الألباني. انظر حديث (رقم ٩٤٤) في صحيح الجامع. وقال ﷺ: « إنه لَيُغَانُ على قلبي، وإني لأستغفر اللَّه في اليوم مائة مرة ». رواه مسلم.

(٣) عن عبد اللَّه بن عمرو أن النبي ﷺ قال: « خير الدعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير ». رواه الترمذي وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم: (٣٢٧٤). وعن عمارة بن شبيب السبائي أن النبي ﷺ قال: « مَنْ قالَ: لا إِله إِلاَّ اللَّهُ وحْدَهُ لا شريكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ ولَهُ الْحَمْدُ، يُحيي ويُميتُ، وَهُوَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، عَشْر مراتٍ، على إِثْرِ الْمَغْرِب: بعثَ اللَّهُ مَسْلَحَةً يَحْفَظُونَهُ من الشَّيطانِ حتى يُصْبِحَ، وكتبَ اللَّهُ لَهُ بها عشر حسناتٍ مُوجباتٍ، ومحا عنه عَشْر سيئاتٍ مُوبِقَاتٍ، وكانتْ له بِعدْلِ عشرِ رِقَابٍ مُؤْمِناتٍ ». رواه الترمذي وحسنه. ثم حسنه الألباني في صحيح الترمذي وفي صحيح الترغيب والترهيب. وفي رواية أبي أيوب الأنصاري: أن من قالهن حين يصبح « كُنَّ لهُ مَسْلَحَةً مِنْ أَوَّلِ النَّهارِ إِلى آخرِه، ولَمْ يَغْشَ يَوْمئذٍ عَمَلًا يَقْهَرُهُنَّ، فإِنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي؛ فمِثْلُ ذلِكَ ». رواه أحمد والطبراني. وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط، بينما صححه الشيخ الألباني. وقد روي معناه بطرق مجملة ومفصلة، صحيحة على شرط البخاري ومسلم، كليهما أو أحدهما، فقد صح عند أحمد من حديث أبي هريرة وغيره من الصحابة مرفوعًا، وهو وارد بصيغ متقاربة - كلها صحيحة - عند الترمذي والنسائي وابن حبان والطبراني. وقد فصلت في تخريج طرقه بكتابنا « ميثاق العهد ».

(٤) وقد ورد في فضله العظيم أحاديث كثيرة بلغت بمجموعها حد التواتر. منها ما رواه أبو موسى الأشعري ﷺ قال: « لما غزا رسول اللَّه ﷺ خيبر، أشرف الناس على واد، فرفعوا أصواتهم بالتكبير: اللَّه أكبر اللَّه أكبر، لا إله إلا اللَّه. فقال رسول اللَّه ﷺ: « اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا. إنكم تدعون سميعًا قريبًا، وهو معكم ». وأنا خلف دابة رسول اللَّه ﷺ، فسمعني وأنا أقول: « لا حول ولا قوة إلا باللَّه »، فقال لي: « يا عبد اللَّه بن قيس »، قلت: لبيك يا رسول اللَّه، قال: « ألا أدلك على كلمة هي كنز من =

اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وأَصِيلًا (٣ مرات) [(١)].

سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ (٣ مرات) [(٢)]

سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ.(٥٠ + ٥٠ = ١٠٠) [(٣)]

- يَاحَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ! يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ. (٣ مرات) [(٤)].

- اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعلى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (١ مرة) [(٥)]

= كنوز الجنة » قلت: بلى يا رسول الله، فداك أبي وأمي، قال: « لا حول ولا قوة إلا بالله » » متفق عليه. وقد فصلنا في تخريج أحاديثه الأخرى في « ميثاق العهد »

(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: « بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ إذ قال رجل من القوم: « اللهُ أكبرُ كبيرًا، والحمدُ لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلًا » فقال رسول الله ﷺ: « من القائلُ كذا وكذا؟ » فقال رجلٌ من القوم: أنا يا رسولَ الله، قال: « عجبتُ لها فُتحت لها أبوابُ السماء » قال ابنُ عُمَر: ما تركتُهن منذُ سمعتُهن من رسولَ الله ﷺ » رواه مسلم

(٢) سبق تخريجه

(٣) قال رسول الله ﷺ: « كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم » متفق عليه. وقال أيضا: « من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة؛ حُطت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر » (متفق عليه)

(٤) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة: « ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به: أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حيُّ يا قيومُ برحمتك أستغيثُ، أصلِحْ لي شأني كلَّهُ ولا تكِلني إلى نفسي طرفة عين » أخرجه الترمذي والنسائي والطبراني والحاكم وقال: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير والسلسلة الصحيحة. وعنه رضي الله عنه قال: « كان النبي ﷺ إذا كربهُ أمرٌ قال: « يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث » رواه الترمذي بسند حسن. وبإسناده قال: قال رسول الله ﷺ: « أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام » وقد رواه أحمد أيضًا بسند صحيح كما في صحيح الجامع. ومعنى أَلِظُّوا: الزموا وداوموا. يقال: أَلَظَّ يُلِظُّ، إذا ثبت وثابر

(٥) هذه صيغة الصلاة الإبراهيمية، مختارة ومختصرة من عدة صيغ في الصحيحين وفي غيرهما. منها ما أخرجاه عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: « لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية سمعتها من =

- اللَّهُمَّ صَلِّ وبارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وسَلِّمْ تَسْلِيمًا. (١٠ مرات) .

- وَارْضَ اللَّهُمَّ عن ساداتِنا أصحابِ رسولِ اللَّه أجمعين، خصوصًا الأنصارَ والمهاجرين، والخلفاءَ الراشدين، أُمَرَاءَ المؤمنين: أبا بَكْرٍ، وعُمَرَ، وعُثْمَانَ، وعَلِيًّا، وعلى كُلِّ من اسْتَنَّ بِسُنَّتِهِمْ، واقْتَدَى بِهَدْيِهِمْ، من التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللهم انفعنا بمحبتهم، وثبتنا على سنتهم، ولا تخالف بنا عن نهجهم، واحشرنا في زمرتهم، مع رسولك الكريم سيدنا محمد عليه أفضل الصلوات والتسليم.

اللهم اجعلنا على هُدَاهُ ثابتين، لاَ مُبَدِّلِينَ ولاَ مُغَيِّرِينَ، حتى نلقاكَ مُقْبِلِينَ على وجهك الكريم، تائبينَ مُتَطَهِّرِينَ، راضينَ مَرْضِيِّينَ، برحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ يَا رَبَّ العالمينَ. آمين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، أستغفرك وأتوب إليك.[1] انتهى.

هذا، ولا تنس أخي المؤمن – في سياق الذكر – الالتزام بأدعية اليوم والليلة، كدعاء اليوم

النبي ﷺ؟ فقلت: بلى، فأهدها لي، فقال: سألنا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهلَ البيت؟ فإن الله قد علمنا كيف نسلم عليكم، قال: « قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ... إلخ » متفق عليه.

وفضل الصلاة على سيدنا محمد عظيم جدًّا، وهي مفتاح خير كبير، وقد وردت في ذلك أحاديث صحيحة كثيرة، منها قوله ﷺ: « من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشرًا » (رواه مسلم) وقوله ﷺ: « من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات، ورفع له عشر درجات » رواه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، والنسائي والحاكم، وصححه الألباني. انظر حديث رقم: (٦٣٥٩) في صحيح الجامع. وقوله ﷺ: « كل دعاء محجوب حتى يُصَلَّى على النبي ﷺ وآل محمد » رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس، كما رواه البيهقي عن علي موقوفًا، وحسنه الألباني. انظر حديث رقم: (٤٥٢٣) في صحيح الجامع. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، عن الرواية الموقوفة على عَلِيٍّ رضي الله عنه: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات.

(١) قال رسول الله ﷺ: « كفارة المجلس أن يقول العبد: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، أستغفرك وأتوب إليك » رواه الطبراني عن ابن عمرو، وعن ابن مسعود، وصححه الألباني. انظر حديث رقم: (٤٤٨٧) في صحيح الجامع. وفي رواية النسائي والحاكم أنه ﷺ قال: « فإن قالها في مجلس ذِكْرٍ كانت كالطابع يطبع عليه، ومن قالها في مجلس لغو كانت كفارة له » رواه النسائي والحاكم عن جبير بن مطعم، وصححه الشيخ الألباني. انظر حديث رقم: (٦٤٣٠) في صحيح الجامع.

والاستيقاظ منه، وأدعية الخروج والدخول والسفر، وسائر الأحوال، مما هو مأثور عن النبي ﷺ

كما أن على المؤمن أن تكون له أوقاتٌ مع ربه؛ مناجاته ﷻ، ورفع أكف الضراعة إليه تعالى، بالأدعية التي يجد فيها العبدُ علاجًا لقلبه وغذاءً لروحه. ولا يجوز لأهل الدعوة خاصة، أن تخلو حياتهم من هذا، إذ الدعاء هو من أهم الزاد اليومي للعبد السائر إلى الله، ومن أهم أسباب الفتح والنصر [1] وقد ثبتت في ذلك أحاديث وفيرة، منها قوله ﷺ « الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ » [2]. وقد فصلنا في تأصيل هذا – في غير هذا الموطن – بما فيه الكفاية إن شاء اللَّه [3]

الالتزام الثالث: مقاطعة آلهة العصر الأربعة.

وأولها: الشركيات والخرافات. **ثانيها**: المال الحرام بكل أصنافه. **ثالثها**: الزنى ومقدماته، وأخصها التعري الفاحش، والنظر الحرام، ثم بذيء الكلام. **رابعها**: الخمر والمخدرات وسائر المسكرات.

وقد جعلنا الأمور الثلاثة الأخيرة (المال الحرام، والزنى، والخمر) ضمن آلهة العصر إلى جانب الشركيات، رغم أن تلك من أمور العادات والمعاملات؛ وذلك لما نعلمه من تضخم الابتلاء بها في هذا الزمان، ومن صيرورة التعاطي لها بين كثير من الناس إلى معنى الوثنية الأهوائية، بما جعلها تنتصب في الوجدان الاجتماعي آلهة معنوية، تصد الناس عن عبادة الله، وعن إخلاص الدين له، وحده دون سواه! وذلك في حقيقة الأمر ليس بجديد، بل هو مما بيَّنه النبي ﷺ في السنة النبوية الصحيحة، إذ التعاطي لشرب الخمر كان عند العرب قديمًا عملًا وثنيًا، بما ذكرنا من معنى. قال عليه الصلاة والسلام « شَارِبُ الخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ وشَارِبُ الخَمْرِ كَعَابِدِ اللَّاتِ والعُزَّى » [4] وهو الداء الذي

---

(١) وقد جمعنا في ذلك رسالتين صغيرتين، انتقينا أدعيتهما من القرآن الكريم والسنة النبوية؛ الأولى هي « ميثاق العهد »، وقد صدرت طبعتها الأولى. والثانية هي « كاشف الأحزان »، ونحن بصدد طبعها إن شاء الله

(٢) أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة، وابن حبان، والحاكم عن النعمان بن بشير مرفوعًا وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم: (٣٤٠٧)

(٣) ن. رسالتنا: « كاشف الأحزان »

(٤) أخرجه الحارث عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا. وصححه الألباني، حديث رقم: (٣٧٠١) في صحيح الجامع.

صارت إليه الأحوال في انتشار الربى والتفسخ الخلقي، وتقديس المال الحرام حتى صار لدى كثير من الناس من الإدمان على ذلك ما يصعب الانفكاك عنه؛ إذ عبدوا فيه من أهوائهم وشهواتهم أوثانًا من دون الله . وبيان ذلك كما يلي.

فأما الشِّرْكِيَّاتُ والخُرَافِيَّاتُ: فهي المعتقدات الباطلة، التي تخرم إخلاص الدين لله، وتعكر صفاء التوحيد، والتي ما تزال تعم بها البلوى بين كثير من الناس اليوم، خاصتهم وعامتهم، فتخرم إخلاصهم، وتشوه فطرتهم، وتخرب دينهم، عقيدةً وعملًا.

والبراءة منها تكون بعدم اعتقاد تأثير أحد غير الله في الكون وسائر الخلائق، نفعًا أو ضرًا، ثم عدم التوجه إلى أحد سواه بالاستغاثة والدعاء رَغَبًا أو رَهَبًا. وذلك هو الإخلاص الذي أمرنا اللهُ ورسولُه ﷺ باعتقاده، ومجاهدة النفس لتحقق بمقتضياته العملية والخلقية. وهو الحقيقة الإيمانية العظمى التي يجب أن تكون سارية في دين المسلم كله، عقيدةً وشريعةً، كسريان السمن في اللبن، وكانتشار الروح في الجسد. وذلك هو أساس معنى الفطرة التي فَطَرَ اللهُ الناسَ عليها، والتي عليها مدار دعوة الإسلام

ويتحقق ذلك بإفراد الله ﷻ بما تقتضيه ربوبيته تعالى، وعدم الإشراك به في شيء من ذلك، خَلْقًا وتقديرًا ورعايةً وتدبيرًا، فلا دخل لأحد من خلقه في شؤون ربوبيته تعالى، كما يتحقق ذلك بإفراده وحده سبحانه بالعبادة والاستعانة، والتوجه إليه وحده بالطَّلَبِ والرَّغَبِ، لا إلى أحد من خلقه، مهما عَلَتْ منزلته عند الله، سواء في ذلك الأنبياء والصِّدِّيقُونَ، والملائكة المقربون، والأولياء الصالحون، وكذلك الأموات والأحياء، والإنس والجن، فكلهم جميعًا عبيدٌ لله، فقراء إليه تعالى، ولا أحد منهم يغني عن أحد من الله شيئًا ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ۝ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء ٥٥ - ٥٧].

كما يتحقق ذلك أيضًا بعدم تقديم شيء من النُّسُك لأحد غير الله. ومعنى النُّسُك

هو الذبح المقصود به التعبد والتقرب إلى المذبوح له؛ قصد نيل رضاه على سبيل التعبد، أو لقضاء الحوائج ودفع المضار، وما شابه ذلك من معاني العبادة التي تكون بتقديم القرابين من الأنعام بين يدي المعبود، مما يعتبر اللجوء فيه إلى غير الله ضربًا من ضروب الشرك المحبط للأعمال، والعياذ بالله ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام ١٦٢، ١٦٣). ولا ينبغي أن تستهين بشيء من ذلك مهما صغر، أعني سواء كان القُرْبَانُ المذبوح طيرًا أو تيسًا أو ثورًا، وسواء كان على أعتاب جني أو إنسي، حي أو ميت، فكل ذلك شرك خطير، مُورِدٌ لصاحبه مورد الهلاك، إلا أن يتوب توبة نصوحًا.

ثم يتحقق ذلك أيضًا بعدم الانتحاء إلى الدَّجَاجِلَةِ، من السَّحَرَةِ والكَهَنَةِ والعَرَّافِينَ والمشعوذين، ممن يدعي القدرة على كشف المغيبات، والاطلاع على المستقبليات، والأبراج الخرافيات، وسائر ضروب «المشاهدات» الشيطانية، أو ممن يدعي القدرة على التأثير السحري في الأشخاص؛ باستجلاب المحبة المهرية أو الكراهية القسرية، منهم أو إليهم، أو ممن يدعي القدرة على العلاج من الأمراض المزمنة والمستعصية بوسائل شيطانية، وكذا عدم الاغترار بالتوهمات التخييبية، التي تناقض قواطع الكتاب والسنة في الاعتقاد السليم، والتي قد تحصل لبعض المتصدرين للمجال الديني والدعوي، أو ممن اشتهروا بالتدين المزيف، من بعض جهلة العباد، الذين أوقعهم الشيطان في شَرَاكِه من حيث لا يعلمون، فكل شيء مما يصدر عن هؤلاء وأولئك، يجب عرضه على ميزان العلم الشرعي، ورده إلى العلماء الراسخين، والحكماء الربانيين، المتحققين بعلوم الشريعة ومقاصدها، أصولها وفروعها، وعدم المغامرة بالاستجابة في شيء من ذلك إلى نوازع الشهوات والأهواء، وإنما المؤمنُ العاقلُ، الكَيِّسُ الفَطِنُ، هو من لا يقامر بمصيره الأخروي في قضايا العقائد وأصول الإيمان والإخلاص.

فكل ذلك من الكبائر والموبقات المحبطة للأعمال والمخربة للدين. فلا يجوز الاستهانة بشيء منها أبدًا؛ فإنما هي سُبُلُ الشيطان يُضِلُّ بها كثيرًا من الخلق، وينحرف بهم عن الصراط المستقيم، ويستجلب بهم غضب الله والعياذ بالله. فسلامة الإيمان وصحة الاعتقاد، هي أولى خطوات السير إلى الله، لا يسلم ما بعدها أبدًا إذا كانت هي على غير الاتجاه الصحيح فاحرص أخي المؤمن على تصفية هذه

القضية، يجعل الدين كله لله، ولله وحده دون سواه، قولًا وعملًا. ولا تغامر بالدخول في شيء من ذلك، ولا باللجوء إليه أو إلى أصحابه، ولو على سبيل التسلية أو التجريب، فالنصوص الشرعية شديدة في النهي عن كل ذلك جِدِّهِ وهَزْلِه، وإنما هي موبقات وظلمات، بعضها فوق بعض، ما تزال تستدرج صاحبها من الهزل إلى الجد، ومن القليل إلى الكثير، ومن التجريب إلى الإدمان، حتى تكبه على وجهه في النار، وإنما المحفوظ من حفظه الله.

وأما المال الحرام، فإنه يمحق البركة ويخرب عمران الروح، ويمنع استجابة الدعاء، ويُغلق دون صاحبه أبواب السماء، ذلك أن الانطلاق في مدارج السير إلى الله مشروط بتصفية الأرزاق من شبهات الحرام، وبالتحري في تناول الطيبات من الرزق؛ لأن الطيب وحده يغذي الروح بعزائم الإقبال على الله، والتجرد للعمل الصالح وكل لقمة من رزق حرام لا تكون في جوف صاحبها إلا محجبة للانتكاس والارتكاس! وعُشًّا للشيطان في قلب صاحبها وتقوية لسلطانه على النفس، فلا تكون مدافعة وساوسه ونزعاته بعدها إلا أشد على النفس وأنكى. والعمل الصالح نبات خير، لكنه لا ينبت إلا بتربة طيبة، وهو الرزق الطيب الحلال. فإن وُضعتْ بَذْرتُهُ فيه كان ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]. وإن وُضعتْ بذرتُه في نفس تغذت من مال خبيث لم ينتج إلا شوكًا وحطبًا.

تلك معالم نورانية من توجيه النبي المصطفى ﷺ لهذه الأمة، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « أيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ »، فَقَالَ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١] وَقَالَ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: « يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ بِذَلِكَ؟! » (١)

---

(١) أخرجه مسلم.

- لاَ تَأْكُلِ الرِّبَا، فَإِنَّهُ شَرُّ الْمَالِ الْحَرَامِ.

المال الحرام: هو كل كسب حازه الإنسان على غير وجه مشروع، مما نتج عن الغصب، والرشوة، والغبن في البيع والغش فيه، والاستفادة المالية من المحرمات المطعومة والمشروبة، والنجاسات والمتنجسات، إنتاجًا وبيعًا وخدمات، وكذلك أكل أموال الناس بالباطل، وبيع الأعراض، وحلوان الكاهن والساحر والعراف، وسائر أنواع السحت، وكل ما لا يصح تملكه، مما حرمه الله ورسوله ﷺ

إلا أن شر ذلك جميعًا هو الربا؛ فالربا إعلان للحرب على الله! ومن حَارَبَ اللهَ حَارَبَهُ اللهُ ومن حَارَبَهُ اللهُ - يَا وَيْلَهُ - أَهْلَكَهُ! وألحق به الخراب في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة، والعياذ بالله. وإن امرءًا ليظن أنه بالربا قد جمع وعَمَّرَ وبَنَى؛ ذلك ما قد يبدو له في ظاهر الأمر، لكن الله تعالى له بالمرصاد؛ إذ يسلط عليه من المصائب والبلايا في نفسه وأسرته وحياته، ما يجعلُ ماله عليه شقاءً ما بعده من شقاء، وقد يُخرج له من نفسه أو أبنائه من يحرب عليه دنياه قبل آخرته، أو يسلط عليه من الأمراض الفتاكة ما يجعله يذوي شيئًا فشيئًا، فلا ينفعه ماله ولا جاهه وسلطانه أو يجعل خاتمته إلى مهانة اجتماعية، ومذلة دنيوية، تفوده إلى السجن، أو إلى أي هاوية يلقى فيها حتفه. إذ من حارب الله خاسرٌ لا محالة. وعجيب من لا يقدر الله حق قدره. ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر ٦٧]

وما رأيت في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ عقوبةً ولا نذارةً - بعد الشرك بالله - أشدَّ من عقوبة الربا. أوَ لا يكفي فيها أن يبوء صاحبها بغضب الله ولعنته؟! فلا تستقيم له دنيا ولا يسعد بآخرة تتبعه اللعنة أينما حل وارتحل. لا يقوم له شيء إلا انهار، ولا يَعْلُو له عُمْرانٌ إلا ضربه إعصار الخراب، فماذا بعد ذلك من مصيبة وبلاء؟!

وليس عبثًا أن يطلق الرسول ﷺ وبهذا البيان الإنذاري الرهيب في حق المرابين، مبينًا مَهْلَكَةَ الربا، كم هي أشد وأخطر من غيرها، وكم هي أفظع من كثير من الكبائر والموبقات! قال عليه الصلاة والسلام: « **دِرْهَمُ رِبًا يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَشَدُّ عِنْدَ اللهِ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلاثِينَ زَنْيَةً** »[1] كذا!!

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني عن عبد الله بن حنظلة مرفوعًا. وصححه الألباني حديث رقم (٣٣٧٥) في صحيح الجامع.

وإنما العجب كل العجب! ممن يتجرؤون على الترخص - بغير موجبات شرعية في أمرٍ مَذابحهُ مفتوحةٌ مباشرة على أبواب جهنم. فاقرأ هذه الآيات وتدبر هل تجد وعيدًا أشدَّ منها. قال الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة ٢٧٥ - ٢٧٩].

ذلك هو الحق ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس ٣٢].

وكيف لا؟ وهذه لعنةُ الله تترى على لسان رسول الله، جحيمًا يُلاحِقُ المرابين أبدًا، إلا أن يتوبوا إلى الله توبة نصوحًا، يستوي في ذلك آكِلُ الربا ومَنْ أعطى ثمنهُ، ومن ضَمِنهُ، وكل من أعان على عقوده، كتابةً وشهادةً وإدارةً. كلهم في لعنة الله سواء، ذلك صريح حديث رسول الله. ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال: « لَعَنَ اللَّهُ آكل الرِّبَا ومُوكِلَهُ وشَاهديْهِ وكَاتبَهُ، هُمْ فيه سواءٌ! »[1]

كما يستوي في ذلك من طلب الزيادة الربوية ومن أعطاها وهو نص الحديث الصحيح: « فَمَنْ زادَ أوِ اسْتَزَادَ فَقَدْ أرْبَى! والآخِذُ والمُعْطِي سَوَاءٌ »[2]

والعجيب - بعد هذا وذاك - أن تجد بعض المنتسبين في صف « العمل الإسلامي » يتطاولون على هذا الحد الرباني العظيم، يُحِلُّون ما حرم الله! فيصورون النوازل كما يشتهون للعلماء، ويحرجونها لهم إحراجًا حتى تُوهم الضرورةَ إيهامًا؛ لاستصدار رخصةٍ في أمر عظيم ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء ١٤٢].

وكان أولى بالمنسوبين على أهل الفضل والصلاح، أن يأخذوا لأنفسهم في مثل هذا

(١ ، ٢) أخرجه مسلم

بأصل الاحتياط في الدين، وبمقام الورع. وفي الحديث الصحيح « خَيرُ دِينِكُم الوَرَعُ! »[1].

ومن الأمور الربوية التي عم جهلها في هذا العصر، حتى لابسها بعض أهل الدين والصلاح - ما يعرف عند الفقهاء بـ « الربويات الستة »؛ وهي (الذهب والفضة، والقمح، والشعير، والتمر، والملح) وما ينوب عنها من النقديات المالية، ومن المطعومات الاقتياتية، مما هو داخل في معنى « المواد الضرورية للتغذية »، مما جرت به الأعراف والعادات في هذا الزمان، على حسب المناطق والشعوب، وهو ما ورد متواتر المعنى في عدة أحاديث نبوية صحيحة. منها هذا النص الجامع المانع، من قول رسول الله ﷺ: « **الذَّهبُ بالذَّهبِ، والفِضَّةُ بالفِضَّةِ، والبُرُّ بالبُرِّ، والشَّعيرُ بالشَّعيرِ، والتَّمرُ بالتَّمرِ، والمِلحُ بالمِلحِ، مِثْلًا بمِثْلٍ، يَدًا بيدٍ، فمَنْ زادَ أو اسْتَزادَ فقَدْ أرْبَى، والآخِذُ والمُعطي سَواءٌ** »[2].

وعليه؛ فإنه لا سير إلى الله إلا بعد حسم هذا مع النفس، ولا انطلاق في مدارج التربية والتزكية إلا بعد المفاصلة القاطعة لمداخل المال الحرام أنى كان، وليكن شعارك في

(١) أخرجه البزار، والطبراني في الأوسط، والحاكم عن حذيفة مرفوعًا، كما أخرجه الحاكم عن سعد مرفوعًا أيضًا. وصححه الألباني، حديث رقم: (٤٢١٤) في صحيح الجامع

(٢) أخرجه مسلم. ومعناه الإجمالي- أنه لا يجوز استبدال ذهب بذهب، ولا فضة بفضة، إلا بشرطين اثنين: الأول أن يكونا متساويين، والثاني أن يتم التبادل يدًا بيد، أي دون تأخير في القبض أو العطاء من أحد الطرفين، وكذلك الأمر في سائر المطعومات الأربعة، إذا كانت البضاعة من صنف واحد، أي قمحًا بقمح، أو شعيرًا بشعير ..إلخ. أما إذا اختلفت الأصناف كذهب بفضة، أو كقمح بشعير أو بتمر، فيجوز التفاضل أي بزيادة في أحد الطرفين، ولكن لا يجوز النسيئة، وهي تأخير أحدهما قبضًا أو عطاءً. بل لا بد من تمام التقابض في المجلس.

ويقاس على الذهب والفضة النقود المعاصرة، فما يشترط في الصنف الواحد منهما يشترط في الصنف الواحد من العملات الآن. وكذلك إذا اختلفت الأصناف النقدية؛ كاستبدال عملة بأخرى غيرها، جاز آنئذ التفاضل وامتنع التأخير، كما يُقاس المُقتَاتُ المُدَّخَرُ من المواد الغذائية المختلفة اليوم على ما ذُكر في الحديث؛ كالأرز مثلًا بالنسبة للبلاد التي تقتات به، فيجري عليه نفس الحكم مع نفسه، ومع غيره من المواد الغذائية الضرورية لقوت الناس، على حسب العرف والعادة الجارية، فكل ذلك يجري على القاعدة المذكورة أعلاه في معناه العام على الإجمال دون تفصيل، وإنما القصد هنا التنبيه. وفيه اجتهادات مختلفةٌ تعليلًا وتنزيلًا، لدى الفقهاء والمحدثين، وله نوازل لا تحصى، والواجب على المؤمن أن يرجع فيما يلم به من ذلك إلى استفتاء ثقات العلماء، فلا يُقدِمُ على عملٍ حتى يعلم حكم الله فيه

تحقيق هذا التحدي العصيم تحسيةً وتحليةً – قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۞ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه: ١٣١، ١٣٢].

وأما الزنى والنظر الحرام فإنه يحرق الأسرار ويسلب الأنوار، ويطمس البصيرة، ويكون سببًا في خراب الدنيا والدين؛ ولذلك فإن الله ﷻ نهى المؤمنين عن الاقتراب من الزنى قبل الوقوع فيه، فالمؤمن الكيس الفطن يتجنب الزنى المعنوي قبل الزنى الحسي، وذلك بمدافعة كل الخواطر التي تزين للنفس الشهوات الحرام، وباستقذار الفاحشة أنى كان شكلها، استقذارًا يجعلها تثير الغثيان في النفس، وتبعث بالسآمة فلا تقع مظاهر الفسق من عري أو كلام بذيء، أو أيٍّ من خوارم الحياء في قلب المؤمن إلا بغيضةً ممجوجةً! وذلك كله مجموع في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢] وقد بين النبي ﷺ معنى قرب الزنى بحديثه الحكيم الذي يرويه أبو هُرَيْرَةَ أَنَّهُ ﷺ، قال: « **إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَى، أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ!** »[1]. وهو بيان عجيب منه ﷺ مسلك المجاهدة، والتزكية للنفس، فيما يتعلق بأبواب الشهوات الحرام، مما وجب على المؤمن أن يتنزه عنه ويترفع.

وَلِشِدَّةِ ما يُبغض الله الزنى وأهله فقد أعد لهم عذابًا في الجحيم، ليس كأيِّ عذاب والعياذ بالله، وقد عَرَضَ النبي ﷺ لقطة واحدة من مشهد تعذيب الزناة رجالًا ونساءً تملأ القلب هولًا وفزعًا، وذلك في حديث سمرة بن جندب في الرؤيا؛ حيث قال عليه الصلاة والسلام: « **فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ، أَعْلاَهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ، يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا! فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا، حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ،** » ثم قال له الملكان المكلفان بتطوافه: أَمَّا « الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي الثُّقْبِ فَهُمُ الزُّنَاةُ! »[2]

- النظرة الحرام تقطع طريق الوصول:

ويعتبر النظر الحرام من أخطر مصائد الشيطان والعياذ بالله، فهو زيادة على ما يمكن

(١، ٢) متفق عليه.

أن يؤدي إليه من مهالك، يحرب الرصيد الإيماني للعبد فيما يبنيه من منزل عبر سلوكه إلى الله، وما يرتقيه من مقامات عبر عروجه نحو الوصول إلى مولاه.

ثم هو يثبط المبتدئ عن الانطلاق في شق طريق الصلاح، والسير الجاد إلى الله، كلما أراد البدء وجد ثقلًا، وهو لا يدري ما يثنيه عن المساجد والصلوات، والتخلص من وساوس الشيطان والشهوات، ولو جاهد نفسه على غض بصره عن محارم الله، لوجد خفة في روحه، وقوة في عزيمه، ولانتصر على حبل الشيطان التي تشده إلى التراب شدًّا.

• فالنظر الحرام يحرق حصائد الصلاح، ويمنع تحليق الجناح، ثم يجعل عزيمة السير إلى الله – في رمشة عين – رمادًا تذروه الرياح.

ومن هنا فليس عبثًا أن تجد التحذير منه صريحًا في القرآن الكريم وفي سنة النبي عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

وهذا أمر قد استهان به كثير من المسلمين، ولكن رسول الله ﷺ لم يستهن به قط، بل قال في وصيته الحكيمة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه: « **يَا عَلِيُّ، لاَ تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّ لَكَ الأُولَى، وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ** »[1].

• النظرةُ الحرامُ تُحَرِّمُ العَالِمَ سِرَّهُ

ومن أجمل ما نُقِل عن بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله في هذا الأمر حكمةٌ رفيعةٌ، تُشدُّ إلى مثلها الرحال، وذلك أنه رحمه الله كان ضيفًا عند بعض الأعيان من محبي العلم والعلماء، لمدة طويلة تزيد على بضعة أشهر، وكان لذلك الرجل بنات، يدخلن ويخرجن، والنورسي آنئذ في عز شبابه، فجاء عالمٌ آخرُ فنزل ضيفًا ليومين أو ثلاث بنفس المكان، فجعل يحصي البنات ويميز الصغرى من الكبرى، فوجد بديع الزمان جاهلًا بكل تلك التفاصيل والأوصاف، فسأله: لماذا لا تنظر إليهن؟ فأجابه النورسي بهذه الحكمة البالغة: « النظرةُ الحرامُ تُحَرِّمُ العَالِمَ سِرَّهُ ».

• والسبب في ذلك أن النظر الحرام في مثل هذه الأحوال خيانة خيانة للعلم،

(١) أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم، عن بريدة مرفوعًا. وحسنه الألباني حديث رقم (٧٩٥٣) في صحيح الجامع.

وخيانة للدين، وخيانة للدعوة جميعًا، ثم هو خيانة لأهل البيت ولأعراضهم، وما كان للخائن أن تكون له من أسرار.

وبهذا فسر ابن عباس ﷺ قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر ١٩] (١)

وقد ثبت - كما رأيت - بنصوص الكتاب والسنة، وكذلك بأقوال أهل العلم، وأصحاب الخبرة بمسالك التربية الإيمانية أن النظر الحرام من أخطر قُطَّاع الطرق على السالكين إلى الرحمن، وإنما المعصوم من عصمه الله.

وأما الخمر وما يلحق بها من مسكرات ومخدرات: فإنها تمنع سير الروح أصلًا، وتحبسه ابتداءً؛ لأن صاحبها قد أسلم نفسه لوثنية هواه! وما كان لمن لم يُخْلِصْ هواهُ لله الواحد القهار أن تفتح له الأبواب، فالمتلطخ بالرجس مرفوض في الملأ الأعلى. كذلك وصفها الله في محكم كتابه، ولا عبث في الدين بالتمني الكاذب على الله. قال جلَّ عُلاه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة ٩٠]. وإنه والله لا فلاح ولا نجاح للمسلم إلا بالاجتناب التام للخمر، والمقاطعة الشاملة لها، ولمسالكها، ولخدماتها، ولكل ما ينتج عنها، أو بسببها من أرباح وأموال، ومن عَوَّلَ على السير إلى الله والوصول إليه تعالى، وهو ما يزال ملبسًا بنجاستها، فقد غره الشيطان وتمنى على الله الأماني.

وقد سبق حديثُ رسول الله ﷺ في حق شاربها، بما وصفه من رهيب الصفات. فقال ﷺ: **« شَارِبُ الخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ وشَارِبُ الخمرِ كَعَابِدِ اللاتِ والعُزَّى »** (٢) ومثله قوله ﷺ: **« مُدْمِنُ الخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ »** (٣).

---

(١) قال ابن عباس: « في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر ١٩]: هو الرجلُ يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء (...) فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غض بصره عنها فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض » تفسير ابن كثير (٧٦/٤)

(٢) أخرجه الحارث عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا. وصححه الألباني، حديث رقم: (٣٧٠١) في صحيح الجامع.

(٣) أخرجه البخاري في تاريخه، والبيهقي، عن أبي هريرة مرفوعًا. وصححه الألباني، حديث رقم (٥٨٦١) في صحيح الجامع.

وقد عرض - عليه الصلاة والسلام - هاهنا أيضًا لقطة من مشهد آخر، لمآل شارب الخمر، وما يخسره من رصيده العملي، فيما قد يكون له من حسنات سابقة أو مرافقة. فعن ابن عبَّاسٍ عن النبيِّ ﷺ قال: « كُلُّ مُخَمِّرٍ خَمْرٌ. وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ وَمَنْ شَرِبَ مُسْكِرًا بُخِسَتْ صَلَاتُهُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا! فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَادَ الرَّابِعَةَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ! قِيلَ: وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ! وَمَنْ سَقَاهُ صَغِيرًا لَا يَعْرِفُ حَلَالَهُ مِنْ حَرَامِهِ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ »[1] ورُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ وَسَكِرَ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا. وَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ. وَإِنْ عَادَ فَشَرِبَ فَسَكِرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ فَشَرِبَ فَسَكِرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ رَدْغَةِ الْخَبَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا رَدْغَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: « عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ »[2].

- لاَ تَفُكَّ عَنِ الخمرِ حِصَارَ الشَّرِيعَةِ

والمطلوب من المؤمن الصادق مقاطعةُ الخمر، شربًا، وإنتاجًا، وتجارةً، وزراعةً، وخدمات، أيًّا كانت هذه الخدمات، ولو أن يكون حارسًا، ليس لها فحسب، ولكن حتى لمزارعها المخصصة لها قصدًا، والنصوص في ذلك كثيرة جدًّا، منها قوله ﷺ « إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْخَمْرَ، وَعَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَشَارِبَهَا، وَسَاقِيَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وَبَائِعَهَا، وَمُشْتَرِيَهَا، وَآكِلَ ثَمَنِهَا »[3] فالمقصود بهذا الحديث ضرب حصار اقتصادي واجتماعي على الخمر مطلقًا، فلا يجوز للمسلم فَكُّ هذا الحصار بأي

---

(١) أخرجه أبو داود عن ابن عباس مرفوعًا وصححه الألباني حديث رقم (٤٥٤٨) في صحيح الجامع

(٢) أخرجه ابن ماجه، وأحمد، والدارمي عن عبد الله بن عمرو وصححه الألباني، حديث رقم (٦٣١٣) في صحيح الجامع

(٣) أخرجه أبو داود، والحاكم، والبيهقي، عن عبد الله بن عمر مرفوعًا وصححه الألباني حديث رقم (١٨٠٢) في صحيح الجامع كما أخرجه الطبراني، والحاكم، والبيهقي، والضياء عن ابن عباس وصححه الألباني في صحيح الجامع

خدمة من الخدمات يقدمها لها، بدءًا بزراعتها وانتهاءً ببيعها، والترويج بها، أو إشهارها، أو شراء أي شيء من المباحات أصلًا ولكن خدمتها، ولو كان ذلك مجرد قلم أو ورقة، تضبط حسابها، أو عجلة لإصلاح شاحنتها، وقس على هذا وذاك قياسًا صحيحًا سيحًا زانص، فلا شيء اتُّخِذَ في سبيل إنعاشها إلا وهو ملعون عند الله، على لسان رسول الله ﷺ.

وما كان من تسربلت عليه اللعنة الإلهية أن يطلق، ولا أن تُفتح له أبواب السماء، إلا أن يتوب إلى الله توبةً نصوحًا.

- لا تجلس على مائدة يُدَارُ عليها خمر، ولو لم تكن لها شاربًا

والمؤمن الراغب فعلًا في السير إلى الله وجب أن يتحلى بحساسية عالية جدًّا ضد الخمر وأهلها، فلا يجالسهم ولو مجرد مجالسة وهم على مائدة الخمر، بل ما وُصِفَتْ أُمّ الخبائث تمكن إلا غدره المؤمن، إلا لضرورة مُقَدَّرَةٍ بقَدْرِهَا شرعًا، فعن عبد الله بن عمر ﷺ أن النبي ﷺ: « نهى عَنِ الجُلُوس على مائدةٍ يُشْرَبُ عَلَيها الخَمْرُ »(١) وقد ربط رسول الله ﷺ ذلك بصفة الإيمان بالله واليوم الآخر على عادته - عليه الصلاة والسلام - في الأمور المهمة في الدين، وهو قوله الصريح الملح « مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فلا يَجْلسْ على مائدةٍ يُدارُ عَلَيها الخَمْرُ »(٢).

وبعد:

فهذه أربعة أنصاب: (الخرافيات، والمال الحرام، والربى، والخمر)، تنتصب - في هذا العصر - أوثانًا في هوى الإنسان فتخسف بإيمانه، ويكون من الخاسرين والعياذ بالله، إلا أن يتعمده الله برحمته، ومن هنا، فإنه لا أمل في انطلاقه، ولا في استقامة سيره، وصلاح شأنه، إلا بمقاطعتها والتبرؤ منها جميعًا. وإنما الموفق من وفقه الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله

- الالتزام الرابع: إمساك اللسان عن فضول الكلام.

وهو ورد الصمت عما لا خير فيه من الكلام، وهو ملاك سائر الأعمال؛ إذْ بغيره لا يبقى لصاحبه دينٌ ولا خُلُقٌ

---

(١) أخرجه أبو داود، وابن ماجه، والحاكم عن ابن عمر. وحسنه الألباني، حديث رقم (٦٨٧٤) في صحيح الجامع

(٢) أخرجه الترمذي، والحاكم عن جابر. وحسنه الألباني، حديث رقم (٦٥٠٦) في صحيح الجامع

ولقد نصَّ القرآنُ على أن كل ما يصدر عن الإنسان من أقوال، هي محصاة عليه إحصاءً دقيقًا، والله ﷻ يعلم الكلمة قبل أن يتلفظ به المرء، بل يعلمها سبحانه وهي ما تزال خَطْرةً في قلبه، أو وسوسةً في نفسه، فإذا تلفظ بها تلقفها الملكان فكُتِبتْ له أو عليه، وذلك هو صريح قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق ١٦ - ١٨]

وتواترت السنة بالتحذير من خطورة آفة اللسان، وما تجره على المؤمن من خراب الأعمال، والارتكاس الرهيب في غيابات الجحيم، فعن بلال بن الحارث ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « إنَّ الرَّجُل ليَتكَلَّمُ بالكَلِمةِ منْ رِضْوَانِ اللّه تعالى مَا يَظُنُ أن تبْلُغ ما بلَغتْ، فيكْتُب اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إلى يَوْم القيامةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيتكَلَّمُ بالكَلِمة مِنْ سخط الله تعالى، ما يظُنُّ أنْ تَبْلُغَ ما بلَغتْ، فَيكْتُبُ اللّهُ عليه بها سخطَهُ إلى يَوْم القيامة » [1]. ومثله قوله - عليه الصلاة والسلام - في هذا النذير الرهيب: « إنَّ الرَّجُلَ ليتَكَلَّمُ بالكَلِمةِ لا يرى بها بأسًا يهْوِي بها سَبعِينَ خرِيفًا في النَّارِ » [2]

ولا أجدُ أشدَّ نذيرا ولا أرْهبَ تحذيرا، مما ورد في حديث معاذ بن جبل ﷺ في آفة اللسان، وقد أخبره النبي ﷺ بما يُدْخلُهُ الجنة من الأعمال وما ينجيه من النار، ثم قال عليه الصلاة والسلام في خاتمته: « ألاَ أُخبِرُك بِملاَكِ ذلِكَ كُلِّهِ؟ قُلتُ: بلى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هذا، فَقُلْتُ: يَا نبيَّ اللَّهِ، وَإنَّا لَمُؤَاخذُونَ بمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعاذُ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاس في النَّارِ على وُجُوههِمْ - أوْ عَلَى مَناخِرِهِمْ - إلاَّ حَصَائِدُ أَلسِنَتِهِمْ » [3]

ولذلك فقد أهدى - عليه الصلاة والسلام - للأمة هذه القاعدة اللسانية الاحتياطية

---

(١) أخرجه مالك، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، عن بلال بن الحارث. وصححه الألباني، حديث رقم (١٦١٩) في صحيح الجامع.

(٢) أخرجه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم عن أبي هريرة. وصححه الألباني، حديث رقم (١٦١٨) في صحيح الجامع.

(٣) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، والبيهقي. وقال الترمذي: « هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ ». كما صححه الألباني في صحيح الجامع.

السنية، فقال: « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ! »[١].

وهذا جامع لكل معاني النميمة، والغيبة، ونحو هذا وذاك من محرمات الأقوال، وسائر اللَّغْوِيَّاتِ الباطلة. ثمَّ التلفظ بالشركيات، سواء كان ذلك جِدًّا أو هزلًا. ألا عَصَمَ اللَّهُ أَلْسِنَتَنا جميعًا من كل سوء.

● احْذَرِ الْكَذِبَ فإنّه مَرَضٌ خَطِيرٌ

والكذب - أعاذنا الله وإياكم منه - من أسوأ آفات اللسان، والمؤمن لا يكذب، أما الداعية أو الحامل مشروع التجديد الديني فإنه إن كذب فقد خان رسالته، وقضية الصدق والكذب هي قضية « وَلَاءٍ وَبَرَاءٍ » في المجال الدعوي، لا تقبل المساومة[٢] ويكفينا في ذلك نذارةُ رسول الله ﷺ الفاصلة الحاسمة، حيث إنه توعد الكاذب بالويل المؤكد، ولو كان كذبه من باب إضحاك الناس والترفيه عنهم، قال عليه الصلاة والسلام: « وَيْلٌ للذي يُحدِّثُ فَيَكْذِبُ، لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ! وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَه »[٣]. وقد نقلت عائشة رضي الله عنها موقفه الشديد من الكذب، فقالت: « كَانَ أَبْغَضُ الخُلُقِ إليه الكَذِبَ »[٤].

ولا وصولَ إلى الله ﷻ ولا طريقَ إلى نيل رضاه إلا بالصدق؛ الصدق على كل حال، والصدق في كل شيء، بحيث لا يَصْدُرُ المؤمن في كل شأنه، كبيره وصغيره، إلا عن الصدق، قولًا وفعلًا، عسى أن يكون في نهاية المطاف من الصِّدِّيقِينَ؛ فالصِّدِّيقِيَّةُ لا تُنال بكثرة الأعمال عددًا، وإنما تنال بعمقها صدقًا، وبصفائها وِرْدًا، وبإخلاصها قصدًا، وذلك هو الصدق مع الله جل ثناؤه، ومن لم يصدق مع الناس لم يصدق مع الله، والعكس صحيح، فالصدقُ عُمْلَةٌ واحدةٌ، مَنْ غَشَّهَا أو دَلَّسَهَا غَشَّ في كُلِّ شيءٍ، ودَلَّسَ في كُلِّ شَيْءٍ، ولا مسلك إلى الله بغير هذا، فَمَنْ عَبْدُ اللَّهِ

---

(١) متفق عليه.

(٢) لا نقصد بذلك « الولاء والبراء » بالمعنى العقدي الصرف، ولكننا نقصد ولاء الثقة والتواصل أو عدمهما، في مجال العمل الإسلامي.

(٣) أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم، عن معاوية بن حيدة مرفوعًا، وحسنه الألباني، حديث رقم: (٧١٣٦) في صحيح الجامع.

(٤) أخرجه البيهقي عن عائشة، وصححه الألباني، حديث رقم (٤٦١٨) في صحيح الجامع.

ابن مسعود ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: « عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا. وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ. وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا »[1].

ولنا أن نختم هذه الالتزامات بحديث نبوي عجيب، هو عبارة عن رحلة روحية - مأذونة من لدن الرحمن - في ملكوت الغيب، صُحْبة المَلَكَيْن: جبريل وميكائيل - عليهما الصلاة والسلام - وذلك خلال رؤيا نبوية، ولا تكون رؤيا النبي ﷺ إلا حقًّا، بل لا تكون إلا وحيًا من الله ﷻ، وحقيقةً نبوية قطعية، رؤيا كانت عبارة عن مشاهدات ذات جلال وجمال، وسياحة في ملكوت أخروي عجيب، من مشاهد العذاب ومنازل النعيم، كلُّها عِبَرٌ وحِكَمٌ، ترجع على ما ذكرنا من الترامات بالترغيب والترهيب ذِكْرى ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

فعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ وَرَجُلٌ قَائِمٌ بِيَدِهِ كَلُّوبٌ مِنْ حَدِيدٍ، قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ مُوسَى: إِنَّهُ يُدْخِلُ ذَلِكَ الْكَلُّوبَ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الْآخَرِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَيَلْتَئِمُ شِدْقُهُ هَذَا، فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ. قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ أَوْ صَخْرَةٍ، فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الْحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ، وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ، أَعْلَاهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ، يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ، فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهَرِ، وَعَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ. فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ.

---

[1] متفق عليه

فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء، فيها شجرة عظيمة، وفي أصلها شيخ وصبيان، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها. فصعدا بي في الشجرة وأدخلاني دارًا لم أر قط أحسن منها! فيها رجال شيوخ وشباب ونساء وصبيان. ثم أخرجاني منها فصعدا بي الشجرة، فأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل، فيها شيوخ وشباب.

قلت: طوفتماني الليلة، فأخبراني عما رأيت! قالا: نعم

أما الذي رأيته يشق شدقه فكذاب، يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به إلى يوم القيامة! والذي رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل، ولم يعمل فيه بالنهار، يفعل به إلى يوم القيامة، والذي رأيته في الثقب فهم الزناة، والذي رأيته في النهر آكلوا الربا، والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم ﷺ. والصبيان حوله فأولاد الناس. والذي يوقد النار مالك خازن النار، والدار الأولى التي دخلت دار عامة المؤمنين، وأما هذه الدار فدار الشهداء، وأنا جبريل، وهذا ميكائيل، فارفع رأسك، فرفعت رأسي فإذا فوقي مثل السحاب، قالا: ذاك منزلك. قلت: دعاني أدخل منزلي. قالا: إنه بقي لك عمر لم تستكمله، فلو استكملت أتيت منزلك»[1]

بصيرة في شرط الوصول:

وعليه؛ فإنه لا وصول ولا قبول في كل ذلك جميعًا إلا بشرط أساس، ألا وهو: مجاهدة النفس؛ لتتحقق في كل مشيئة من إخلاص القلب، ولتتحقق في كل كلمة من صدق اللسان.

ذلك، وإنما الموفق من وفقه الله، هو وحده تعالى المستعان، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

• • •

---

(١) متفق عليه



الفطرية

بعثة التجديد المقبلة

من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام

الفصل الثالث

التجديد الفطري
(معالمه المنهجية وقضاياه العمرانية)

• وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول : في المعالم المنهجية للتجديد الفطري

المبحث الثاني : التجديد الفطري وقضايا العمران البشري

لكل بعثة حقيقية، بوجودهم وبانتصابهم ينتصب الدين ويقوم، وبغيابهم تنتصب المحن والفتن، وتدبر قول رسول الله ﷺ « **إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالـمًا؛ اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا!** »[1] وترجم الإمام البخاري في كتاب العلم من صحيحه (باب. كيف يقبض العلم؟ وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دُروسَ العلم[2] وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ وليُفْشُوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًّا)

وإن من أخطر ما يواجهه الأمة اليوم فعلًا من المعضلات، في هذه المرحلة الحرجة من الاكتساح العولمي الصهيوني؛ هو هذا الموت المتواتر، والمستحر بالعلماء، مع ضعف نسج الخلف، فهذا مما يجب الانتباه إلى خطورته الشديدة، وإلى الضرورة الاستعجالية التي تقضي بتفرغ شباب الصحوة الإسلامية لطلب العلم الشرعي، بشروطه المذكورة قبل؛ قصد إنتاج علماء البعثة المنصبين لها.

الركن الثاني:

دوائر « مجالس القرآن » بتلقي رسالات القرآن وتلقينها، تلاوةً وتزكيةً وتعلمًا وتعليمًا؛ قصد إحداث تداول اجتماعي عام لمفاهيمها؛ بناء على هندسة القرآن الدعوية، كما سبق بيانه في المَعْلَم الأول من معالم البعثة؛ وذلك لتجديد بنية الدين في المجتمع[3].

فمجالس القرآن حِلَقٌ تعبدية متسلسلة، ومدارس إيمانية منسابة. هي الشكل وهي المضمون، كما أنها هي الوسيلة وهي الغاية، وهي مناط رسالات القرآن تلقيًا وأداءً.

فهما إذن عنصران أو ركنان كما ذكرنا: الأئمة العلماء بشروط البعثة ومعالمها، ثم المجالس القرآنية، المنضبطة إلى هندسة القرآن، وذلك يغني عن كثير من المحركات الإدارية، التي لا تفيد إلا في إثقال حركة الإنتاج الدعوي، وتقييد المبادرات، كما هو

---

(١) متفق عليه

(٢) دروس العلم يعني انقراضه، درَس الشيءُ يدْرُسُ انقرض

(٣) ينظر بعض الضوابط التنظيمية القطرية بكتيبنا « مجالس القرآن » لمن شاء الاستزادة



تمهيد

هدف المعركة الجديدة إذن: هو الوجود الديني للمجتمع الإسلامي ذاته، وساحتها هي الإنسان المسلم نفسه، ليس بما كان مقصودًا في الاستعمار القديم، ولا بما كان مقصودًا بالظلم السياسي الحديث، ولكن المسلم مقصود اليوم بالتدمير؛ بما هو حائل طبيعي متين دون الطغيان الصهيوني، وحلم (إسرائيل الكبرى)، ودون التمكن الأمريكي من النفط العربي، ثم دون ثقافة الاستهلاك العولمي، والاستعباد الشهواني؛ وبذلك فهو مستهدف في عقيدته، ونظام تربيته وتعليمه، ونمط حياته، مستهدف ببرامج تعليمية وإعلامية أخرى، وبنظم اجتماعية جديدة، وبتدمير كلي لمفهوم الأسرة، وبناء تركيبة اجتماعية أخرى، لا يبقى من إسلامها إلا أسماؤها! تمامًا على نحو ما يصنعون لما يسمى بـ (الجيل الثالث) من أبناء المهاجرين في الغرب؛ حيث ذوبت النظم الغربية شخصيتهم الإسلامية، فضاع أغلبهم كما ضاعت بقايا (الموريسكيين) من أهل الأندلس، في المجتمع الإسباني النصراني.

لقد جيشت أمريكا لذلك جيوش عولمتها، المحمية ليس بأسلحة التدمير الشامل فقط؛ ولكن أيضًا بأسلحة أخرى أخطر منها. برسالة الإعلام والاقتصاد والثقافة والتعليم والتقنين الاجتماعي .. إلى آخر ما يمثل آلة « الديموقراطية الليبرالية » في مفهومها الغربي.

تلك هي طبيعة المعركة الجديدة؛ فإما بعثة تجديدية جديدة، وإما قرون أخرى في ظلمات التيه، لا قدَّر اللَّه! ولكن يأبى الله ﷻ إلا أن يحفظ كتابه إلى يوم القيامة، تلك عقيدتنا، وقد تواتر ذلك من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة ٣٣] وقال ﷺ: « **ولا تزال طائفة من أمتي منصورين، لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة** »[١] وقال أيضًا « **لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر اللَّه، لا يضرهم من**

(١) رواه أحمد، والترمذي، وابن حبان وصححه الألباني، حديث رقم (٧٠٢) في صحيح الجامع.

خذلهم، ولا من خالفهم؛ حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس »[١].

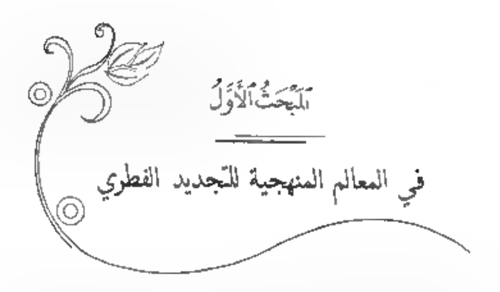
لكن القضية هي مسؤولية الإنسان المسلم، الذي تعلق هذا الدين برقبته، عقيدة وشريعة ومصيرًا، في الدنيا وفي الآخرة. إنها مسؤولية الفرد، ومسؤولية الجيل. إنها مسؤولية (حفظ الدين)، التي أناطها الله جل وعلا بالتكليف التعبدي الإنساني، وما حفظه - كما تبين من قبل - إلا (بعثة للتجديد)، تنطلق كلما أحدق الخطر ببيضة الإسلام.

وإن عِظَم الخطر اليوم، وشموليته، وعمقه، بما لم يسبق له مثيل في منهجية التدمير الوجداني، لجدير بأن يكون وحده مؤشرًا قويًا على أن الزمان زمان بعثة جديدة، ولمن كان يبصر فتلك بشائرها تلوح أنوارًا في الأفق، وما جاء فرج قط إلا بعد (حتى) الدالة على أقصى غايات الضيق والحرج، والنهاية في مراحل البأساء والضراء، قال ﷻ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقال سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠]

وإذا كان لنا من كلام عن (بعثة التجديد الفطري) فهو عن معالمها المنهجية الكبرى، وهو كلام مبني بالدرجة الأولى على استقراء النصوص القرآنية والحديثية، ثم بدرجة ثانية على قراءة ضرورات المعركة الجديدة وطبيعتها، مما أشرنا إليه قبل.

* * *

(١) متفق عليه



المبحث الأول

في المعالم المنهجية للتجديد الفطري

أول ما ابتدئت به بعثة النبي ﷺ هو نزول آيات من القرآن، وكان ذلك حدثًا عظيمًا لم يحصل بعده في سيرته ﷺ ما هو أعظم منه وأعجب، وقد بقي القرآن ذاته ﷺ الأساس للدعوة إلى الله وتوحيده تعالى، مع ما ألهمه تعالى وأوحى إليه من الحكمة، مما نطق به في حديثه ﷺ، وسار به في سيرته، إلا أن القرآن كان منبع الأنوار كلها.

وتدفق الإسلام على الناس وفشا بينهم، بتدفق آي القرآن وسوره عليه ﷺ فكان المادة الأساس في تربية الجيل، انطلاقًا من دار الأرقم، وشعاب مكة، إلى الهجرة نحو المدينة، إلى فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجًا، في ظرف زمني لا يتعدى بضعًا وعشرين سنة، ومن هنالك انطلق إلى العالم في ظرف يقارب الأول، مع الخلفاء الراشدين والآخرين من بعدهم، إن هذه ملحوظة أساسية، أعني: التدفق الدعوي في ظرف زماني قصير، بل قياسي بالنسبة لقانون الاجتماع البشري، في انتشار الأفكار والعقائد والمذهبيات، ففي نحو بضع وعشرين سنة من التداول الاجتماعي للقرآن تربيةً وجهادًا؛ يكون الإسلام دين الله المكين في الأرض، ثم الدين الظاهر على كل الأديان والملل والنِّحَل، إنها بعثة إذن.

وبتأمل السيرة النبوية واستقراء مراحلها، ونصوص الكتاب والسنة المتعلقة بها، وبمفهوم البعثة التجديدية، وبالنظر إلى حجم الفساد والانحراف الذي ضرب العالم اليوم؛ يمكن استخلاص المعالم الرئيسة لبعثة التجديد فيما يلي:

المَعْلَمُ الأول: التَّدَاوُلُ القُرْآنِيّ:

إن أَهَمَّ مَعْلَم، وأوضح خاصية، يمكن ملاحظتها في البعثة النبوية ابتداءً؛ هي ظاهرةُ التَّدَاوُلِ القُرْآنِيّ، ومعنى ذلك أن الاشتغال النبوي إنما كان بالقرآن أساسًا؛ مما حقق ما يمكن تسميته: (تداوُلِيَّةً قُرْآنِيَّةً) كبرى في المجتمع الإسلامي الأول. فقد منع رسول الله ﷺ الناس في بداية الأمر من كتابة شيء غير القرآن، وذلك كما في حديثه المشهور؛ إذ قال ﷺ: « **لا تكتبوا عني شيئًا إلا القرآن، فمن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار** » (١) وقد تواترت أخبار الحركة القرآنية، التي طبعت جيل الصحابة؛ اهتمامًا، وقراءة، ومدارسةً. وإنما كان النبي ﷺ يشتغل به داعيًا إلى الله، ومربيًا. وقد أسلم معظم من أسلم من الصحابة؛ تأثرًا بسماع شيء من القرآن، فقد كان للقرآن في جيلهم خبرٌ مهيب، ونبأ عظيم، يتلقونه ويبثونه؛ حتى صار القرآن هو الحديث الأبرز في تلك المرحلة، تَنَزُّلًا وتداولًا

إن المسلمين اليوم، يقرؤون القرآن، نعم؛ ولكنهم لا يتداولونه، إننا نقصد بـ (التَّدَاوُلِيَّة) الاشتغال الشامل بالقرآن الكريم، الاشتغال الذي يعمر الحياة؛ حتى يطغى على كل شيء سواه؛ تلاوةً، وتعلمًا، وتدارسًا، وتدبرًا، وتزكيةً، إلى أن يَفْشُوَ ذلك فُشُوًّا بين سائر فئات المجتمع وطبقاته؛ مما يُؤَسِّسُ تربيةً قرآنية تعبديةً واجتماعيةً، تقوم بين الناس بصورة تلقائية؛ مادةً ومنهجًا، تَبُثُّ قِيَمَ القرآن وأخلاقَه بينهم بثًّا يتغلغل في الأنفس، ويتسرب إلى أنسجة المجتمع الداخلية، وخلاياه الشعورية واللاشعورية؛ مما يجعل مفاهيم القرآن متحكمةً في صيرورته، وفي حركته التاريخية. فيصبح القرآن بذلك هو (مُحَرِّكَ الإِصْلاحِ) و (دِينَامُو) العمل الدعوي، القائم على المنهاج النبوي الحق

هذا شيء - مع الأسف - شبه مفقود اليوم، ولا يكون إلا (ببعثة جديدة)، تجدد اشتغال الأمة بالقرآن.

وكان جيل الصحابة في عهد النبوة وبعده؛ مجالس قرآنية، ليست كأغلب

---

(١) رواه مسلم.

مجالس السهرات القرآنية، التي تعقد اليوم للسماع والتغني، كلا، ولكنها كانت مجالس قرآنية متكاملة، تتضافر فيها التلاوة، والتعلم، والتزكية، على كمال ما تكون التربية النبوية، لخير الأجيال (١). ذلك بشهادة القرآن العظيم في مثل قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقوله سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

وانطبعت تلك التربية في أصحاب رسول الله ﷺ فكانوا أهل قرآن، وصاروا مختصين به، ولذلك سمي فريق منهم بـ (القراء)؛ لتفرغهم لهذا الشأن خاصة. فعن أنس بن مالك ؓ قال: « جَاءَ نَاسٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا أَنِ ابْعَثْ مَعَنَا رِجَالاً يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، يُقَالُ لَهُمُ الْقُرَّاءُ، فِيهِمْ خَالِي حَرَامٌ، يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بِاللَّيْلِ، يَتَعَلَّمُونَ » (٢).

وكانت للقرآن أخبار يحرص المؤمنون على تتبعها وتناقلها؛ لأن القرآن أخلاق، ومنهج حياة، فكان حرصهم عليه حرصًا على بناء حياتهم. فعن عمر بن الخطاب ؓ في حديث طويل، أنهم كانوا يتحدثون أن غسان تُنْعِلُ الخيل لغزو المدينة، فجعل النبي ﷺ حرسًا بعوالي المدينة؛ مراقبة ذلك عن بعد، قال عمر ؓ: « وكان لي جار من الأنصار، فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، فينزل يومًا، وأنزل يومًا، فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك » (٣).

وبعد وفاة الرسول ﷺ امتدت تلك المجالس مع الفتوح إلى سائر الأمصار، يصف لنا التابعي الجليل أبو رجاء العطاردي طريقة ذلك، وكيفية تنظيم أبي موسى الأشعري ؓ للمجالس القرآنية بالعراق، قال: « كان أبو موسى الأشعري يطوف علينا في هذا المسجد، مسجد البصرة، يعقد حِلَقًا، فكأني أنظر إليه بين بردين أبيضين، يقرئني القرآن » (٤). وقد تخرج من هذه الحلق الدراسية خَلْقٌ كثير من التابعين. فعن أبي كنانة أن أبا موسى الأشعري جمع الذين قرؤوا القرآن، فإذا هم

(١) د. بلاغ الرسالة القرآنية: (١٠١-١٠٥)، وكذا مجالس القرآن. (٢٩)

(٢، ٣) متفق عليه. (٤) الحلية لأبي نعيم. (١/٢٥٦)

قريب من ثلاثمئة فعظَّم القرآن، وقال: « إن هذا القرآن كائن لكم أجرًا، وكائن عليكم وزرًا، فاتبعوا القرآن، ولا يتبعكم القرآن، فإنه من اتبع القرآنَ هبط به على رياض الجنة! ومن تبعه القرآنُ زَخَّ في قفاه، فقذفه في النار »[(١)]. فكان القرآن لهم ثقافةً، وتربيةً، وخُلُقًا، ومنهجَ حياة.

ودأب الصحابة رضوان الله عليهم على هذا المنهج، حتى لكأن الأمة إنما قامت - حينما قامت - بالقرآن، وكذلك كان.

فخلص بذلك إلى أن التداول القرآني كان له في البعثة الأولى وجهان:

الأول: تداول اجتماعي: وتم بمقتضاه بث الاشتغال بالقرآن في كل مرافق الحياة الاجتماعية، يُتَلقى خبره، وتضبط عبارته، وتُحفظ تذكرته، ثم يُبَثُّ ذلك كله، ويذاع في الناس، لتسير الآيات في الآفاق، فيعمر القرآن الحياة الاجتماعية؛ ذكرًا ومذاكرةً.

ولو يُلْحظ ذلك في العمل الدعوي التجديدي اليوم؛ إذن يتحول القرآن إلى خُلُق اجتماعي عام، وتتحول قضاياه، وقصصه، وعبره، وحِكَمُه، وأمثاله، إلى (ثقافة شعبية) سارية، وذلك من شأنه أن يصنع سيجًا اجتماعيًا مسلمًا، عميقًا ومتينًا، لا تخترقه عوادي العولمة الثقافية والإعلامية، مهما اشتدت ريحها.

والثاني: تداول تربوي: وهو الذي اختصت به (مجالس القرآن)، التي كانت تعمر المساجد، والبيوت، والبساتين، والشعاب، والبطاح - سِرًّا في مراحل، وعلنًا في مراحل أخرى - مما كان قبل الهجرة ومما كان بعدها؛ تعلمًا، وتزكيةً، ومُدارسةً، وتدبرًا، وتَبَصُّرًا؛ لتخريج أهل القرآن الحكماء الربانيين، الذين يربون الناس، والذين هم مادة الاستمرار الحضاري للأمة وعمودها الفقري، والذين ذكرهم الله جل وعلا في قوله: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

المَعْلَمُ الثاني: الإمامةُ العِلْمِيَّة:

إن حديث النبي ﷺ يحدد (إمامة) بعثة التجديد، وينص عليها بصورة واضحة، لا غبش فيه ولا إبهام، وذلك قوله ﷺ: « إنَّ العلماء ورثةُ الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا

---

(١) السابق: (١/٢٥٧).

دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ فَقَدْ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ »[1]. يبد أن (الوراثة) هنا تقتضي إرث العلم بكل وظائفه الدعوية والتربوية، لا مجرد العلم الخالي من كل عمل، ومن أي رسالة. فذلك علم مُدَّعى غير موروث، فالعلماء الورثة هم أهل الرسالة، وحَمَلَةُ البلاغ القرآني، وقد أصل أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله (ت ٧٩٠هـ) ذلك، وهو رحمه الله أحد أئمة التجديد في الأندلس، فوصف العالم المتصدر للتربية والتجديد: بـ (الوارث)، و(المُنتَصِب)، كما وصفه بالرباني، والحكيم، والراسخ في العلم، والعالم، والفقيه، والعاقل في نصوص جديرة بأن تشد إليها الرحال، وهي اصطلاحات كلها دالة عنده على (إرث) النبوة في منهج التربية والتعليم والتزكية للأمة، (فالانتصاب) إنما هو تجرد لمهمة البلاغ، تمامًا كما تنتصب الجبال بين الصحارى والبطاح؛ أعلامًا للضالين عن الطريق، فيراها كل العابرين، وتكون بذلك منارات اتباع واقتداء. قال رحمه الله « إن المنتصب للناس، في بيان الدين مُنتَصِبٌ لهم بقوله، وفعله، فإنه وارثُ النبي، والنبي كان مبينًا بقوله، وفعله، فكذلك الوارثُ لا بد أن يقوم مقام الموروث، وإلا لم يكن وارثًا على الحقيقة، ومعلوم أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتلقون الأحكام من أقواله، وأفعاله، وإقراراته، وسكوته، وجميع أحواله، فكذلك الوارث، فإن كان في التحفظ في الفعل؛ كما في التحفظ في القول؛ فهو ذلك، وصار من اتبعه على هدى، وإن كان على خلاف ذلك صار من اتبعه على خلاف الهدى، لكن بسببه »[2] وقال في منهج اقتداء الصحابة برسول الله ﷺ: « وكانوا يبحثون عن أفعاله، كما يبحثون عن أقواله، وهذا من أشد المواضع على العالم المنتصب »[3].

وقال رحمه الله في تفصيل الخصائص المعرفة للعالم الرباني المنتصب، واصفًا إياه بأنه « يتحقق بالمعاني الشرعية منزلة على الخصوصيات الفرعية، بحيث لا يصده التبحر في الاستبصار بطرف؛ عن التبحر في الاستبصار بالطرف الآخر، فلا هو يجري على عموم واحد منهما، دون أن يعرضه على الآخر، ثم يلتفت مع ذلك إلى تنزل ما تلخص له على ما يليق في أفعال المكلفين (...) فهو صاحب التمكين والرسوخ، فهو

---

(١) جزء حديث رواه أحمد، والأربعة، وابن حبان. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم: (٦٢٩٧).

(٢) الموافقات: (٣/٣١٧).

(٣) الموافقات: (٤/٢٥٠).

الذي يستحق الانتصاب للاجتهاد، والتعرض للاستنباط ( )، ويسمى صاحب هذه المرتبة: الرباني، والحكيم، والراسخ في العلم، والعالم، والفقيه، والعاقل؛ لأنه يربي بصغار العلم قبل كباره، ويوفي كل أحد حقه، حسبما يليق به، وقد تحقق بالعلم وصار له كالوصف المجبول عليه، وفهم عن الله مراده، ومن خاصته أمران: أحدهما أنه يجيب السائل على ما يليق به في حالته على الخصوص، إن كان له في المسألة حكم خاص ( )، والثاني أنه ناظر في المآلات قبل الجواب عن السؤالات »[1].

ذلك هو عالِم البعثة إذن؛ داعية رباني حكيم، مجدِّد ومجتهد، منتصب للناس بعلمه وورعه؛ مُعَلِّمًا، وداعيًا، وهاديًا، ومربيًا.

وملاحظة السيرة النبوية تفضي إلى أن النبي ﷺ قد كوَّن عددًا كبيرًا من علماء الصحابة؛ كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وغيرهم كثير، جيل من العلماء الأئمة، كانوا فقهاء، وحكماء ربانيين، ولم يكونوا مجرد نقلة، بل أسهموا في بناء حضارة الأمة، ونهضتها الأولى.

وبعثة التجديد لن تكون إلا بمثلهم، منهجيًا؛ أي بقيادة علمية مستنيرة كمًّا وكيفًا فلا بد من عدد وفير من أهل العلم، من الذين يحملون الرسالة، ويشتغلون بالقرآن؛ تعليمًا، وتزكيةً، وتفقيهًا في الدين، وإن أولئك هم العلماء الربانيون؟ كما سبق قول أبي إسحاق الشاطبي رحمه الله: « الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره »، كما جاء في بعض تراجم الإمام البخاري رحمه الله[2]. والذين لا تشتتهم آحاد الجزئيات عن ملاحظة الكليات، ويراعون المآلات قبل الجواب عن السؤالات، إنهم قوم يحملون أخلاق النبوة علمًا وحلْمًا، ولقد ظن بعض أهل الخير من المشتغلين بالدعوة اليوم؛ أن الناس قد انصرفوا إلى طلب العلم الشرعي بوفرة زائدة عن الحاجة، ولا يزالون ينصحون الشباب بالعدول عن ذلك؛ بدعوى أننا في حاجة إلى الطبيب المسلم، والمهندس المسلم، والفيزيائي المسلم. وأقول: نعم، نحن في حاجة إلى كل أولئك وأضرابهم، لكن حاجتنا إلى (علماء البعثة) آكد وأشد، ودعوى حصول الكفاية من

---

(١) الموافقات (٢٣٢/٤).

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، (باب العلم قبل القول والعمل).

العلماء خاصة، فأولًا ليس كل من انتسب إلى العلوم الشرعية هو من علماء بعثة التجديد، بما ذكرنا وما وصفنا من مفهوم (العالمية) [1] . وإنما العلماء الفقهاء الربانيون مُوَرَّاث، كما سبق تفصيله، وليس العالم المتصف أو الوارث هو من جمع في ذهنه عددًا كبيرًا من المحفوظات والنكتات، ولكنه من أوتي حكمة التصرف في المعلومات، بما يناسب الزمان والإنسان، وللشيخ المقاصد أبي إسحاق الشاطبي كلمة ذهبية في هذا. قال رحمه الله: « إن على العالم الرباني أن لا يذكر للمبتدئ من العلم ما هو حظ المنتهي، بل يربي بصغار العلم قبل كباره، وقد فرض العلماء مسائل، مما لا يجوز الفتيا بها، وإن كانت صحيحة في نظر الفقه (.)، وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة، فإن صحت في ميزانها؛ فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله، فإن لم يؤدِّ ذكرها إلى مفسدة؛ فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها، إما على العموم إن كانت مما تقبلها العقول على العموم، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم، وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ؛ فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية » [2].

إن أمثال هؤلاء ليس منهم في الأمة إلا الندرة، بل القلة، بله الكثرة والوفرة، ولقد رأيتَ كيف أن رسول الله ﷺ قد خرّج للناس منهم جيلًا، فما بالك بزماننا هذا؟ وقد بلغ عدد المسلمين في العالم مليارًا ونصفًا، هذا إذا حددنا مخاطَبنا في المسلمين خاصة، وإنما الإسلام جاء لمخاطبة العالمين.

المَعْلَمُ الثالث: يُسْرُ الدَّعْوَةِ وبَسَاطَةُ المَفَاهِيم:

إن من أهم معالم البعثة النبوية؛ أنها تميزت باليسر، والسهولة في الخطاب، وفي التكليف، وهذا أمر مهم جدًّا؛ لضبط الاتجاه الدعوي المعاصر، ذلك أن بعض الحركات الإسلامية، إنما انغلقت على نفسها؛ بسبب عسر مفاهيمها، وتنطع فهمها، وما جرت عليه من حمل الناس على العنت، وقد تواتر في الدين مفهوم (رفع الحرج)، وما تعلق به من قواعد كلية، فالنصوص القرآنية والحديثية مجمعة على هذا المعنى؛ بما يجعله كلية قطعية من كليات الدين؛ دعوةً، وتكليفًا، فالخطاب القرآني صرح بذلك تصريحًا، ونص

---

(١) لك أن تنظره في كتابنا: « مفهوم العالمية »

(٢) الموافقات (٤/١٩٠، ١٩١)

الحق جل وعلا على اليسر بإطلاق، فقال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ٣٢] وقال جل وعلا في الآية الجامعة المانعة على سبيل الشمول والاستغراق ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨] إلخ.

ثم أوصى رسول الله ﷺ مبعوثيه إلى اليمن جابر بن عبد الله ومعاذ بن جبل فقال لهما: « **يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا** »[1]. وقال ﷺ: « **إِنَّ هذا الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلا غلبهُ فسدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَيَسِّرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ** »[2]. ومثله قوله ﷺ: « **يَا أيها النَّاسُ عليكُمْ مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ مَا دُووِمَ عَلَيْهِ وَإِنْ قَلَّ** »[3]. وروى الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « جاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تَقَالُّوهَا، وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدًا! وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر! وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا! فجاء رسولُ الله ﷺ إليهم، فقال: « **أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني** »[4] ومثل هذا في السنة كثير جدًّا؛ مما يفيد استقراؤه كليةً قطعية من كليات الدين، فوجب إذن أن يؤخذ على هذا الوزن: تكليفًا وتعليمًا، ودعوةً وتزكيةً، وما خالفه فإنه يُرَدُّ إليه.

ولذلك قال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله من بعدما سرد عددًا من أدلة اليسر والتيسير في الشريعة: « وهذا وأمثاله في الشريعة أكثر من أن يحصر، فمن قال: إن الله أمر العباد بما يعجزون عنه - إذا أرادوه إرادة جازمة - فقد كذب على الله ورسوله، وهو من المفترين »[5].

ولقد التقط أبو إسحاق الشاطبي هذا المعنى العظيم من القرآن، فجعله أصلًا من أصول المقاصد، حيث استعمل مصطلح (الأمية) في وصف الشريعة، لكن ليس بمعنى الجهل، وهذا أمر غلط فيه كثير من طلبة العلم، وحتى بعض الدارسين، ممن قرأه

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه البخاري.
(٣، ٤) متفق عليه.
(٥) مجموع الفتاوى: (٨/٤٤٠).

في كتاب الموافقات؛ فمن السذاجة أن يفهم عن أبي إسحاق رحمه الله أنه يصف الشريعة بالجهل، أو أنها غير صالحة إلا للعوام، كيف وهو شيخ المقاصد المجدد لعلم أصول الفقه؟! ولكنه استعمل مصطلح (الأمية) بمعنى السهولة والبساطة واليسر، في الفهم وفي التكليف، على ما أصّلنا قبلًا، فقد نقل المصطلح من دلالته اللغوية، الدالة على الجهل بالحساب والكتاب؛ ليستعمله في وصف الشريعة نفسها، لكن بدلالة أخرى اصطلاحية، على مفهوم منهجي، متعلق أساسًا بمعنى اليسر المشترك في التكليف، وفي تنزيل الشريعة. قال رحمه الله في المسألة الثالثة من كتاب المقاصد في الموافقات: « هذه الشريعة المباركة أمية »[1]. وهو ما فسره في موضع آخر بقوله « ربما أُخذ تفسير القرآن على التوسط والاعتدال، وعليه أكثر السلف المتقدمين، بل ذلك شأنهم، وبه كانوا أفقه الناس فيه، وأعلم العلماء بمقاصده وبواطنه، وربما أُخذ على أحد الطرفين الخارجين عن الاعتدال، إما على الإفراط، وإما على التفريط، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، فالذين أخذوه على التفريط قصروا في فهم اللسان الذي به جاء، وهو العربية، فما قاموا في تفهم معانيه ولا قعدوا! كما تقدم عن الباطنية وغيرها، ولا إشكال في اطراح التعويل على هؤلاء، والذين أخذوه على الإفراط أيضًا قصروا في فهم معانيه، من جهة أخرى، وقد تقدم في كتاب المقاصد بيان أن الشريعة أمية وأن ما لم يكن معهودًا عند العرب فلا يعتبر فيها »[2]

وهذا معنى عظيم؛ إذْ عدم اعتباره أدى بكثير من الناس إلى الزيغ عن جادة المنهاج النبوي الفطري، في الدعوة والتكليف، وإنما الأصول قائمة على حمل الناس على الوسط والتوسط والاعتدال، لا على الغلو سواء في ذلك الفهم أو التكليف.

فالداعية قد يؤدي به التمسك بآحاد الأدلة دون اعتبار كلياتها الأصولية إلى الانحراف في المنهج، كما أن مراعاة بعض الجزئيات في الفهم والإفهام، لا ينقض ما تقرر قطعًا في الكليات الاستقرائية، فقد تقرر مثلًا أن الدعوة يجب أن تقوم على منهج التيسير والتبشير؛ قصد التمكين من عموم التطبيق والتنزيل، فإذا وجد ما يخالفه حمل عليه وأرجع إليه، وعدم مراعاة ذلك يوقع في إشكالات منهجية، ويؤدي إلى مناقضة المشروع للأصول وهو محال، وقد وجدت - مثالًا على ذلك -

(١) الموافقات، (٦٩/٢).
(٢) الموافقات، (٤٠٩/٣)

نازلة من كلام للشيخ الداعية المجدد، والعالم المحقق، محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله، وجزاه عن الأمة خير الجزاء، إذ تشدد – على غير عادته – في إلزام ما لا يلزم في نازلة من بعض فروع العقيدة، فنحن والحمد لله على عقيدة السلف الصالح، فيما قرروه؛ استقراءً من نصوص الكتاب والسنة، من توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية، بما يتضمن ذلك كله من إثبات للأسماء والصفات، وعدم تأويلها، ولا تعطيلها، ولا تشبيهها.

ولكن، أن يصير الأمر في ذلك إلى تحقيق قضايا فوق طاقة الجمهور؛ فَهْمًا، وإدراكًا وتكليفًا؛ فهذا مما يكون القول بالتكليف به مناقضًا لأصول الدين وأصول الفقه معًا، كما قرره العلماء بقواعد الاستقراء القطعي، مما بينا سابقًا، إذ هو من باب (تكليف ما لا يطاق) وهو ممتنع في الدين، مرفوع في الشريعة أصولها وفروعها، ولقد قَبِلَ رسول الله ﷺ ظاهر الإيمان من الناس، ولم يحقق معهم جزئيات المعاني التي لا تطيق العقول البشرية إدراكها، ولا استحضارها، فيما ذهب فضيلة الشيخ الألباني رحمه الله – فيما سنورده – إلى حمل الناس على ذلك في خصوص هذه النازلة، ساخرًا من علماء الأزهر، وكل عالم لا يدرك ما أدركه من التكلف والتعمق، بل سفَّه أحلام بعض علماء العقيدة السلفية الذين لم يفهموا ما فهمه، جاء ذلك في فتوى من فتاويه رحمه الله نشرت مستقلة بعنوان: « التوحيد أولًا يا دعاة الإسلام »، ونحن أيضًا نقول بذلك على تمامه وكماله، ولكن بـ (المنهاج التربوي)، القائم على التوسط والاعتدال. قال رحمه الله: « إن عقيدة التوحيد بكل لوازمها ومتطلباتها؛ ليست واضحة – للأسف – في أذهان كثير ممن آمنوا بالعقيدة السلفية نفسها، فضلًا عن الآخرين الذين اتبعوا العقائد الأشعرية، أو الماتريدية، أو الجهمية؛ في مثل هذه المسألة، فأنا أرمي بهذا المثال إلى أن المسألة ليست بهذا اليسر، الذي يصوره اليوم بعض الدعاة، الذين يلتقون معنا في الدعوة إلى الكتاب والسنة، إن الأمر ليس بالسهولة التي يدعيها بعضهم، ولا يكفي أن يعتقد المسلم ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه ٥]. [و] « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »[1] دون أن يعرف أن كلمة (في) التي وردت في هذا الحديث ليست ظرفية،

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم، عن ابن عمر مرفوعًا، وقال الترمذي: حسن صحيح وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٩٢٥)، وفي صحيح الجامع الصغير (٣٥٢٢)

وهي مثل (في) التي وردت في قوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك ١٦]؛ لأن (في) هنا بمعنى (على)، والدليل على ذلك كثير، وكثير جدًا (...) ويُقرّب هذا حديثُ الجارية - وهي راعية الغنم - وهو مشهور معروف، وإنما أذكر الشاهد منه، حينما سألها رسول الله « أين الله؟ » قالت: « في السماء »[1] لو سألت اليوم بعض كبار شيوخ الأزهر - مثلًا - أين الله - لقالوا لك في كل مكان، بينما الجارية أجابت بأنه في السماء، وأقرها النبي ﷺ؛ لأنها أجابت على الفطرة (...) لأنها لم تتلوث بأي بيئة سيئة؛ عرفت العقيدة الصحيحة التي جاءت في الكتاب والسنة، وهو ما لم يعرفه كثير ممن يدعي العلم بالكتاب والسنة »[2]. كذا!

قلت: هذا كلام - من حيث الأصل - صحيح؛ ولكن التكليف به، والاشتغال به، تربيةً ودعوةً؛ غلو شديد، وتتبع مثل هذه الدقائق في تجديد الدين - وجدانًا وعملًا - مخالف لما جاء به الإسلام من التيسير وعدم التعسير، كما سبق بيانه بالقواعد القطعية؛ فالعقيدة إنما هي عبادةٌ خوطب بها كل الناس العالِم والعامي كلهم في ذلك سواء، وأخذُ الناس بمثل هذه الدقائق؛ إنما هو حملٌ لهم على ما لا طاقة لهم به، فالعقيدة التي (لا يعرفها) علماء الأزهر، ولا أهل التدين السليم، ولا كثير من أهل العقيدة السلفية؛ إنما هي مجال لا تكليف به أصلًا، وإن رسول الله ﷺ قَبِلَ من الجارية ظاهر خطابها، ولم يوقفها ليحقق معها معنى (في) أتعني الظرف الداخلي؛ أم الخارجي؟ أي: هل هي بمعنى (داخل) أم بمعنى (على)؟! فهذا تحكُّمٌ في النص، ثم إنما مرجع ذلك - في نهاية المطاف - إلى تحكيم العقول في الاعتقاد، وهو باطل شرعًا وعقلًا، وإنما هي أسماؤه الحسنى وصفاته العلى، نؤمن بها كما وردت، نأخذها على حقيقتها، بما لا يعطلها، ولا يؤولها، ولا يشبهها، عقيدةً فطريةً بسيطةً، بلا تحكم، ولا تعقيد. وما خاطب رسول الله الجمهور، ولا أحدًا من خواص الصحابة بمثل ذلك قط.

نعم، إن الفطرة المسلمة السليمة تتلقى معنى (في) الوارد بالآية والحديثين

---

(١) رواه مسلم.

(٢) التوحيد أولًا يا دعاة الإسلام (٢٥ - ٢٩)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض. ط. الثانية (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م).

المذكورين؛ بمعنى (على)، ولكن على غير منهج جدلي؛ بل يكفي في ذلك أن يكون بمنهج تربوي، كما كان الشأن في زمن الصحابة والتابعين؛ لأن المنهج التربوي يعمر القلب معرفةً بالله تعالى، فيعظمه جل وعلا خشيةً وإجلالًا؛ وينزهه عن أن يحاط به سبحانه، بل هو تعالى بكل شيء محيط. ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت: ٥٤]

فليس كل شيء يتناوله البحث، ويصح في التحليل والاستدلال؛ يصلح ليكون مادة للدعوة والتربية، ومقصدًا شرعيًّا يخاطب به عموم الناس. إن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن تبعهم على منهجهم؛ إنما كانوا على عقيدة سلفيةٍ موضوعًا؛ تربوية منهجًا، لا على عقيدة سلفيةٍ موضوعًا، جدليةٍ منهجًا، وفرق بينهما كبير

إن (العقيدة السلفية موضوعًا؛ التربوية منهجًا) هي التي وردت في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وهي التي خُرِّجت جيل الصحابة والتابعين، وسائر العلماء الربانيين، وهي التي أطاق الجمهور من المسلمين اعتقادها والعمل بها، وكانوا بها صالحين.

فلم تكن البعثة المحمدية إلا بسيطة وسهلة، وميسرة تيسيرًا في الفهم والعمل، ولا نجاح لعمل دعوي يخرج عن هذا المنهج؛ ولذلك كان هذا مَعْلَمًا من معالم (بعثة التجديد)، فحاجة العالَم اليوم إلى الدين شديدة، وعودة الناس إلى الله رغبة أكيدة، وهي كامنة في الوجدان الإنساني، تنتظر أهل البعثة ليكتشفوها، وينزلوا عليها كتاب الله طريةً ندية، وأما التعقيد فلا يجعل ماءها إلا غورًا، فلا يستطيع المعنتون له طلبًا

الْمَعْلَمُ الرَّابِعُ: التَّنْظِيمُ الفِطْرِيُّ:

وأحسب أن هذا المَعْلَمَ هو من ألطف حِكَم البعثة المحمدية، فقد كان رسول الله ﷺ منظمًا في عمله كله، لا ارتجال فيه ولا فوضى، ولا اضطراب ولا عبث، بل كل خطوة من خطواته ﷺ كانت بحسابها؛ إذ « كَانَ خُلُقُهُ القرآنَ »[1]

---

(١) رواه مسلم

والقرآن نظام بديع، بل هو أبدع نظام؛ مبنى ومعنى، عقيدةً وشريعةً، لغةً وجمالاً، وهو الذي فيه قول الله تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ [لقمان ١٩]. كما أن سيرة الرسول ﷺ نظام كلها، وحكمة جميعها، ومن هنا كان إنكار تنظيم الدعوة إلى الله، والعمل الإسلامي التجديدي؛ غباءً وجهلاً بالدين، وانحرافًا عن سنن الله في الكون وفي المجتمع، وهي المبثوثة في الكتاب والسنة، أو ربما كان موقفا سياسيًا مريبًا؛ للتشويش على العمل الإسلامي، وإرباك عمله الدعوي، ليس إلا.

لكنَّ التنظيم ذا الصيغة الميكانيكية، كما اعتمدته أغلب الحركات الإسلامية المعاصرة؛ صار إلى ما ذكرناه من الحزبية الضيقة؛ إذ آل أمره إلى محاصرة الدعوة الإسلامية حصارًا ذاتيًا، فصار كثير من الإسلاميين بذلك يعيشون في منفى اختياري، بين شعوبهم ومجتمعاتهم بسبب الغلو في بناء التنظيمات، والمبالغة في تسوير الجماعات، على طريقة المنظمات العربية، كيف الحل إذن؟ إنه الوسط؛ الوسط دائمًا حل لكل انحراف سببه الغلو؛ ولذلك جعلنا تسمية هذا المفهوم بـ « التنظيم الفطري »؛ تحرزًا عن « التنظيم الحزبي » أو « الميكانيكي »، الذي أغلق الدعوة وحاصر الدعاة، وأجبرهم على الإقامة داخل أفكارهم وهياكلهم، بصورة آلت في نهاية المطاف إلى ما سميناه بـ « الاستصنام المنهجي » لتلك الأجسام (1).

إن « التنظيم الفطري » هو النسق الديني الجميل الذي ينظم العبادات، والمعاملات، وسائر بنى المجتمع في الإسلام، كما يتجلى ذلك مثلاً في صلاة الجمعة والجماعة، وهو الذي طبع مدارج الدعوة الإسلامية في السيرة النبوية خلال صيرورتها، وعبر كل مراحلها، فالتنظيم الفطري عمل ديني محض، غايةً ووسيلةً؛ إذ هو قائم أساسًا على تجديد الدين في ذاته ولذاته، إنه إذن تنظيم الإسلام - من حيث هو دينٌ - للإنسان فردًا وجماعةً؛ ولذلك فهو يندمج بصورة تلقائيةٍ سلسةٍ في نظام الصلوات، وفي نظام الجُمَعِ الجماعات، وفي عُمْرَانِ المساجد ومجالس القرآن. إنه التنظيم الذي يؤطر سائر العبادات في الإسلام أصولها وفروعها، ثم يسري بعد ذلك في خلية الأسرة بناءً وتجديدًا، ليمتد إلى تجديد نظام النسيج الاجتماعي بأكمله؛ بإعادة إنتاج نُظُمِهِ المختصة ببناء العلاقات الاجتماعية العامة، على موازين الدين

---

(1) الأخطاء الستة للحركة الإسلامية بالمغرب

فَهَيْكَلَتُهُ هي هيكلةُ الشريعة نفسها، وإدارته هي نسيج العلماء والدعاة الحكماء، وسائر الفاعلين والمتفاعلين مع نُظُم الإسلام دينًا ودعوةً، كُلٌّ يَحُلُّ بالمحل الذي أحلته فيه أحكام الشريعة بصورة تلقائية طبيعية، تمامًا كما يتخذ المصلي – في الجمعة أو في الجماعة – مكانه من الصف، أو من المجلس بصورة طبيعية، ليجد نفسه في المحل الذي وجب أن يحل فيه.

ومن هنا فارق التنظيمُ الفطريُّ التنظيمَ الحركيَّ الميكانيكيَّ، فالفطريُّ دينٌ بذاته؛ ولذلك لم تكن الدعوة إليه وبه إلا عبادةً لله رب العالمين، وأما الميكانيكي فالدعوة به مغامرة؛ إذْ كثيرًا ما تَنْحَرِفُ بصورة تلقائية إلى الدعوة إليه، وهو ليس بديني في ذاته، بل هو عمل بشري محض، فتحصل المفارقة العجيبة؛ حيث يَنْقُضُ الفرعُ أصله، وتتحول الوسيلةُ غايتَها، بما يرسخه التنظيم الميكانيكي من وثنية حمية في أهله وأنصاره، فيصير حجابًا مانعًا من رؤية مقاصد التعبد في العمل الحركي؛ ومن ثم يكون الانحراف

وعليه؛ فالقيادة الشرعية للعمل الإسلامي – على خلاف السياسية المحضة يفرزها علمُها وورعُها، وتصنعها تجربتُها، فتنتصب للناس هنا وهناك بلا حرص، وتؤم المجتمع بصورة طبيعية تلقائية، بلا تحيل، ولا تشبح، ولا قتال، لا تفرض نفسها فرضًا، ولا تسعى إلى ذلك قصدًا، وإنما الناس هم الذين يطلبونها؛ لما فاض عنها من العلم والهدى، ولما انبعث عنها من أخلاق النبوة، وكذا ما تحقق فيها من برهان « الإرث النبوي »، (فالعلماء ورثة الأنبياء) كما سبق بيانه بأدلته ومقاصده

هل وصل أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد إلى إمامة الناس بانتخابات حرة أو مقيدة؟ وقبلهم قياداتُ التابعين، ثم قبلهم أصحابُ رسول الله ﷺ، وخلفاؤه الراشدون؛ ألم يكن الوجدان الإسلامي مجمعًا عليهم قبل توليهم، وبعد توليهم؟ ألم يكونوا أئمة في عهد رسول الله ﷺ؟ أليسوا هم أهل شوراه ﷺ وأهل الحل والعقد عنده؟

إن أئمة بهذه التحديد لا تصنعهم الانتخابات الراجعة إلى أصوات العوام، ولا الديمقراطيات التي قد تُغَلِّبُ الخبثَ على السمين، وتنصر الباطل على الحق؛ بمجرد كثرة الخبث، وغلبة أهل الباطل عددًا، وذلك لعمري هو غاية الفساد، وإنما الحكمُ في

إمامة « بعثة التجديد »، أو « دعوة الإسلام » هو قاعدةُ المحدثين المشهورة « إن هذا العلم دين؛ فانظروا عمن تأخذون دينكم »[1].

وركنان عظيمان في الشخصية الإسلامية القيادية، لا يجوز تخلفهما فيمن ينتصب لإمامة التجديد « القوة والأمانة » . فهما أساس الولايات الشرعية في الدين. قال تعالى ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦]. وهو ما صار مرجع المحدِّثين في تقويم الشخصية الإسلامية بخاصيتي « الضبط والعدالة ».

ذلك إجماع السابقين، في التأمير والتقويم، ولا خير في بدع اللاحقين.

وعليه، فالتنظيم الفطري عمل دعوي يجمع بين التلقائية وبين التوجيه، كما يجمع بين البساطة وبين العمق، وهو عمل تعبدي بذاته، ومسلك إيماني بطبيعته، ولذلك فهو يقوم على ركنين أساسين، الأول منهما بشري، وهم حُمَّالُ الدعوة من الفاعلين فيها والمتفاعلين معها. والثاني: معنوي، وهو الإطار الروحي التداولي للرسالات الدعوية. وبيان ذلك هو كما يلي:

الركن الأول

مجموع الأئمة المنتصبين للبعثة، باصطلاح الشاطبي الآنف الذكر، كل منهم محور للعاملين والمتعلمين، يقومون فيهم مقام النبي ﷺ، كما حدده القرآن، بلا ابتداع ولا تضليل، ولا ترسيخ لوساطات الأشياخ والأقطاب والأبدال. وإنما هم الربانيون وُرَّاثُ النبوة، كما سبق وصفهم بأدلته، تتحدد علاقاتهم جميعًا في ذلك - علماء ومتعلمين - بقول الله تعالى ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] فـ « التعليم والتزكية » هما مناط « القوة والأمانة »، اللذين يقوم عليهما بناء الأمة الإسلامية في بعثة التجديد، تمامًا كما قام في البعثة الأولى. ولمفهومي « التعليم والتزكية » تفصيل بيانه في غير هذا المكان، فلا حاجة للتكرار[2]. فالعلماء الربانيون، أو الوُرَّاثُ المنتصبون، هم الركن الأول

---

(١) هذه القاعدة في علم الجرح والتعديل، رويت عن غير واحد منهم. فقد أخرجها مسلم بسنده عن محمد بن سيرين، لمقدمة صحيحه (باب بيان أن الإسناد من الدين). كما أخرجها ابن عبد البر عن مالك رحمه الله. التمهيد: (٤٧/١).

(٢) د. بلاغ الرسالة القرآنية: (١٠١- ١٠٥)

عمل الميكانيك والنظام الحزبي الذي يمنع كل حركة لم تنتج عن حركته، ومثل هذا لا ينتج بعثة، ولا تجديدًا، وإنما قد يحفظ للأمة بعض المصالح إلى حين، كما قد يجر عليها من المفاسد ما يفوق تلك المصالح في بعض الظروف، أما محرك البعثة التي تنظم العمل الدعوي بشكل تلقائي؛ فإنما هي منهج الاشتغال بالقرآن تداولًا كما بيناه.

إن «التَّداوُلِيَّة القُرْآنِيَّة» هي التي صنعت المجتمع الإسلامي الأول، على يد رسول الله ﷺ، وهي التي حضّرت جيل الهجرة، وخرّجت رجاله «الأقوياء الأمناء» بمجالس القرآن، من دار الأرقم بن أبي الأرقم ومن بين شعاب مكة، وهي التي صنعت الدولة الإسلامية الأولى؛ انطلاقًا من مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة.

إن بث بصائر الآيات في المجتمع، عبر شبكة العلماء الربانيين، المنظمين بهندسة القرآن الدعوية؛ يكفيك ويغنيك عن تأمير الأمراء بصورة ميكانيكية، وانتخاب النقباء، وإنشاء الخلايا المغلقة، فالقرآن وحده نظام البعثة وتنظيمها؛ لكن لو كان له مهندسون مبصرون، فالتنظيم الحزبي له مصالحه وله مفاسده، والتنظيم الفطري يجلب تلك المصالح، ويدرأ تلك المفاسد.

ولا يصلح للدعوة غير ذلك؛ إذ كان المقصود الاستجابة لداعي بعثة التجديد، فتدبر سيرة رسول الله ﷺ في بث الإسلام بين الناس، وفي تربيتهم على مبادئه، إنما كان يؤمِّر «القُرّاء» وهم العلماء بالقرآن، ويرسلهم إلى الأمصار، ويختار من أصحابه أعلمهم وأحكمهم؛ للمهمات القيادية، والأمور الصعبة، وجاهد بذلك المنهج السهل البسيط، يكتشف الطاقات ويؤهل القيادات، ويبلغ بها رسالة القرآن؛ تدور في تداولية شاملة، بصورة حلزونية منفتحة أبدًا، تستوعب المجتمع شيئًا فشيئًا، حتى نزل قوله تعالى ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر: ١-٣]

إن المراهنة على الهياكل التنظيمية، ذات التركيبة الحزبية الميكانيكية؛ لإقامة الدين بصورة كلية؛ هي مغامرة خاسرة، حتى ولو وصلت إلى امتلاك السلطة؛ إذْ لا يمكنها أن تحمل الناس على الدين حملًا، ولا أن تجعله حركة وجدانية في المجتمع، ولا هي

قادرة أن تستوعبهم دعويًا ولا تربويًا، فتنظيمها الحزبي هو بطبيعته نموذج تجريبي، فلم يصنعه الفكر البشري ليستوعب الجميع، بل ليستوعب فئة محدودة جدًا من الناس، ويبقى المجتمع بعيدًا عن هموم التنظيمات والأحزاب، وصراعاتها.

فدع مصادر القرآن العظيم، تصنع خرائطها الفطرية في المجتمع، كل المجتمع، وتبسط هندستها العمرانية بين شرائحه، كل شرائحه.

وإنما خلايا التنظيم الفطري هي « مجالس القرآن »، من الفرد إلى الأسرة، إلى المجموعات إلى المؤسسات، وإنما رأسه العام هو « التداول الاجتماعي » التربوي للآيات والسور، وإنما مقراته هي المساجد، وإنما قياداته هم العلماء العاملون، والحكماء الربانيون، المتصدون للبعثة والتجديد.[1]

وذلك كل السر في القرآن! ذلك هو الحبل القوي، الرابط بين الناس، الصانع لنسيجهم الاجتماعي، بما يفوق قدرة الحركات والتنظيمات، وتدبر حديث رسول الله ﷺ: **« كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض »** [2] ويفسره حديثه الآخر حينما خرج على بعض أصحابه بالمسجد، فقال عليه الصلاة والسلام: **« أبشروا! أبشروا! أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ »** قالوا: بلى، قال: **« فإن هذا القرآن سبب، طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبدًا! »** [3].

أما أهل البعثة من العلماء العاملين، والربانيين المتفاعلين: فلا بد من اجتماعهم على كلمة سواء، في بناء المنهج وبعث المجالس، وبث نشاطها ومواجهة تحدياتها، بما يكفل تحقيق « بعثة التجديد »، ويصنع للأمة رجالها من داخل المجتمع. لا بد من تأليف الكلمة، وترتيب المسيرة؛ لتنطلق البعثة عبر مدارجها، ومراحلها، وفقه

---

(١) ن. ذلك مفصلًا في « مجالس القرآن ».

(٢) رواه الطبري عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٧٣). وقد روى الترمذي نحوه في جزء حديث له عن زيد بن أرقم مرفوعًا وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٥٨).

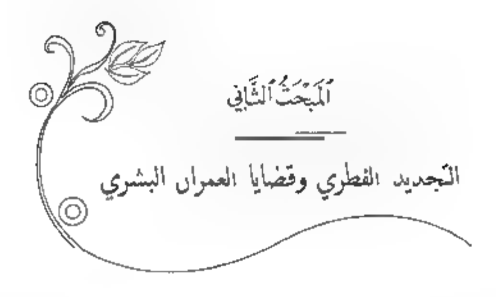
(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في شعبه، وابن أبي شيبة في مصنفه، والطبراني في الكبير، وعبد بن حميد في المنتخب من المسند وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧١٣).

أولوياتها، من المجالس إلى المدارس، ومن عمران الإنسان إلى عمران السلطان.

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف ٢١]

ذلك ما يسّر الله تقييده هاهنا من هذا المَعْلَم اللطيف. وقديمًا قالوا: «يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق» كذلك، وإنما الموفق من وفقه الله.

• • •



المَبْحَثُ الثَّانِي

التجديد الفطري وقضايا العمران البشري

ليس المقصود بالعمران في اصطلاح هذا الكتاب هو تخطيط البناء المادي وهندسته فحسب، كلا، وإنما المقصود به هندسة المذهبية الحضارية الكامنة في الإنسان، التي كان عمقتصاها كما كان.

العمران إذن هو بناء الإنسان، بما هو عقيدة وثقافة، وبما هو حضارة وتاريخ، وبما هو فكر ووجدان، وبما هو نفس ونسيج اجتماعي.

وكما يكون فكر الإنسان وتصوره للحياة؛ تكون عمرته المادية؛ فالمادة في هذا تبع للفكر. وكما كانت بعثة محمد بن عبد الله ﷺ تقوم على نظام أولويات؛ فكذلك كل بعثة تجديدية يجب أن تقوم على ذلك النظام من الأولويات، بلا حرفية ولا ظاهرية، وإنما بمنهجية مقاصدية؛ حفاظًا على سر الإرث النبوي، وطلبًا للصواب في المنهج، ورغبةً في استجابة النتائج بإذن الله.

ودور الجيل الجديد اليوم هو تجديد ذلك العمران، بدءًا بتجديد الإنسان ككيان، حتى تجديد السلطان كمفهوم.

الإنسان هو أهم عناصر العمران، وأول مرتكزاته، فهو الذي يعطي لبناء معناه العمراني، وقصده الكامن فيه هو الذي يجعله مسجدًا أو خمارة. قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨] الإنسان إذن؛ هو أساس العمران؛ ولذلك كان محل خطاب الرحمن بالقرآن

و « العمران القرآني » له قضايا رئيسية في بناء النفس والمجتمع، إليها تستند هندسته، وعليها يقوم بناؤه، فهي التي كانت تمثل اللبنات الكبرى في بناء البعثة المحمدية وعمارتها، عليها كانت تدور أولوياتها، التي نحسب أنها ثابتة لا تتغير بعصر ولا تتبدل بعصر وهي التوحيد بما هو إخلاص، والعبادة بما هي شعائر، والمجتمع بما هو علاقات ومؤسسات، ثم علم الدين بما هو إطار للتجديد والاستمرار وغاية ذلك كله هو إقامة العمران الوجداني والمادي؛ لعبادة الله الواحد القهار. وبيان تلك القضايا – على الإجمال – هو كما يلي:

القضية الأولى: التوحيد:

وذلك بالدعوة إلى عقيدة السلف الصالح، تعليمًا وتزكيةً، كما قررها القرآن، وكما كانت في الصدر الأول من الإسلام، عند الصحابة والتابعين، لكن ليس بالمنهج الجدلي الكلامي، الذي آلت إليه عند المتأخرين الجدليين، كلا فذلك هو أيضًا ابتداع في المنهج وإنما بالمنهج القرآني التربوي، الذي يقوم على التعرف على الله والتعريف به، تربيةً وتزكيةً؛ لتحصيل الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة؛ عبادةً لله الواحد القهار، وذلك من خلال استغلال المقاصد التعبدية، والأهداف التربوية للأسماء الحسنى والصفات العلى، وليس بالجمود على استظهار الحدود والتعريفات لمفاهيم الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، على وزان فصول المناطقة ورسومهم، فذلك منهج عقيم لم يزد الأمة إلا خبالًا، وإنما باستثمار ذلك عقيدةً تربوية، تملأ القلب علمًا وورعًا، وتنتج خُلُقًا قرآنيًا في النفس وفي المجتمع [1] والبناء القرآني للتوحيد هو الكفيل بتكوين الشخصية المسلمة، الجامعة لصفتي (القوة والأمانة)، اللتين بهما يكون الإنسان المسلم كما سبق بيانه - فاعلًا في التاريخ أو لا يكون؛ إذ إن (التوحيد) من حيث هو منهج القرآن في التعرف إلى الله والتعريف به، الذي هو جوهر المنهج السلفي الأصيل؛ يُخَرِّج من العامة أجيال الربانيين، ومن القادة الفقهاء العاملين. واجتماع العامة والخاصة على هذه (الثنائية التربوية) المطيمة؛ هو خير ما يقوم عليه النسيج الإسلامي السليم، ومن لم يراع ذلك كان عمله محرومًا من إحدى الجهتين. والغرض من « التوحيد » – بالمفهوم الذي وصفنا من التحلق بأخلاق القرآن هو

(١) بلاغ الرسالة القرآنية: (٥ – ٥٨)

الكفيل بالجمع بينهما في التربية القرآنية. ولنا هاهنا كلمة ذهبية جمعت بينهما، رويت بأسانيد صحيحة عن عدد من الصحابة، منهم الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، في أثر صحيح مبيح، قال ﷺ: « المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة »(١)

القضية الثانية: العبادة:

وأهم رموزها **فريضة الصلاة**. فالصلاة هي عماد الدين، وهي العهد الذي بين الرسول وبين المسلمين، لكن تجديد الصلاة إنما معناه بعث مضمونها في الأمة وإحياء دورها العظيم الواصل بالله، الناهي عن الفحشاء والمنكر، والحافظ لحدود الله، وإحياء عمارتها ومركزيتها، من المساجد والجوامع، وإظهار ما تبثه من مقاصد في المجتمع ومهم جدًّا أن تعلم أن أول عمل في الإسلام - بعد الإيمان - أُمِرَ به رسول الله ﷺ هو الصلاة، وأول عمارة بناها النبي ﷺ في الإسلام هي المسجد، فتدبر هذا ثم أبصر، واقرأ مقاصد الحديث العجيب؛ إذ قال ﷺ: « **أتاني جبريل في أول ما أُوحي إلي، فعلمني الوضوء والصلاة** »(٢).

الصلاة مفتاح صلاح المجتمع، وأول أعمال التجديد فيه، وبقدر إقبال الناس عليها يكون تقويم مراحل البعثة، ومعرفة ما قطعته من أشواط. نعم الصلاة من حيث هي عبادة، لا من حيث هي عادة، يمارسها المسلم كما يمارس عادة شرب القهوة، أو قراءة جريدة الصباح والمساء، بل الصلاة بما هي رباط وجداني وحركة فردية وجماعية تصل الناس بالله عقيدةً وشريعةً، وتصنع عمارتهم الإيمانية في طريق بعثة التجديد(٣) ولك أن تتدبر حديث رسول الله ﷺ: « **ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط! فذلكم الرباط! فذلكم الرباط!** »(٤) وحديثه ﷺ الذي جعل

---

(١) رواه الطبراني في الكبير. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله موثقون. كما رواه ابن النجار عن أنس ﷺ بلفظ: (العلماء) بدل (الفقهاء). وقال العجلوني في كشف الخفاء: رجاله ثقات. كما روى نحوه الديلمي عن علي كرم الله وجهه.

(٢) رواه أحمد والدارقطني، والحاكم. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٧٦).

(٣) ن. قناديل الصلاة للمؤلف، وبلاغ الرسالة القرآنية (٧٠ - ٨٠).

(٤) رواه مسلم.

الإسلام بيتًا (وعموده الصلاة) [1] فمن هاهنا البدايات والمنطلقات؛ لعمران الوجدان وبناء الإنسان. لمن يدرك حقًا. كنه تصميم هندسة القرآن، وكيف تقوم أركان بعثة التجديد في المجتمع

القضية الثالثة: المجتمع:

ونواته الأولى إنما هي « الأسرة » بالمفهوم الإسلامي: فالأسرة مفتاح فريد لكل تجديد. الأسرة هي أساس المجتمع، والخلية الأولى من نسيجه الكبير، بتماسكها يتماسك المجتمع كله، وبتمزقها يتمزق كله، ثم ببقائها سليمةً معافاةً يَسْلَمُ التدين ويستمر، وبفسادها أو خرابها يفسد ويخرب، ألم تر أن الله ﷻ قد أعطى للأسرة أولوية الأولويات في التشريع القرآني؟ فبينما أحال كثيرًا من بيان تفاصيل التشريعات الأخرى بما في ذلك أركان الإسلام وفرائضه الكبرى على بيان السنة، أو استنباط الاجتهاد، وإنما اكتفى في القرآن بتشريع مبادئها وأصولها، فبينما تولى جل وعلا - بنفسه سبحانه تفصيل قضايا الأسرة في القرآن العظيم، وبين فيه أحكامها الكلية والجزئية؛ إلى درجة من التفصيل لم تكد تبقي للسنة من ذلك إلا قليلًا، ولم تكد تبقي للاجتهاد بعدهما شيئًا.

إن هذا التصنيع الرباني في حد ذاته خطاب منهجي؛ لمن فكر في تجديد العمران.

ولقد شهد التاريخ أن الدين في بعض البلاد الإسلامية، التي ابتليت بسيطرة الإلحاد على المستوى الرسمي للدولة؛ لم تحفظه لا هيئة كبار العلماء، ولا وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ولا الجمعيات والجماعات الإسلامية، القديمة والحديثة وإنما حفظه الله بالأسرة، هذه الخلية الدعوية العجيبة، التي بقيت على فطرتها الدينية، وأساسها الإسلامي. كما كان الشأن في الجمهوريات الإسلامية، التي بقيت ردحًا من الزمن ليس باليسير، تحت الحصار الحديدي لدولة الإلحاد الكبرى (الاتحاد السوفياتي) البائد، وكذا صنوه (الاتحاد اليوغوسلافي) فقد انبعثت الحياة الإسلامية في تلك الجمهوريات من جديد، في غياب المؤسسات الدينية الممنوعة، وغياب كل أشكال التدين الدني والدعوي سواء؛ ولم يبق لديهم من الإسلام إلا نظام حياتهم

(١) جزء حديث، أخرجه أحمد، والترمذي، والحاكم، وابن ماجه، والبيهقي، والطبراني، عن معاذ مرفوعًا وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

الخاص بالأسرة، وثقافتها الدينية المتوارثة، وكان ذلك وحده كفيلاً بحفظ جمرة الإسلام متوقدةً عدة أجيال تحت رماد الكفر والإلحاد؛ لذلك كان التشريع القرآني يخص أحكام الزواج والطلاق والمواريث، وما تفرع عنها جميعًا؛ بترسانة عظيمة من الحدود، جعلها لله من حماه ومن محارمه. وإنما تقوم بعثة التجديد بإعادة بناء كل المفاهيم الإسلامية، المتعلقة بالأسرة في النفس وفي المجتمع، وإعمال تجديد هذه المعاني في الأمة لن ينتج عنه بعثة شاملة كاملة.

وللأسرة في الإسلام قيمتان أساسيتان، لابد من الانتباه إليهما عند التجديد

الأولى: قيمة العرض:

وذلك على ما قرره علماء المقاصد في أصول الضروريات الخمس. وإنما العرض قيمة خلقية، ترجع إلى أخلاق إسلامية كثيرة، من أهمها: الحياء والغيرة؛ فأما الحياء ففيه من النصوص ما يكفي؛ لجعله كلية من كليات الأخلاق في الإسلام. ومن أجمع ما ورد في هذا حديث النبي ﷺ: «**إن الحياء والإيمان قرنا جميعًا، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر**»[1]. ومثله قوله عليه الصلاة والسلام: «**إنَّ لكل دين خُلُقًا، وإنَّ خُلُق الإسلام الحياءُ**»[2]. وأما الغيرة فيكفي فيها حديثه ﷺ أيضًا: «**إن الله تعالى يَغارُ، وإن المؤمن يغار. وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه**»[3]. وشرع لحفظ ذلك عددًا من التشريعات، مما يتعلق بأركان الزواج وعقوده وآدابه، وكذا بعض الحدود الراجعة إلى صونه من كل تلوث، كحد الزنى وحد القذف، والعبرة الآن ليست طمعًا بالحدود، وإنما بالمعنى الذي من أجله شرعت تلك الحدود، وذلك هو مجال العمل الدعوي.

الثانية: قيمة الرَّحِم بمعناه الاصطلاحي الشرعي. و«الرَّحِمُ» مفهوم كلي في الدين، يقوم عليه عدد كبير من الأحكام الشرعية، التي تنظم الحياة الزوجية بما يضمن استمرار هويتها الإسلامية، وانتسابها الديني في ذريتها إلى يوم القيامة. فالرحم ليست

---

(١) رواه الحاكم، والبيهقي عن ابن عمر. وصححه الألباني. انظر حديث رقم: (١٦٠٣) في صحيح الجامع.

(٢) رواه ابن ماجه. وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) متفق عليه.

هي ذلك الغشاء الليفي الداخلي الذي يحتضن الجنين في بطن أمه فحسب، ذلك معنى لغوي صرف، وإنما المقصود بالرحم في السياق التشريعي هو: مجموع العلاقات الشرعية التعبدية، التي تنشأ عن الزواج الشرعي، وعما يترتب عنه من نسل؛ وهي علاقات الأُبوة، والأُمومة، والبنوة، والجُدودة، والعمومة، والخؤولة .. إلخ. وهذه علاقات تعبدية، بمعنى أنها راجعة إلى اعتبار الشرع لها بالدرجة الأولى، لا إلى مجرد الاعتبارات الطبيعية والبيولوجية، فأنت ترى أن ابن الزنى هو ابن بيولوجي حقيقي، لكنه مع ذلك لا يلحق بوالده شرعًا، وإنما يلحق بأمه ضرورةً. فتبين أن العلاقات الرحمية إنما تعتبر باعتبار الشرع، وهذا هو المعنى التعبدي لمفهوم الرحم. ومن هنا كانت شعيرةً من شعائر الإسلام، يُعبد الله بها إنتاجًا شرعيًّا أولًا، ثم برًّا وتوقيرًا، ثم خدمةً وصلةً؛ لأن في تأسيسها وإنتاجها تأسيسًا للدين، وإنتاجًا لمفاهيمه في النفس وفي المجتمع، وفي صلتها صلةً لأصرته الإيمانية في الأجيال.

ومن هنا فقد قرنها الحق سبحانه وتعالى بأصل التوحيد، الذي هو أصل الأصول في الإسلام؛ لما لها من أثر بالغ في حفظ الدين واستمراره في المجتمع. وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١] فتقوى الرحم راجعة إلى حفظ حقوقها الشرعية، وصيانة أحكامها الكلية المنوطة بها تعبدًا لله رب العالمين، فهي إذن شعيرة يعبد الله بها أصالةً باستمرارها يستمر الدين وبانقطاعها ينقطع؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣٤] وفي الحديث القدسي: قال الله تعالى: **« أنا خلقت الرحم وشققت لها اسمًا من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته، ومن بتّها بتته »**(١)

وقال رسول الله ﷺ: **« ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء. هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم**

---

(١) أخرجه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم، كلهم عن عبد الرحمن ابن عوف. كما أخرجه الحاكم عن أبي هريرة. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

يقول: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠] »(١).

وأحسب أن قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ [الأحزاب: ٦] يتجاوز في مقاصده القرآنية الكبرى قصد تشريع أحكام المواريث، إلى مقاصد الأولويات المعنوية التربوية والروحية، التي تقضي بإدماج النسب - من أهل الرحم الواحد - بعضه في بعض، ورصّ علاقاته التعبدية بعضها فوق بعض؛ تمتينًا لحصن الأسرة الديني، وحفظًا لسياجها الروحي العظيم.

وعليه فإن استمرار « الأسرة » بمفهومها الإسلامي: هو الذي يضمن نماء ثقافة « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » على المستوى الشعبي، ذلك أن التحصينات الأسرية تربي ذوق الجيل؛ بما ينكر كل ما خالف « معروفه »، وينتصر لكل ما وافقه. وبذلك كله تبين لماذا جعلناها أساسًا من أسس العمل الدعوي في بعثة التجديد خاصة في هذا العصر الذي صارت مفاهيمها الشرعية عرضة للاجتثاث والتدمير، سواء على المستوى التشريعي القانوني، أو على المستوى الأخلاقي التربوي

القضية الرابعة: علم الدين:

من المعلوم أن « ترجمة » الإمام البخاري، مشهورة جدًا في كتاب العلم من صحيحه؛ لباب: (العلم قبل القول والعمل؛ لقول الله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] فبدأ بالعلم)(٢) والعلم باعتباره قضية من قضايا « بعثة التجديد » ركن من أعظم أركان البعث والإحياء: غايةً ووسيلةً، فبالعلم كانت هذه الأمة، وبه تكون مرة أخرى بحول الله

والطريق العملي لذلك يكون ببناء أمرين اثنين في العلم، هما التأهيل والتأصيل

فالتأهيل: راجع إلى مشروع تكوين نُخَب من الشباب في العلوم الشرعية، ممن ظهرت فيهم مخايل العبقرية في طلب العلم؛ حتى يتحققوا بمفهوم العلمية بكل

---

(١) متفق عليه

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم

معانيها التخصصية والتربوية، ويكونوا بالفعل أهلًا للاتصاف بلقب « عالم » عن جدارة واستحقاق، على مستوى الملكة الفقهية، والربانية الإيمانية، والقدوة التربوية الاجتماعية، وهي أركان العالمية الثلاثة، كما بيناه مفصلًا بأدلته في رسالة « مفهوم العالمية ».

وأما التأصيل، فهو راجع إلى مشروع تحقيق قضايا العلوم الشرعية عامة، وخاصة الأحكام الفقهية منها؛ بربطها بأدلتها، وبناء مناهج استدلالها، ومقارنة مذاهبها، وتوجيه خلافها العالي والنازل، والقصد من ذلك كله إنما هو إحياء الثقافة الفقهية الأصيلة، وتجديد الملكة الاجتهادية في الأمة، وإعادة بث أدب الخلاف؛ بما يجعل الأمة تستعيد قدرتها على استيعاب الآراء المتعددة في العلم، ما دامت تستجيب للأدلة الشرعية المعتبرة، من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وما انبنى عليهما من أصول الاستدلال وقواعده.

ذلك أن غياب الثقافة الفقهية تجديدًا واجتهادًا، قد أدى بالأمة في كثير من الأحيان إلى الجمود على الظواهر من النصوص، أو إلى التجرد من الأدلة كلية، وكلا الأمرين خروج عن حد الاعتدال في العلم، وكلاهما أيضًا مؤدٍّ إلى الجمود والتقليد. وقد تبين باستقراء النصوص الشرعية، وملاحظة تجارب التاريخ الإصلاحي للمجتمع الإسلامي القديم- أنه لا تجديد لحال الأمة إلا بتجديد فقهها، ولا تجديد للفقه إلا بتجديد مناهجه. وهو مقصودنا بالتأصيل [1].

في تجديد المناهج العلمية.

نحن في حاجة إلى تجديد قضايا العلم، نعم؛ ولكننا في حاجة أشد إلى تجديد مناهجه وإنما قضاياه تبعٌ لمناهجه، فإذا تجددت هذه؛ تجددت تلك بالضرورة، والعكس ليس بصحيح.

وتجديد المناهج هو الكفيل بتأطير بعثة التجديد، وإسنادها على المستوى العلمي، الذي هو الوعاء الجامع لحركتها تأصيلًا وتوجيهًا، ومناط التجديد المنهجي يكون بإحياء الصناعة الفقهية المقاصدية، بضوابطها الشرعية؛ بعثًا وتجديدًا.

(١) لزيادة التفصيل يمكن مراجعة كتابنا الذي وضعناه لهذا الغرض، « مفهوم العالمية ».

إن مشكلة العلم والعلماء اليوم إنما ترجع إلى ضمور هذه الصناعة وندرتها.

والمقصود بـ (الفقه) هنا: المعنى المصدري للفظ، لا الاسمي، أي الفقه من حيث هو حركة عقلية، ونشاط ذهني بالقصد الأول، ينتجها العقل المسلم. فالفقه عن الله ورسوله إنما يقع بعقل العالم الرباني الحكيم. والعقل مناط الفهم والتكليف - بما كان عبدًا لله خاضعًا لسلطانه، فذلك الفقه هو المقصود في حديث النبي ﷺ: **« نضَّر الله عبدًا سمع مقالتي فوعاها، ثم بلغها عني، فَرُبَّ حامل فقه غير فقيه، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه »** [1] إلخ.

والفقه المقاصدي كان أهم ملامح بعثة التجديد في القرون الهجرية الأولى، مع الإمام الزهري، وربيعة، وأبي حنيفة، ومالك، والأوزاعي، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد وغيرهم.

- نحن اليوم في حاجة - على مستوى تجديد الفقه - إلى ثلاثة أعمال منهجية.

- **الأول: بعث الثقافة الفقهية التراثية؛ فهمًا وتداولاً.** ومن الحِكَم المأثورة عن بعض العلماء قولهم: « أول التجديد قتل الماضي بحثًا! ». وإنما المقصود ببعث الثقافة الفقهية: بعث المفاهيم والمصطلحات الضرورية في العلم، وتجديد تداولها؛ ذلك أن دروس معاني المصطلحات الفقهية وضياعها، هو مما يسبب غاية الاختلال في الفهم، والانحراف في التطبيق؛ مما قد ينتج غلوًّا في الدين، وخروجًا عن مقاصده الشرعية؛ فتنزل أحكامه على غير منازلها؛ ذلك أن بعض أعلام الدعوة اليوم مثلاً؛ لا يعرفون من نصوص القرآن والحديث إلا حكمين شرعيين اثنين: الوجوب والتحريم! فكلما ورد الأمر عندهم حملوه على أصله من الوجوب، وكذا يحملون النهي مطلقًا على أصله من التحريم؛ ليس لأنهم يجهلون القاعدة المدرسية المشهورة (الأصل في الأمر الوجوب؛ إلا أن تصرفه قرينة إلى الندب أو الإباحة، والأصل في النهي التحريم؛ إلا أن تصرفه قرينة إلى الكراهة). كلا، فهو يحفظها، لكنه لا يفقه تنزيلها، فهو بكل بساطة (حامل لدليل الفقه) وليس (بفقيه)، وبينهما فرق كبير. وهو ما عبر عنه

---

(١) رواه أحمد، وابن ماجه عن أنس مرفوعًا. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم (٦٧٦٥). كما رواه الترمذي، والضياء عن زيد بن ثابت مرفوعًا، بسند صحيح. كما في صحيح الجامع، رقم (٦٧٦٣).

الحديث النبوي السابق ذكره « فرب حامل فقه ليس بفقيه » إذ لا يعرف مثلًا كيف يراعي عناصر السياق الثلاثة: من القرائن، والسوابق، واللواحق؛ ولا كيف يراعي قواعد الدلالة ويوظفها، ولا ما يُعْمِلُ من مناهج الاستدلال وما يُهْمِل، حسب طبيعة الحكم الشرعي ومحاله، من العبادات أو العادات، فحملوا الناس على العنت؛ جهلًا بصناعة الفقه، ومالوا عن الوسط والاعتدال، وخرجوا عن حد الإجماع، الذي جعل الأحكام التكليفية موزعة على الخمسة المعروفة: الوجوب والندب والإباحة والكراهة والتحريم. لقد كانت هذه الأمور معلومة من الدين بالضرورة، بل كانت ثقافة شعبية يوم كان (الفقه) إمام الأمة، ومنهج تلقيها عن الله ورسوله ﷺ.

إن الفقه صناعة! لا بد من إحيائها بالبحث في مناهجه؛ حتى تصبح في متناول (التداول الثقافي) للأمة.

ويمثل المصطلح الفقهي عنصرًا من أهم عناصر الإحياء الثقافي، وقناة من أخطر قنوات التداول المفهومي، لمنهج التفكير الفقهي؛ ولذا فهو يعتبر من أهم أولويات البحث العلمي، من رام القبض على العلم من صلبه، لا من مُلَحِه وحواشيه، وللأسف فإن غالب البحوث العلمية اليوم في الدراسات الأكاديمية؛ تعاني من الهزال الشديد في المنهج؛ ذلك أنها تعاني أزمة في الإستراتيجية العلمية، وأزمة في الشروط المنهجية.

أما الأزمة الإستراتيجية فهي تتمثل في غياب القصد العمراني في البحث، الذي يراعي حاجات الأمة الكبرى في بناء التفكير المنهجي، وتوفير مادة علمية صالحة لبناء المستقبل العلمي في المجال الشرعي، وذلك لما طغى على أغلب تلك البحوث من الارتجال، ونفسية ردود الأفعال، فكلما أُلقي الإعلام على الأمة شيئًا من القضايا، أو كلما أثار (الآخرون) شيئًا من الشبهات؛ رأيت البحوث على عرض العالم الإسلامي، وملء جامعاته، ومعاهده؛ تنصب على موضوع الشبهة بالبحث بضع سنين، بينما كان يكفي ذلك أن يصدر فيه (تأليف) فقط، أو حتى عدة (تآليف) لا (بحث)، وفرق عندي بين مفهوم (البحث) ومفهوم (التأليف)؛ فالتأليف جمع لما هو موجود من العلم، وتصنيف له، ثم عرض له بمنهج إنشائي، فالمؤلف

يجمع الأفكار أو يعيد إنتاجها، ثم يعرضها عرضًا حسنًا في كتاب. أما (البحث) فهو كشف عن مجهول [1]، إنه تجديد في بناء العلم، أو زيادة مهما قلت في صرحه وعمرانه. وما أدق كلمة لأبي بكر بن العربي المعافري رحمه الله في هذا قال: « ولا ينبغي لحصيف أن يتصدى إلى تصنيف، أن يعدل عن غرضين: إما أن يخترع معنى، أو يبتدع وصفًا ومتنًا، (...) وما سوى هذين الوجهين فهو تسويد الورق، والتحلي بحلية السرق » [2].

إن الأمة اليوم في حاجة إلى البحث في التراث الفقهي، أصوله وفروعه؛ تحقيقًا وتخريجًا وتجديدًا؛ بما يضمن تطوير مناهجه وبث ثقافته. كما أنها في حاجة استعجالية؛ لوقف النزيف الحاصل اليوم في الجامعات العربية والإسلامية، حيث تهدر الأموال، والطاقات، والأعمار، في إصدار ورقة من التأليف باسم البحث العلمي [3].

إنه لا بد من بناء (إستراتيجية البحث العلمي) لدراسة الجدوى من كل عمل؛ قصد تحقيق بعثة التجديد في الجامعة؛ بما يغطي حاجات الأمة المستقبلية، في فقه الدين والدنيا، ومن أجل ذلك لا بد من إنجاز العنصر الثاني، من الأعمال المنهجية الثلاثة، للتجديد الفقهي، وهو:

- **الثاني: تجديد أصول الفقه بعمقه المقاصدي** وليس معنى ذلك عندي إلغاء العمل بالقياس، ومسالك التعليل، على ما يراه بعض الفضلاء [4]، كلا، فلا تزال المنهجية الأصولية في أغلب قواعدها صالحة للإعمال والاستعمال، في إنتاج التفكير الفقهي الجديد وضبطه، وإنما هي في حاجة إلى كشف رصيدها العلمي الضخم

---

(١) د. أبجديات البحث في العلوم الشرعية (٢٤).

(٢) عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي (١/ ٤).

(٣) وبالمناسبة فقد رأيت عدة (بحوث) أنجزت في موضوع المرأة في السنوات الأخيرة، أو سجلت لنيل بعض الشهادات، وبالاستقراء كانت القضايا المدروسة في أغلب هذه البحوث هي هي! والمنهجية المتبعة هي هي! والنتائج المتوصلة إليها هي هي! لماذا؟ السبب بسيط: هو أن موضوع المرأة في الإسلام قد قتل بحثًا من لدن الدارسين. وما بقي فيه مجال إلا (للتأليف) بالاصطلاح المذكور، وما كان ينبغي أن يكون كذلك! إلا أن شيطان العرب؛ في روح عملائه ومقاوليه شبهة؛ أن يهب بكل طاقاته لإصدار البحوث، وإنجاز الأطروحات.

(٤) تجديد أصول الفقه للدكتور حسن الترابي.

أولًا، ثم تصوير قواعدها الإجرائية؛ بما يضمن استيعاب قضايا العصر الحديث، بشكل مناسب لمقاصد الشريعة ثانيًا.

فهي إذن؛ في حاجة إلى (تكميل) أكثر مما هي في حاجة إلى (تغيير) . هذه حقيقة يعرفها من خبر مناهج الاستنباط الفقهي في مصادرها الأصيلة، وذلك على الأقل في هذه المرحلة من تاريخ الأمة العلمي قلت. هذا لمن كان يعرف صيغة المادة الأصولية والمقاصدية حق المعرفة، من خبراء الميدان. فالدرس الأصولي غني جدًّا بالتنوع المنهجي، وبالتعدد الإمكاني لمسالك البحث والاستنباط، بما يكفل تغطية أغلب الحاجات العلمية للأمة، في العصر الحديث.

والقياس المعماري ولا أقول (الضيق) وُضع لأسباب حضارية، وحاجات علمية، ما تزال قائمة إلى اليوم، ووضعت له منافذ متوسعة، تبرز حيث تنتصب حاجتها علميًّا، من مثل القواعد المآلية؛ كقواعد الاستحسان، وسد الذرائع وفتحها، وقاعدة مراعاة الخلاف، وقاعدة اطراد المصالح الكلية . . إلخ [1]

إن الحاجة اليوم هي في تجديد الضوابط الأصولية، والقواعد المقاصدية، فيما يتعلق بفقه الأولويات والموازنات، وكذا قواعد ترتيب الحجاج والاستدلال. فأصول هذه الأمور تكاد تنعدم، فالخبراء يستنبطون مفاهيمها لأنفسهم؛ ويبقى غيرهم من أهل العلم تائهين في فتنة تعارض الظواهر ومقتضيات الدلالات، فتدخل الأمة بذلك في فتنة ردود الأفعال، من مثل ما يحصل اليوم من افتراق مفتون، يشقق بين قوم لا يشتغلون بالسنة؛ مكتفين فقط بالقرآن، وبين قوم آخرين لا يشتغلون بالقرآن مكتفين فقط بالسنة، وبين قوم آخرين لا يقبلون اجتهادًا في الدلالة، ولا في مقاصد الشريعة؛ ولا نظرًا في تحقيق المناط بين عموم وخصوص، وقوم غيرهم تسيبوا في تفسير الخطاب الشرعي، بما يخالف الأصول الكلية، والثوابت الشرعية كل ذلك ردود أفعال لا شعورية؛ بسبب غياب العدل في العلم، والقصد في المنهج

إننا في حاجة إلى تكميل أصول الفقه بقواعد تضمن بناء مراتب التشريع، ليس بمعنى الترتيب التقليدي للأصول الكتاب، فالسنة، فالإجماع، فالقياس. كلا فهذا

---

(١) ر. الموافقات (٤/١٩٤ - ٢١٠)

ترتيب مدرسي، لا إشكال فيه ولا خلاف، وإنما القصد منه بيان قوة الحجة الكلية للدليل. وأما قواعد الترتيب التشريعي المطلوب تحديدها؛ فهي المتعلقة بترتيب التفكير الفقهي، الضابطة لمراحله الذهنية، بدءًا بمرحلة الفهم للنص كيف يتم؟ ثم مرحلة الاستنباط منه كيف تقع؟ ثم مرحلة التحقيق للمناط كيف تتنزل أحوالها ومآلاتها بين العموم والخصوص؟ وما يعتري كل ذلك من تقديم وتأخير، أو استثناء وتخصيص، للأدلة بعضها على بعض، وبعضها من بعض، إلى غير ذلك من سائر الأحوال، والممكنات الاستدلالية في الدرس الأصولي والمقاصدي.

ثم أيضًا القواعد المقعِّدة لقوة التحقيق والتطبيق على الواقع الإنساني، وميزان أولوياتها على وزان قوة الحكم الشرعي، وإنما يكتسب قوته بمصدره ومتنه، فليس ما شرع في القرآن من حيث القوة التشريعية على وزان ما اشتغلت السنة بتشريعه، ولا ما شرع في السنة على وزان ما اشتغل الاجتهاد بتشريعه، وليس ما أجمل في الكتاب كما فصل فيه. هذا ترتيب لا نكاد نجد له في أصول الفقه قواعد مفصلة إلا قليلًا، رغم أنه جارٍ في الاعتبار الفقهي لدى أغلب علماء الأمصار والمجتهدين الكبار.

وعدم اعتبار هذه المعاني الكلية، والترتيبات الاستدلالية، مما سبق ذكره إجمالًا؛ يؤدي إلى أحد مُنْزَلَقين غلو في اعتبار القرآن بلا سنة، أو السنة بلا قرآن، أو غلو في اعتبار النصوص مصففًا بلا فقه، ولا منهج معلوم، وإنما هي الفوضى في المنهج وفي التفكير.

كما أننا في حاجة - بعد ذلك - إلى تكميل قواعد تحقيق المناط بمعناه العام والخاص [١]، وتطوير ذلك من مجال النص إلى مجال المجتمع؛ ذلك أن كثيرًا من التضارب بين العلماء والدعاة اليوم، في الفتاوى وفي رسم التوجهات الفقهية؛ يرجع في غالبه إلى غياب ما يمكن تسميته بفقه (تحقيق المناط الاجتماعي) وهو صناعة أصولية درج بعضهم على تسميتها اليوم (بفقه التنزيل) . وهذا لا يزال في حاجة إلى تأصيل وتقعيد، وما صنف من هذا في التراث القديم هو فعلًا في حاجة إلى

(١) الموافقات (٤ / ٩٨)

(تجديد) بعض نماذجه، خاصة في مجال المعاملات والعادات، إذ فقه تحقيق المناط في مثل هذه الأمور مرتبط بطبيعة الزمان وأهله، يتغير بتغيرها، وقد تغير فعلًا منه الكثير الكثير، فلا بد من تجديد ذلك، على شروط العلم، وقواعد المنهج الأصولي.

وأما تجديد مقاصد الشريعة من أصول الفقه؛ فهو - أولًا - بالصياغة المنهجية؛ لما يوجد منه منثورًا في كتب الفقه وأصوله. ومعلوم أن من فعل ذلك من العلماء الأقدمين والمحدثين في الأمة قليل، فلا يذكر منهم غير الشاطبي في الأقدمين وشراحه من المحدثين؛ كالشيخ الشنقيطي والإمام الطاهر ابن عاشور. فالمفاهيم المقاصدية لا تزال منثورة في كتب الأقدمين ليس فقط في الكتب المشتهرة بذلك كقواعد الأحكام للعز ابن عبد السلام، كلا، وإنما في كتب الفقه مطلقًا وفي كل كتب الأصول، بل في كتب التفسير أيضًا وفقه الحديث، تحتاج إلى كشف أولًا، ثم إلى صياغة علمية منهجية على وزان القواعد والأصول.

ويضاف إلى ذلك - ثانيًا - ما دعت إليه الحاجة المعاصرة؛ من تقعيد القواعد، مما يُقَصِّدُ الشارع تقصيدًا شرعيًا، في تفسير النصوص الكلية؛ لاستيعاب المفاهيم الجديدة للمصالح والمفاسد والحقوق، بما ينضبط إلى أحكام الشريعة.

والتفكير المقاصدي ضرورة من ضرورات البعثة، وأصل من أصول التجديد. فغيره تتيه الأمة بين الظواهر، بما قد يرفع شوكة الفكر الخارجي من جديد، أو يدخلها - بالضد - في متاهات التحليل الباطني، ويبقى الوسط بعيدًا عن لسان الميزان، وشيء من هذا وذاك - مع الأسف - هو حاصل! ولله عاقبة الأمور.

- الثالث: تجديد « أصول الفقه السياسي »: إن هذا الاصطلاح دالٌّ على مفهوم هو في الحقيقة من مفاهيم علم أصول الفقه بمعناه العام، لكننا أفردناه بالذكر هاهنا؛ لجهل بعض الناس به؛ بل لإنكارهم إياه مطلقًا! ثم لما له من خطورة في بعثة التجديد. خاصة في زماننا هذا.

إن « أصول الفقه السياسي » أمر لازم بالضرورة عن فقه تحقيق المناط في أصول الفقه، وأمر لازم بالضرورة أيضًا عن فقه « اعتبار المآل » في مقاصد الشريعة، كما

---

(١) الموافقات: (٤/١٩٤)

قرره الإمام الشاطبي[١] ثم هو - قبل هذا وذاك - ضرورة من ضرورات الاجتهاد المعاصر، لا يكون العالم اليوم مجتهدًا بحق؛ إلا بتحصيل درجة الاجتهاد فيه.

- لكن لا بد من بيان أمر:

لقد قررنا في كتابنا « البيان الدعوي »، تأخرّ الرتبة التشريعية للأحكام السياسية في الإسلام؛ مما يعني عدم مفتاحية الشأن السياسي دعويًّا[٢] فذلك أمر آخر تمامًا، مختلف عما نحن فيه. إن ذلك يتعلق ببناء « البرنامج السياسي » في المجال الدعوي.

ونحن نفرق بين « البرنامج السياسي » و « أصول الفقه السياسي »

فالأول: فقه جزئي تطبيقي، والثاني: كليات وقواعد.

بمعنى أن « البرنامج السياسي » ما هو إلا عنصر جزئي من عناصر « أصول الفقه السياسي »، كنسبة فقه المواريث مثلًا إلى مجموع الفقه، بل إلى كل أصوله؛ ولذلك رأينا أن « البرنامج السياسي » - بما هو علم جزئي- ليس هو المفتاح الأساس لبعثة التجديد الإسلامي، بل هو أمر مقصود بالتبع، وليس بالأصالة في تجديد العمران الديني للمجتمع.

- **أما الثاني - أعني فقه الكليات السياسية، أو أصول الفقه السياسي** - فهو منهج معرفة سنن التحولات، وسنن التوقعات والمآلات، فيما يتعلق بتدبير شؤون المجتمعات، على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي، وبهذا كان مصدرًا من مصادر فقه الدعوة الإسلامية، ومن ظن أن العالم الإسلامي قطعة معزولة، أو بالأحرى يمكن عزلها عن السياسة الدولية؛ فهو ما يزال يعيش خارج التاريخ.

وبمثل هذه الأخطاء القاتلة، في الفهم وفي المنهج؛ يتم استغفال بعض العلماء وتوظيفهم - على جلالة قدرهم - والدفع ببعض الجماعات الإسلامية؛ مما يؤدي بها إلى الانتحار في نهاية المطاف، أو إلى زيادة تمزيق مِزَقِ الأمة؛ بما يؤخرها عشرات السنين إلى الوراء.

إن « أصول الفقه السياسي » ضرورة من ضرورات الاجتهاد اليوم، لا يجوز لعالم أن يتصدى للإفتاء في الشأن الإسلامي العام، المرتبط بمصائر الشعوب الإسلامية، وأمنها

(١) الموافقات: (٤/١٩٤). (٢) البيان الدعوي، (٥٤)

الإستراتيجي، المادي والمعنوي؛ إلا بتحصيل درجة الاجتهاد فيه. فلا بد إذن من إحكامه، وبناء قواعده، واستنباط مناهجه؛ لضمان تفكير فقهي سليم، يبني ولا يهدم، ويرشد ولا يضلل.

إن أُصول الفقه السياسي هو قواعد لفهم ما يجري في العالم، وقواعد لاستنباط ما يناسبه من أحكام وفتاوى، على موازين الكتاب والسنة. وأي فتوى تُنَزَّلُ بغيره ولو على محلها فإنما هي رمية من غير رامٍ، وإنما جاء الدين ليتنزل على واقع الناس، بما هو موصوف في الزمان والمكان، وأصول الفقه السياسي هو الكفيل بذلك الوصف، في مجال تدبير الشأن العام.

ويمكن أن تستقرى قواعده - زيادة على التراث الأصولي والمقاصدي - من قواعد العلوم السياسية والاقتصادية والإعلامية. فهذه ثلاثة مجالات، هي من الخطورة بحيث يُعتبر الخوض في محاولة بناء الأمة، وتجديد بعثتها من دون مراعاتها؛ ضربًا من المغامرة بمصيرها، ونوعًا من المقامرة بوجودها، وقد عُلِم شرعًا تحريم كل عقد بني على الغرر والمقامرة.

وأخيرًا، فإن تجديد العلم بتلك المواصفات؛ معناه تجديد العلماء؛ لأنهما متلازمان كتلازم الصفة مع الموصوف. فالعالم الفقيه حقًّا إنما هو الذي بقدر ما يجتهد في استنباط الأحكام من النصوص، أو من عللها، أو حِكَمِها؛ يجتهد أيضًا في تربة الجيل بها، ولا يكون ذلك إلا بمعرفة الزمان وأهله، على ما قررناه في أصول الفقه السياسي، فذلك هو الإمام المنتصب، أو العالم الوارث، المبعوث للتجديد بإذن الله.

* * *



خاتمة عامة

وبعد

فماذا بقي لنا بعد هذا؟ بل ماذا بقي علينا؟

فيا صاحبي، ها قد علمتَ ما علمتَ، وها الكلماتُ قد تواترت عن الله جلَّ عُلاه، وها البينات قد جاءت كاملة عن رسول الله ﷺ، وفي ذلك ما فيه من العلم بالدين، وبما ترتب عليَّ وعليكَ من حقوق اللّٰه رب العالمين.

فماذا حققنا من مقام العبدية لمَلِكِ العظيم؟ وماذا حققنا من الوفاء لخالقنا الكريم؟ في زمان التمرد على اللّٰه والتنكر لحقوق اللّٰه! فكيف الحال بنا وها عهدُ اللّٰه وميثاقُه الذي واثقنا به، وأشهدنا على أنفسنا به، ها هو ذا شاهدٌ عليَّ وعليكَ برسالات القرآن إلى يوم القيامة واجبات وأعمالًا، لا تكتمل عبديةُ العبد إلا بها.

وقد تبين من خلال مسالك الفطرية أن واجبات المسلم التربوية والدعوية في هذا العصر ثلاثة، نلخصها الآن تلخيصًا موجزًا، للتذكير والتيسير؛ فما بقي بعد العلم إلا العمل.

- **أولًا**: التزام « مجالس القرآن » لتَلَقِّي آيات الرحمن، والتحقق بحقائق الإيمان.
- **ثانيًا**: بلاغ رسالات الله بدعوة الناس إلى الله، وبتكثير سواد « مجالس القرآن »، تأسيسًا وتوسيعًا.

ثالثًا: التزام الرباطات، بما فيها من التزامات أربعة، هي: شهود الصلوات والتزام رباطاتها، ومداومة الأذكار، ومقاطعة آلهة العصر الأربعة، وأولها: الشركيات والخرافيات. وثانيها: المال الحرام بكل أصنافه. وثالثها: الزنى ومقدماته، ومظاهره، وأخصها العري الفاحش، والنظر الحرام. ورابعها: الخمر والمخدرات.

وأما الالتزام الرابع والأخير فهو: إمساك اللسان عما لا خير فيه من الكلام.

وقد اختصرنا ذلك كله في العبارات المسكوكة التالية: (اغتنام المجالسات، وتبليغ الرسالات، والتزام الرباطات).

ولا تنس أن تعرض عملك هذا وغيره على أركان الفطرية الستة، فهي موازين قرآنية لتمحيص الأعمال، وهي كما فصلناها من قبل:

١ - الإخلاصُ مجاهدةً.

٢ - الآخرةُ غايةً.

٣ - القرآنُ مدرسةً.

٤ - الربانيةُ برنامجًا.

٥ - العلمُ طريقةً.

٦ - الحكمةُ صبغةً.

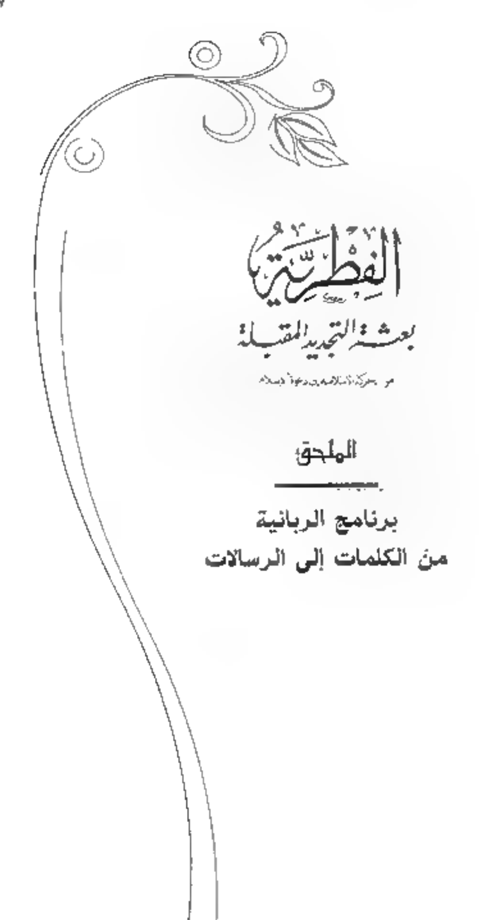
فتلك أصول دينية صحيحة، وقواعد تربوية مليحة، عدَّها يا صاحبي عَدًّا، وعُضَّ عليها بنَواجِذكَ عَضًّا.

ذلك، وإنما الموفق من وفقه الله، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

وصلَّى اللهُ على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

وكتبه - بمكناسة الزيتون - عبد ربه، راجي عفوه وغفرانه، الفقير إلى رحمته ورضوانه: فريد بن الحسن الأنصاري الخزرجي السجلماسي، غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين. وقد وافق تمام تبييضه يوم السبت: ٢٧ رجب: ١٤٢٨هـ، الموافق لـ ١١/٨/٢٠٠٧م.

* * *



الملحق

برنامج الربانية
من الكلمات إلى الرسائل



تمهيد

« برنامج الربانية » مسلكٌ تربوي، يترجم جزءًا أساسيًا من المقاصد التربوية الفطرية إلى الواقع العملي؛ إذ هو يرمي أساسًا إلى تخريج الدعاة الذين بإمكانهم الاشتغال بالعمل الدعوي على المنهاج العصري الذي أصلناه بهذا الكتاب؛ ومن هنا كان مدخله الأساس إنما هو تلقي رسالات القرآن المتعلقة بصفات « الربانية » بما هي إمامة دعوية بالدرجة الأولى كما سترى بحول الله.

ولذلك فقد جعلناه مبنيًا على تلقي مجموعة من الحقائق الإيمانية، مستخلصة من الآيات القرآنية والسياقات النبوية، التي تخدم الغرض المقصود، ذلك أن الدين في مجموعه إنما هو رسالة كلية شاملة، لا يستقيم الاشتغال به والدخول إلى فضائه - دينًا ودعوةً - إلا من خلال تلقي خطابه الرسالي جملة، ولا يتم ذلك على المستوى التربوي - إلا بالترقي المتدرج عبر مسالكه درجةً درجةً، وذلك بمدارسة خطابه، ورده إلى وحداته وكلماته، وإنما وحداته مجموعة من الرسائل، بعضها يبني على بعض، وبعضها يمهد لبعض؛ ولذلك كان القرآن بهذا المعنى « رسالات »، هكذا بجمع المؤنث السالم. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٩]. ﴿ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ۝ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣].

ثم إن تلقي الرسالات لا يتم إلا بمدارسة خطاب كل رسالة على حدة، وردها - كما ذكرنا - إلى وحداتها التربوية ومكوناتها الابتلائية، وهي مسماة بالكلمات فكل كلمة من كل رسالة تحمل ابتلاءً عمليًا تربويًّا، لا يتم تلقيه والتحقق بحكمه وصفته المفهومية والخلقية، إلا بالعمل والمجاهدة، وهو معنى الابتلاء بالكلمات في قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ ﴾ [البقرة: ١٢٤]

ولذلك كان هذا البرنامج ينطلق في تلقيه لحقائق القرآن - عبر مدارجه التربوية - من الكلمات إلى الرسالات، وذلك هو مسلك القرآن في تخريج أئمة الهدى من الدعاة الحكماء؛ وهو معنى الربانية.

ومن هنا كان لنا أن نعرّف الربانية بأنها: مرتبة الإمامة في مجاهدة النفس بالقرآن، على الالتزام بحقائقه الإيمانية، والتحقق بحِكْمته الرحمانية، إخلاصًا للهِ أولًا، حتى تمضي في دعوتها عن كل حظوظها، فلا يقوم شيء منها إلا لله وبه، ثم شهادةً بذلك على الناس، تربيةً ودعوةً، ثم صبرًا واحتسابًا.

ولنا أن ندرس حقائق هذا التعريف - بشواهده القرآنية - من خلال العناصر التالية:

١ - **الربانية توحيد**، وإخلاص لله وحده، وتجرد من كل حول علمي، ومن كل قوة مادية، وكل جاه اجتماعي أو سياسي، وتبرؤ من الشرك والشركاء. والاستمداد فيها إنما هو من الله، ومن الله وحده، فهي مدرسة لإقامة الدين لله، على موازين الفطرة الخالصة، ومجاهدة دائمة للنفس؛ أن تنحرف عن قصد التعبد الخالص في الدين والدعوة، فتزيغ بها الأهواء إلى مراعاة الحظوظ الخسيسة، من شهوات الشهرة، ومغانم المال والأعمال، ومراتب المناصب والألقاب، وغير ذلك من الخوارم المهلكة للدين والدعوة جميعًا.

فإنما الربانية في الدعاة إمامة تربوية شاملة، لا يجوز أن تخرج أبدًا عن قانون ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ ولذلك فهي لا تقوم إلا لله، ولا تستقيم إلا به جلَّ علاه، علميًّا ودعويًّا. فأول مدارجها تحقيق العبدية الكاملة لله، وتجريد القلب من سائر الأغيار والأكدار، والتحقق بأخلاق القرآن الخالصة لله الواحد القهار؛ ولذلك كان مأخذها من كتاب الله، تعلمًا وتعليمًا وتدارسًا وتزكيةً، فهي مسلك تعليمي تربوي مأمور به شرعًا؛ لرعاية حقوق الله، وحفظ حقائق الإيمان في الناس. قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

٢ - **الربانية أمانة**، فالربانيون هم الأمناء على وظائف النبوة، المستخلفون على

أحكام الشريعة، ملتزمون بمقتضاها، لا يلتجئون إلى سواها، شهداء على ذلك عند الله وأمام الناس. قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ ﴾ [المائدة: ٤٤]

٣ – **الربانية دعوة إلى الخير، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر**، فالربانيون دعاة إلى الله بالحكمة، صابرون على ما أصابهم في سبيل الله، محتسبون ذلك عند الله. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ۝ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ٦١ – ٦٣].

وقد جمع الإمام الرباني ابن القيم رحمه الله تلك الصفات جميعًا في بيان مفهوم العالم الرباني، وذلك في نص فريد قل فيه: «جهاد النفس أربع مراتب (...)

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها عِلْمُه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين. فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيًا حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويُعَلِّمَهُ. فمن عَلِمَ وعَمِلَ وعلَّم فذاك يُدْعَى عظيمًا في ملكوت السماوات»[1]

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١٠).

كما دبّج شيخُ المقاصد الإمامُ أبو إسحاق الشاطبي، كلامًا نفيسًا في بيان رتبة الإمامة في التحقق بالمعاني الشرعية، وحِكَمِهَا التربوية، لتخريج العالم الرباني، فقال رحمه الله في تعريفه: « إنه الذي يَتَحَقَّقُ بالمعاني الشرعية مُنَزَّلَةً على الخصوصيات الفرعية، بحيثُ لا يَصُدُّهُ التَّبَحُّرُ في الاسْتِبْصَارِ بِطَرَفٍ؛ عن التَّبَحُّرِ في الاسْتِبْصَارِ بالطَّرَفِ الآخَرِ، فلا هو يَجْرِي عَلَى عُمُومٍ وَاحِدٍ منهما دون أَنْ يَعْرِضَهُ عَلَى الآخَرِ، ثم يَلْتَفِتُ مع ذلكَ إلى تنزُّلِ ما تَلَخَّصَ لَهُ على ما يليقُ في أفعالِ المكلَّفين ( ) ويُسَمَّى صاحبُ هذِهِ المرتبةِ: الرَّبَّانِيَّ، والحَكِيمَ، والرَّاسِخَ في العِلْمِ، والعَالِمَ، والفقيهَ، والعَاقِلَ؛ لأنه يُرَبِّي بِصِغَارِ العِلْمِ قبلَ كِبَارِهِ، ويُوفِّي كُلَّ أحدٍ حقَّهُ حسبما يليق به وقد تَحَقَّقَ بالعِلْمِ وصَارَ لَهُ كالوَصْفِ المجْبُولِ عَلَيْهِ، وفَهِمَ عن الله مُرَادَهُ. ومن خاصَّته أمرانِ، أحدُهُما: أَنَّهُ يجيبُ السَّائِلَ على ما يليق به في حالته على الخصوص، إن كان له في المسألة حُكْمٌ خَاصٌّ ( ) والثاني: أنه نَاظِرٌ في المآلات قَبْلَ الجوابِ عن السُّؤَالاتِ »[1].

وبرنامجنا هذا وإن لم يطمح - بطبيعته - إلى تخريج الربانية العلمية، على وِزان ما قرره هؤلاء الأئمة الأعلام، فعسى ألا يقصر عن إخراج الرياسة التربوية أو الدعوية، ثم عسى أن يكون - بذلك - مدخلًا للربانية العلمية والإمامة الكاملة في الدين بعد ذلك، وإنما الموفق من وفقه الله. ولا حول ولا قوة إلا به وحده جلَّ علاه.

وصلَّى اللهُ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وسلَّم تسليمًا.

* * *

(١) الموافقات: (٤ - ٢٣٢).



الرسالة الأولى

في الإخلاص

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في بيان أن الغاية من الدين إنما هي تحقيق صفة العبديَّة الخالِصَة للَّه، والتعرف إليه تعالى بإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، والتقرب إليه رغَبًا ورَهَبًا؛ للنجاة من العذاب المقيم والفوز بخلود النعيم. وأن المؤمن الحق بهذا الدين لله الداعية إليه إنسانٌ أخروي بالقصد الأول، فالمصير الأخروي هو الموجه له في كل عمله في الدين والدعوة جميعًا. لا يخرج عن ذلك أبدًا

المسألة الثانية: هي أنه لا يتم له ذلك إلا بالتبرؤ من الشِّرْكيَّات والخُرَافيَّات، وهي المعتقدات الباطلة، التي تخرم إخلاص الدين للَّه، وتعكر صفاء التوحيد، والتي ما تزال تعم بها البلوى بين كثير من الناس اليوم، خاصتهم وعامتهم، فتخرم إخلاصهم، وتشوه فطرتهم، وتخرب دينهم، عقيدةً وعملًا.

والبراءة منها تكون بعدم اعتقاد تأثير أحد غير اللَّه في الكون وسائر الخلائق، نفعًا أو ضرًّا، ثم عدم التوجه إلى أحد سواه بالاستعانة والدعاء رَغَبًا أو رَهَبًا، وذلك هو الإخلاص الذي أمرنا اللَّه ورسولُه ﷺ باعتقاده، ومجاهدة النفس للتحقق بمقتضياته العلمية والخلقية، وهو الحقيقة الإيمانية العظمى التي يجب أن تكون سارية في دين المسلم كله، عقيدةً وشريعةً، كسريان الروح في الجسد. وذلك هو أساس معنى الفطرة التي فَطَرَ اللَّهُ الناس عليها، والتي عليها مدار دعوة الإسلام

ويتحقق ذلك بإفراد اللَّه ﷻ بما تقتضيه ربوبيته تعالى، وعدم الإشراك به في أي

شيء، خلقًا وتقديرًا ورعايةً وتدبيرًا، فلا دخل لأحد من خلقه في شؤون ربوبيته تعالى. كما يتحقق ذلك بإفراده وحده سبحانه بالعبادة والاستعانة، والتوجه إليه وحده بالطَّلَبِ والرَّغَبِ، لا إلى أحد من خلقه، مهما عَلَتْ مرتبته عند الله، سواء في ذلك الأنبياء والصديقون، والملائكة المقربون، والأولياء الصالحون، وكذلك الأموات والأحياء، والإنس والجن، فكلهم جميعًا عبيد لله، فقراء إليه تعالى. ولا أحد منهم يغني عن أحد من الله شيئًا.

وكلمات الابتلاء بهذه الرسالة قائمة على ترويض النفس، تربيةً وتزكيةً، وتجريدها من شوائب الأهواء والأدواء، تهذيبًا وتشذيبًا؛ للدخول بمسلك العبودية الخالصة لله، تحقُّقًا بها وتَحَقيقًا. وذلك كما يلي:

الكلمات:

الكلمات الأولى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ١-٧].

الكلمات الثانية: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

الكلمات الثالثة: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الكلمات الرابعة: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

الكلمات الخامسة: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ

سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧١، ١٧٢].

الكلمات السادسة: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

الكلمات السابعة: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ١ - ٣].

الكلمات الثامنة: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥].

الكلمات التاسعة: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

الكلمات العاشرة: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

الكلمات الحادية عشرة: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ

مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ١٦ - ٢١]

بيان الكلمات:

البيان الأول: عَنْ أمير المؤمنين عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » (١).

البيان الثاني: عن أبي أمامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « إِنَّ اللَّهَ تعالى لاَ يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إلا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ » (٢)

البيان الثالث: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « قال اللَّه تعالى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ » (٣)

البيان الرابع: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بنِ العاصِ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وخَيْرُ ما قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لاَ إِلهَ إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ ولَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٤).

البيان الخامس: عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِي ﷺ قَالَ: (قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: « إِنَّ اللَّهَ ﷻ لا يَنَامُ، وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » (٥)

البيان السادس: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ ﷺ قَالَ: « نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوِ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً؟ فَقَالَ: « مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا » » (٦)

---

(١) متفق عليه

(٢) رواه النسائي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

(٣) رواه مسلم

(٤) رواه الترمذي مرفوعًا، ومالكٌ مرسلًا. وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٥) رواه مسلم

(٦) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، والضياء. وقال الترمذي: « هذا حديثٌ حسنٌ =

البيان السابع: عن ابن عمر ﵄، قال: « أَخَذَ الرَّسُولُ ﷺ بمَنْكِبِي، فقال « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ » وكَانَ ابنُ عمر ﵄ يقول « إذا أَمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخُذْ مِن صحتِكَ لمرضِكَ، ومِنْ حياتِكَ لموتِكَ » [1].

• • •

= صَحِيحٌ » وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع.

(١) رواه البخاري



الرسالة الثانية

في الوعد

وأن الفساد في الأرض إذا بلغ مرحلة «العُلُوِّ» «الفرعوني» استكبارًا، واستضعافًا للمسلمين وتذبيحًا لهم، وتشتيتًا لصفوفهم؛ فذلك علامة على أن رحمة الله ستنال المؤمنين، إذا هم تمسكوا بالصبر واستجابوا لشروط الصلاح، وعلى رأسها إخلاص العبادة لله الواحد القهار. فإنما وراثة الأرض لعباد الله الصالحين.

الكلمات:

الكلمات الأولى: ﴿ طسٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ١ - ٦].

الكلمات الثانية: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [النور: ٥٥ - ٥٧].

الكلمات الثالثة: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦]

الكلمات الرابعة: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]

بيان الكلمات:

البيان الأول: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « **هَلَكَ كِسْرَى ثم لا يَكُونُ كِسْرى بَعْدَهُ، وقَيْصَرُ لَيَهْلِكَنَّ ثُمَّ لاَ يَكُونُ قَيْصَرُ بَعْدَهُ، ولَتُقْسَمَنَّ كُنُوزُهُمَا في سَبيلِ اللَّه** »[1].

البيان الثاني: عَنْ تَمِيم الدَّارِيِّ قَالَ: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: « **لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ، ولَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وبَرٍ إِلَّا أَدْخلَهُ اللَّهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَام، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّه بِهِ الْكُفْرَ** » وكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ يَقُولُ: « قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُم كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ »[2].

* * *

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد، والبيهقي، والحاكم، والطبراني، وابن حبان. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند: « صحيح على شرط مسلم ». كما صححه الألباني في السلسلة الصحيحة.



الرسالة الثالثة

في واجب الوقت

وأن تبليغ الرسالات وإلقاء البيانات، في زمن الفتن والضلالات، من أوجب الواجبات، وأنه لا نجاة لمن تعلّق ذلك بذمته إلا بأدائه، وأنَّ ذلك ضربٌ من ضُروب الابتلاء بهذا الدين.

الكلمات:

الكلمات الأولى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

[آل عمران ١٠٣ – ١٠٥].

الكلمات الثانية: ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾

[الجن: ٢٢، ٢٣].

الكلمات الثالثة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ [المدثر ١ – ٧].

الكلمات الرابعة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ

وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣٩ - ٤٨]

بيان الكلمات:

البيان الأول: عن حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ قال: «**وَالَّذي نفسي بيده، لَتَأْمُرُنَّ بالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عن المُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يبعث عليكم عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فلا يُستجابُ لَكُمْ**»[1].

البيان الثاني: عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيده، فإنْ لم يَسْتَطِعْ فبلسانه، فإن لم يستطعْ فَبِقَلْبِهِ، وذلك أضعفُ الإيمان**»[2].

* * *

(١) رواه أحمد، والترمذي وقال: حديث حسن. وحسنه الألباني أيضًا في صحيح الجامع.

(٢) رواه مسلم.



الرسالة الرابعة

في المنهاج

وأن منهج «الربانية» الحقة أساس الإمامة الدعوية، وأن توهم نجاح العمل الإسلامي بغير هذا المسلك ضرب من العبث.

الكلمات:

الكلمات الأولى ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

الكلمات الثانية ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٣ - ٤٦].

الكلمات الثالثة ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح: ٢٩].

الكلمات الرابعة ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝ قُلْ

يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴿١٠﴾ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ﴿١١﴾ وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴿١٢﴾ قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴿١٣﴾ قل الله أعبد مخلصا له ديني ﴿١٤﴾ فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين ﴿١٥﴾ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون ﴾ [الزمر ١٠-١٦].

الكلمات الخامسة: ﴿ يا أيها المزمل ﴿١﴾ قم الليل إلا قليلا ﴿٢﴾ نصفه أو انقص منه قليلا ﴿٣﴾ أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴿٤﴾ إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا ﴿٥﴾ إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا ﴿٦﴾ إن لك في النهار سبحا طويلا ﴿٧﴾ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴿٨﴾ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴿٩﴾ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ﴿١٠﴾ وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا ﴿١١﴾ إن لدينا أنكالا وجحيما ﴿١٢﴾ وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴿١٣﴾ يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا ﴿١٤﴾ إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ﴿١٥﴾ فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا ﴿١٦﴾ فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ﴿١٧﴾ السماء منفطر به كان وعده مفعولا ﴿١٨﴾ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ [المزمل ١-١٩].

الكلمات السادسة: ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴿٥٩﴾ إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا ﴾ [مريم ٥٨-٦٠].

الكلمات السابعة: ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴿٦٣﴾ والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ﴿٦٤﴾ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ﴿٦٥﴾ إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴿٦٦﴾ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴿٦٧﴾

والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما (٦٨) يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا (٦٩) إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما (٧٠) ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا (٧١) والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما (٧٢) والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا (٧٣) والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذريتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما (٧٤) أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما (٧٥) خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما (٧٦) قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٧٧]

الكلمات الثامنة ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ۩ (١٥) تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [السجدة: ١٥ - ١٦].

الكلمات التاسعة: ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون (٢) الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣) أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

الكلمات العاشرة: ﴿ قد أفلح المؤمنون (١) الذين هم في صلاتهم خاشعون (٢) والذين هم عن اللغو معرضون (٣) والذين هم للزكاة فاعلون (٤) والذين هم لفروجهم حافظون (٥) إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين (٦) فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون (٧) والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون (٨) والذين هم على صلواتهم يحافظون (٩) أولئك هم الوارثون (١٠) الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].

الكلمات الحادية عشرة: ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون (٥٧) والذين هم بآيات ربهم يؤمنون (٥٨) والذين هم بربهم لا يشركون (٥٩) والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة

أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون ٥٧ - ٦١].

بيان الكلمات:

البيان الأول: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ »[١].

البيان الثاني: وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ تعالى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ! وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ »[٢].

* * *

(١) رواه الترمذي والحاكم. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) رواه البخاري



الرسالة الخامسة

في مفهوم «الرَّبَّانِيَّة»

وإن «الربانية» معنى تربويٌّ كُلِّيٌّ، ومصطلح دعويٌّ شمولي، يجمعُ بين دلالتين: الأولى: هي الانتسابُ إلى الربِّ سبحانه بتربية القلبِ على توحيد الله وتفريده، خشيةً وخشوعًا ومحبةً، ومجاهدةً للنفس في سبيله، بتخليتها من باطن الإثم، وذلك هو «العلمُ بالله». والثانية: هي الانتساب إلى الرَّبَّانِ - بفتح الراء وضمها - وهو قائد السفينة (1)، وهو معنى الإمامة الدعوية. ولا يكون ذلك إلا بالتفقه في الدين أحكامًا وحِكَمًا وهو معنى «العلم بأمر الله». وبذلك يكون الرباني: هو العالم الداعية الحكيم، الذي يربي بصغار العلم قبل كباره. ولا يكون كذلك إلا إذا كان جامعًا للمعنيين، أي: «عالمًا باللهِ، عالمًا بأمر الله» وهو معنى «الإمام». ثم إن هذا وذاك لا يكونُ إلا بالدخول في ابتلاءاتِ العمَلِ بكلماتِ اللهِ، والاستجابةِ الصادقة لرسالاته، قولاً وعملاً. وهو يتجلى - أول ما يتجلى - في صلاة العبد وخشوعه.

الكلمات:

الكلمات الأولى. ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم

(1) الرُّبَّانُ بفتح الراء، وقيل الأصح ضمها. ر. لسان العرب: مادة «ربب».

بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۞ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۞ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩ - ٨٢].

الكلمات الثانية: ﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ٦٢، ٦٣].

الكلمات الثالثة: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ۞ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧].

الكلمات الرابعة: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۞ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ۞ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٧ - ٣٠].

بيان الكلمات:

البيان الأول: عن جبير بن نفير عن أبي الدَّرداء قال: « كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ: « **هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ** » فَقَالَ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ الْأَنْصَارِيُّ: كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ؟ فَوَاللَّهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا. فَقَالَ: « **ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟** » قَالَ جُبَيْرٌ: فَلَقِيتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ قُلْتُ: أَلَا تَسْمَعُ إِلَى مَا يَقُولُ أَخُوكَ

أَبُو الدَّرْدَاءِ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ. قَالَ: صَدَقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، إِنْ شِئْتَ لَأُحَدِّثَنَّكَ بِأَوَّلِ عِلْمٍ يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ: الْخُشُوعُ، يُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ جَمَاعَةٍ فَلَا تَرَى فِيهِ رَجُلًا خَاشِعًا » [1]

وقال سفيان بن عيينة: « كان يقال: العلماء ثلاثة: عالم بالله يخشى الله، ليس بعالم بأمر الله، وعالم بالله عالم بأمر الله يخشى الله، فذاك العالم الكامل، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله، لا يخشى الله، فذلك العالم الفاجر » [2] وأخرج البخاري في صحيحه - تعليقًا - عن ابن عباس ﷺ، قال: « ﴿ كونوا ربانيين ﴾ حلماء فقهاء ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره » [3].

البيان الثاني: وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنِ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ، قَالَ الرَّبُّ تَعَالَى: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَيُكَمَّلُ مِنْهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ تَكُونُ سَائِرُ أَعْمَالِهِ عَلَى هَذَا** » [4].

---

(١) رواه الترمذي، والحاكم عن أبي الدرداء، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي. ورواه أحمد، والنسائي، والدارمي، والحاكم أيضًا عن عوف بن مالك الأشجعي. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند: « حديث صحيح، وهذا إسناد قوي ».

(٢) رواه الدارمي في سننه، والبيهقي في شعبه، وأبو نعيم في الحلية.

(٣) كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل.

قال ابن القيم رحمه الله: (جهاد النفس أربع مراتب (..)

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين. الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها. الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله. الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيًا حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه، فمن علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيمًا في ملكوت السماوات) زاد المعاد لابن القيم (٣/١٠)

(٤) رواه النسائي، وابن ماجه، والترمذيُّ، وقال: حديثٌ حسنٌ غريب. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع

البيان الثالث: وعن أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: « أوَّلُ ما يُحاسَبُ بهِ العبدُ يومَ القيامةِ الصَّلاةُ، فإنْ صَلَحَتْ صَلَحَ لَهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ » [1].

البيان الرابع: عَنْ رِفَاعةَ بنِ رَافِعٍ قالَ: « بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ وَنَحْنُ حَوْلَهُ، إِذْ دَخَلَ رَجُلٌ فَأَتَى الْقِبْلَةَ فَصَلَّى، فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَى الْقَوْمِ، فقالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « وعليك، اذهبْ فصَلِّ فإنَّكَ لَمْ تُصَلِّ ». فَذَهَبَ فَصَلَّى، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْمُقُ صَلَاتَهُ، وَلَا يَدْرِي مَا يَعِيبُ مِنْهَا، فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَى الْقَوْمِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « وعَلَيْكَ، اذهبْ فَصَلِّ؛ فإنَّكَ لَمْ تُصَلِّ! فَأَعَادَهَا مرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا »، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عِبْتَ مِنْ صَلَاتِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّهَا لَمْ تَتِمَّ صَلَاةُ أَحَدِكُمْ حَتَّى يُسْبِغَ الْوُضُوءَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ ﷻ، فَيَغْسِلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ، وَيَمْسَحَ بِرَأْسِهِ وَرِجْلَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ، ثُمَّ يُكَبِّرَ اللَّهَ ﷻ، وَيَحْمَدَهُ وَيُمَجِّدَهُ، وَيَقْرَأَ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ وَأَذِنَ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُكَبِّرَ وَيَرْكَعَ حَتَّى تَطْمَئِنَّ مَفَاصِلُهُ وَتَسْتَرْخِيَ، ثُمَّ يَقُولَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، ثُمَّ يَسْتَوِيَ قَائِمًا حَتَّى يُقِيمَ صُلْبَهُ، ثُمَّ يُكَبِّرَ وَيَسْجُدَ حَتَّى يُمَكِّنَ وَجْهَهُ، حَتَّى تَطْمَئِنَّ مَفَاصِلُهُ وَتَسْتَرْخِيَ، وَيُكَبِّرَ فَيَرْفَعَ حَتَّى يَسْتَوِيَ قَاعِدًا عَلَى مَقْعَدَتِهِ وَيُقِيمَ صُلْبَهُ، ثُمَّ يُكَبِّرَ فَيَسْجُدَ حَتَّى يُمَكِّنَ وَجْهَهُ وَيَسْتَرْخِيَ، فَإِذَا لَمْ يَفْعَلْ هَكَذَا لَمْ تَتِمَّ صَلَاتُهُ » [2].

***

(١) رواه الطيالسي، والضياء، عن أنس. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) رواه أحمد، والنسائي، وأبو داود، وابن ماجه، والحاكم. وصححه الألباني في صحيح الجامع.



الرسالة السادسة

في بيوت الله

وإن المساجد هي حضرة العروج إلى الله، ومنطلقاتُ الدعوة إلى الله، وإن الرباط بها تعلمًا من علمائها وتعليمًا لشبابها، وحفاظًا على أداء الصلوات بجماعاتها، يُعرّفُ القلبَ بالله، ويصله بنوره جل علاه، وينشر الصلاح في كل قطاع، ويوصل الهدى إلى كل البقاع. فالمساجد هي حصون الإيمان وقلاع الإسلام، منها ينطلق وإليها يرجع كل خير.

الكلمات:

الكلمات الأولى ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

[النور ٣٥ ٣٨]

الكلمات الثانية ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝ يَا بَنِي آدَمَ

خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

[الأعراف: ٢٩ - ٣١].

بيان الكلمات:

البيان الأول: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ، إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ! وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ! »[1]

البيان الثاني: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « أَثْقَلُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا. وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَتُقَامَ ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ؛ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ »[2]

البيان الثالث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ » قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: « إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ. فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ! فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ! فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ! »[3]

البيان الرابع: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ. وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ

(١) رواه مسلم
(٢) متفق عليه
(٣) رواه مسلم

لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ. وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْـمَلاَئِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ. وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ » [(١)].

البيان الخامس: عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِي ﷺ قال: « خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّةِ فقال: « أَيُّكُمْ يحب أن يغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إلى بُطْحانَ أو العقيقِ، فيأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ زَهْرَاوَيْنِ [(٢)]، يَأْخُذُهُمَا بغير إِثْمٍ بالله ﷻ، ولا قَطْعِ رَحِمٍ؟ » قالوا: كُنَّا يا رسولَ الله! قال: « فَلأَنْ يَغْدُوَ أحدُكُم كلَّ يَوْمٍ إلى المسجد، فيتَعَلَّمَ آيتين من كتاب الله ﷻ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ ناقتين، وثَلاثٌ خيرٌ له من ثلاثٍ، وأَرْبَعٌ خيرٌ لَهُ من أَرْبَعٍ، ومن أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ » [(٣)]

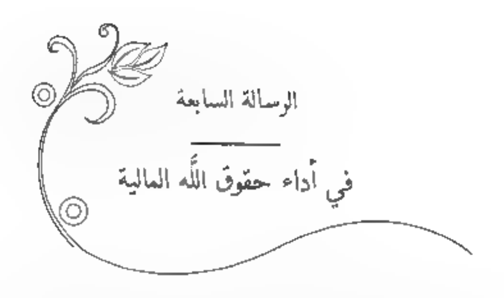
* * *

---

(١) رواه مسلم.

(٢) أهل الصُّفَّة: هم فقراء المهاجرين كانوا يبيتون بمسجد النبوي. وأما بُطْحان فهو اسم وادٍ قرب المدينة المنورة، وكذلك العقيق مثله. وناقتان كَوْمَاوَان: تثنية كوماء، وهي الناقة العظيمة السنام العالية. وزهراء يعني سمينة، تميل إلى البياض من الشبع.

(٣) رواه مسلم، وأبو داود، وأحمد، وابن حبان، والبيهقي، والطبراني.



الرسالة السابعة

في أداء حقوق الله المالية

وإنَّ إقامَ الصلاةِ في الإسلام مقرونٌ أبدًا بإيتاء الزكاة، وإن إيمان العبد لا يكمل حتى يكون من المنفقين في سبيل الله، لأن حقيقة الإخلاص لا تكون إلا بتوحيد الله في المال، على قاعدة أن «المال مال الله، والبشر مستخلفون فيه!» وألا ربانية إلا بمجاهدةِ شُحِّ النفس، وتطهيرها بالإنفاق في مصارف الزكوات وفي كل وجوه الخير.

الكلمات:

الكلمة الأولى: ﴿ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الحديد: ٧).

الكلمة الثانية: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا

وَابِلٌ فَطَلٌّۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَابٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٍ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٍ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبًا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافًاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١ - ٢٧٤].

الكلمات الثالثة: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

الكلمات الرابعة: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨، ٩].

الكلمات الخامسة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي

سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

بيان الكلمات:

البيان الأول: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: «**لاَ يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ – وَلاَ يَقْبَلُ اللَّه إِلا الطَّيِّبَ – إِلا أَخَذَهَا اللَّه بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ قَلُوصَهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ أَوْ أَعْظَمَ**»[1].

البيان الثاني: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: «**لاَ حَسَدَ إِلا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلاَنٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّه مَالاً فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلاَنٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ**»[2].

البيان الثالث: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لا حَسَدَ إِلا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللَّه مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّه حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**»[3].

البيان الرابع: عن أبي هريرة ﷺ: أن النبيَّ ﷺ عادَ بلالاً، فأَخرجَ لَهُ صُبَرًا مِن تَمرٍ[4]، فقال: «**مَا هذا يَا بِلالُ؟**» قال: ادَّخَرْتُهُ لكَ يا رَسُولَ اللَّه - قالَ: «**أما تخشى أنْ يُجعَلَ لكَ بُخَارٌ في نارِ جهنَّم؟ أنفِقْ يَا بِلالُ وَلا تَخْشَ مِنْ ذِي العَرْشِ إِقْلالاً**»[5].

البيان الخامس: عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:

---

(١) متفق عليه. والفَلُوّ: هو المُهْر، والقَلُوص: الناقة الشابة.

(٢) رواه البخاري.

(٣) متفق عليه. والمراد بالحسد هنا الغبطة، وهو تمني مثل ما يغتبط، وهذا أمر حسن، وأما تمني زوالها عنه فذلك حرام، وهو الحسد المذموم.

(٤) الصُّبَر: جمع صُبْرة، وهي ما جُمع من الطعام بلا كيلٍ ولا وزنٍ، بعضه فوق بعض على هيئة الكُومة. لسان العرب (صبر).

(٥) رواه أبو يعلى في مسنده، والطبراني في الكبير والأوسط، كما رواه البزار، والبيهقي في الشعب، وأبو نعيم في الحلية. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وفي صحيح الجامع، وفي صحيح الترغيب

« لاَ تُوكِي فَيُوكَى عَلَيْكِ »(1) وفي رواية أخرى عنها أيضًا أنه ﷺ قال: « إنفحي أو انضحي أَوْ أنفقي، وَلا تُحْصي فَيُحصِي اللَّهُ عَلَيْكِ، وَلا تُوعي فيُوعيَ اللَّهُ عليكِ »(2).

البيان السادس: عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: « مَا من يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إلا ملكانِ يَنْزِلانِ فَيَقُولُ أحدُهُما: « اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنفِقًا خلَفًا » ويقُولُ الآخرُ: « اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمسِكًا تَلَفًا »(3).

* * *

(1) متفق عليه. وقوله (تُوكِي) هو مِنْ « أوْكَى »، أي ربط فم الوعاء – أو السِّقاء – وشدَّه بخيط قصد الحفظ والادخار.

(2) متفق عليه. والنَّفح: الفَتْح، والنَّضْح: الصَّبُّ، وكلاهما بمعنى العطاء. وأَوعى يُوعي إيعاءً، أي أمسك ما في الوعاء ومنعه.

(3) متفق عليه.



الرسالة الثامنة

في أن الدَّعْوَةَ دِينٌ

وأن أصول الإسلام ثابتةٌ إيمانًا وعملًا، وهي مدار الدين والدعوة، وأنها تتلخص أساسًا في معرفة اللّه، والتفقه في العقائد الأخروية، وأن الوعود الدنيوية في الإسلام تابعة للوعود الأخروية، والعكس غير صحيح، وأن صحة أي عمل إسلامي إنما تتحدد بِقَدْر ارتباطه بها خِدمةً وتَخَلُّقًا.

الكلمات:

الكلمات الأولى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام ١٦٢، ١٦٣].

الكلمات الثانية ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى ١٣ - ١٥]

الكلمات الثالثة: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا

إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ۝ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴾ [طه ٩ - ١٦].

الكلمات الرابعة: ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ۝ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ۝ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ۝ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ۝ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ۝ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ۝ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ

مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر ٢٨ - ٤٥].

بيان الكلمات:

البيان الأول: عن عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ قَالَ: « بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا** » قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ! قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: « **أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.** » قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟ قَالَ: « **أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** » قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: « **مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ** » . قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قَالَ: « **أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ** » قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: « **يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟** » قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ؟ قَالَ: « **فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ!** » (١).

البيان الثاني: عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ** » (٢).

البيان الثالث: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: « لَمَّا نَزَلَتْ « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ »

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ، لِبُطُونِ قُرَيْشٍ، حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ؟ فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: « أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ »، قَالُوا: نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا. قَالَ: « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ! » الحديث[1].

البيان الرابع: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ، سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، جِيفَةٍ بِاللَّيْلِ، حِمَارٍ بِالنَّهَارِ، عَالِمٍ بِالدُّنْيَا، جَاهِلٍ بِالْآخِرَةِ »[2].

البيان الخامس: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ! »[3].

* * *

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البيهقي، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع. والجعظري الجواظ: هو المتكبر الغليظ، الخشن الأخلاق، والسخاب والصخاب، كلاهما بمعنى، وهو رفع الصوت منكرًا كصوت الحمير. والحديث كناية عن الرجل همه الدنيا والكسب المادي، حيث يظل النهار كله في صرع الأسواق والصفقات لا يحرم حرامًا ولا يحل حلالًا! ولا يعرف لله حقًّا ولا معادًا! حتى إذا كان الليل خرّ على فرشه فنام نومًا ثقيلًا، فتنزّ روحه كالجيفة؛ بما يعقد عليه الشيطان من عُقد الغفلة عن الصلاة والقيام.

(٣) رواه البخاري.



الرسالة التاسعة

في الوظائف الدعوية

وإن بلاغ رسالات القرآن هو أساس العمل الدعوي؛ إذ القرآن هو كتاب الله ورسالته إلى الناس الجامعة لكل أصول الدين الإيمانية والعملية، وإن التداول الاجتماعي للآيات - تلاوةً وتزكيةً، وتعلمًا وتعليمًا لأحكامه وحِكَمِه - هو الذي يحسم القضية الدعوية هدايةً ونصرةً

كلمات:

لكلمات الأولى: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [آل عمران ١٦٤]

الكلمات الثانية ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين ﴿٩١﴾ وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ﴿٩٢﴾ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون﴾ [النمل ٩١-٩٣].

الكلمات الثالثة ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ﴿٨٧﴾ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين ﴿٨٨﴾ وقل إني أنا النذير المبين ﴿٨٩﴾ كما أنزلنا على المقتسمين ﴿٩٠﴾ الذين جعلوا القرآن عضين ﴿٩١﴾ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴿٩٢﴾ عما كانوا يعملون ﴿٩٣﴾ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن

الْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۝ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۝ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٨٧-٩٩].

الكلمات الرابعة: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ۝ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ۝ قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۝ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ۝ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۝ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٩-١٢٢].

الكلمات الخامسة: ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ۝ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ۝ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ۝ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ۝ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ۝ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ۝ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٦١-٧٠].

بيان الكلمات:

البيان الأول: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة، لما بعثه قريش إلى النبي ﷺ يفاوضه في شأن الدين، قرأ عليه النبي ﷺ القرآن؛ فرقّ له الوليدُ، ثم رجع إليهم فقال: «**والله ما منكم رجلٌ أعلمُ بالأشعار مني، ولا أعلمُ برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، والله إنّ لقوله الذي يقول حلاوةً، وإن عليه لطلاوةً، وإنه لمُثمرٌ أعلاهُ، مُغدِقٌ أسفلُه، وإنه ليَعلو**

وَمَا يُعْلَى! وإنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ » (١)

البيان الثاني: عن ابن عباس ﷺ أنَّ أبَا بَكْرٍ ﷺ قال: « شِبْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ »، فقال ﷺ: « شَيَّبَتْنِي هُودٌ »، و« الواقعةُ »، و« المرسلاتُ » و« عَمَّ يتساءلون »، و« إذا الشمسُ كُوِّرَتْ ») (٢) . وفي رواية أخرى: « شَيَّبَتْنِي « هود » وأخواتُها مِنَ الْمُفَصَّلِ » (٣).

* * *

(١) الحاكم، والبيهقي في شعب الإيمان. وتتمة القصة أن أبا جهل تحيّن عنه فأثار كبرياءه ورده إلى جاهليته، فقال له: دعني أفكر، ثم قال: أقول: « هو ساحر »، فنزل قول الله تعالى: ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر: ١٨ - ٢٦].

(٢) رواه الترمذي، والحاكم عن ابن عباس، ورواه الحاكم عن أبي بكر، ورواه ابن مردويه عن سعد. وقال الشيخ الألباني: صحيح. انظر حديث رقم: (٣٧٢٣) في صحيح الجامع.

(٣) رواه الطبراني، وابن مردويه، وصححه الألباني في صحيح الجامع.



الرسالة العاشرة

في « مَجَالِسِ القُرْآنِ »

وإنَّ الدخولَ في التَّربيةِ القرآنيةِ، تلاوةً ومُدارسةً وتدبُّرًا، يمنحُ العبدَ حقيقةَ التَّقوى، ويُرقِّيهِ بمنازلِ الخَشْيةِ والرَّهَبِ، ويغمُرُ قلبه بأنوار الأسماء الحسنى، ويجعله من جُلساءِ الملائكة، ومن المذكورين عند اللَّه في الملأ الأعلى.

الكلمات:

الكلمات الأولى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

الكلمات الثانية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۞ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۞ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ١٨ - ٢٤].

الكلمات الثالثة ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥-١١١].

الكلمات الرابعة ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ١٦-٢١].

بيان الكلمات:

البيان الأول: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ،

وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ. وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ »[1].

البيان الثاني: عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ. وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ، لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ. وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ »[2].

البيان الثالث: عن أبي شريح الخزاعي قال: « خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فقال: « أَبْشِرُوا، أَبْشِرُوا...! أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ، طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا، وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا »[3].

البيان الرابع: عن أبي سعيد ﷺ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: « كِتَابُ اللَّهِ هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ »[4].

* * *

---

(١) رواه مسلم. (٢) متفق عليه

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في شعبه، وابن أبي شيبة في مصنفه، والطبراني في الكبير، وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٣).

(٤) رواه الطبري في تفسيره (٣١/٤)، نشر دار الفكر بيروت لبنان (١٤٠٥ هـ) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (٤٤٧٣)



الرسالة الحادية عشرة

في الإخلاص الدعوي

وإنَّ تجريدَ الولاءِ الدَّعويِّ للَّهِ قولاً وعملاً يستجلبُ تأييدَ اللَّهِ ونُصرتَهُ، وإنَّ العبدَ متى ما حقَّقَ الإخلاصَ في ذلكَ أدخلَهُ اللَّهُ جلَّ جلالُهُ - في ولايتِهِ، وأنالَهُ منْ كراماتِه، وكانَ تعالى في نُصرتِهِ.

الكلمات:

الكلمات الأولى. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٤ - ٥٦].

الكلمات الثانية. ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ

اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا ﴾ [الكهف: ٩ - ١٦].

الكلمات الثالثة: ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ۝ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ۝ قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا ۝ قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ۝ قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا ۝ إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ﴾ [الجن: ١٨ - ٢٣].

بيان الكلمات:

عن أبي العباس عبد الله بن عباس ﷺ، قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوما، فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: **احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[1].

وفي رواية أخرى: «احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»[2].

* * *

(١) رواه أحمد، والترمذي، والحاكم. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) هكذا في الأربعين النووية، وهذه ألفاظ مركبة من عدة أحاديث صحيحة.



الرسالة الثانية عشرة

في أن الدعوة خُلُقٌ

وأن مكارم الأخلاق شعار الدين والدعوة، وأن الدين بلا خلقٍ مدخول بالنفاق، وأن الدعوة التي لا تعتمد الخلق الحسن مسلكًا لا يبارك الله فيها، وأن الحياء هو آية خلق المسلم، وأن الربانية الحقة إنما هي صدقُ الدين قولاً وعملاً، وتلك طريق الصِّدِّيقيَّة التي بها ينال العبد ولاية الله، وأن الانحراف عن ذلك كله ضربٌ من النفاق الذي لا يفلح صاحبه أبدًا.

الكلمات:

الكلمات الأولى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩، ١٦٠]

الكلمات الثانية: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]

الكلمات الثالثة: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ

مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٢٣ - ٢٥].

الكلمات الرابعة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١١٩ - ١٢١].

بيان الكلمات:

البيان الأول: عن أبي ثعلبة الخشني أن النبي ﷺ قال: « **إنَّ أحبَّكُم إليَّ وأقربَكُم مني في الآخرة مجالس أحاسنُكُم أخلاقًا، وإنَّ أبغضَكُم إليَّ وأبعدَكُم مني في الآخرة أسوؤُكُم أخلاقًا، الثرثارون، المتفيهقون، المتشدِّقون** »[1].

البيان الثاني: عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « **لاَ يَكُونُ الْمُؤْمِنُ لَعَّانًا** »[2].

البيان الثالث: عن أبي مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ** »[3].

البيان الرابع: عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « **إنَّ الحياء والإيمان قُرِنَا جميعًا، فإذا رُفِعَ أحدُهما رُفِعَ الآخرُ** »[4].

البيان الخامس: عن أنس وابن عباس أن النبي ﷺ قال: « **إنَّ لكل دينٍ خُلُقًا، وإنَّ خُلُقَ الإسلام الحياءُ** »[5].

---

(١) رواه أحمد، وابن حبان، والطبراني، والبيهقي. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع.

(٢) رواه الترمذي. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه الحاكم، والبيهقي. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٥) رواه ابن ماجه. وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

البيان السادس: عن أنس بن مالك ﷺ، خادم رسول الله ﷺ، عن النبي ﷺ قال: « لاَ يُؤمِنُ أحدُكم حتى يُحبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ »[1].

البيان السابع: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: « قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَنَاجَشُوا، ولاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، ولاَ يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَا هُنَا – وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ – بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ. إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ. وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ »[2].

البيان الثامن: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ »[3].

البيان التاسع: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ! فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا »[4].

* * *

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣، ٤) متفق عليه.



الرسالة الثالثة عشرة

في البلاغ الحكيم

إن التحلي بالحكمة في الدعوة، والصبر على الأذى، وعدم الاستجابة للاستفزازات، ثم مراعاة الحالات في الفتاوى والتصرفات، تدرجًا، وتألفًا، وتلطفًا، والعمل وفق ذلك إيمانًا واحتسابًا؛ يستوجب معية الله للدعاة وتأييده للدعوة.

الكلمات:

الكلمات الأولى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ۝ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٥ - ١٢٨].

الكلمات الثانية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ

فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦].

الكلمات الثالثة: ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ۝ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٠-٤٤].

بيان الكلمات:

البيان الأول: عن أم المؤمنين عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: « **عليكِ بالرِّفق، إنَّ الرِّفق لا يكونُ في شيءٍ إلَّا زانَه، ولا يُنزعُ من شيءٍ إلَّا شانَهُ** » [(١)].

البيان الثاني: عن أبي بُرْدَةَ ﵁: « أنَّ النبيَّ ﷺ لما بعثَ مُعاذًا وأبا موسى إلى اليمن، قالَ لَهُما: « **يسِّرا ولا تُعسِّرا، وبشِّرا ولا تُنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا** » [(٢)].

البيان الثالث: عَنْ عليٍّ ﵁ قال: « حدِّثُوا النَّاسَ بما يَعْرِفُونَ، أتُحِبُّونَ أنْ يُكَذَّبَ اللهُ ورَسُولُهُ؟! » [(٣)] وقد جعلَ الإمامُ البخاري ﵀ هذا الحديث الموقوف على عليٍّ ﵁ ترجمةً لبابٍ من أبوابِ « كتاب العلم » من صحيحه، صاغَها في حكمةٍ رفيعة، وهي قوله: (بَابُ مَنْ خَصَّ بالعِلْم قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ كَرَاهِيَةَ ألا يَفْهَمُوا) كما أورد ترجمةً أخرى في السياق نفسه لفقه المآلات وهي:

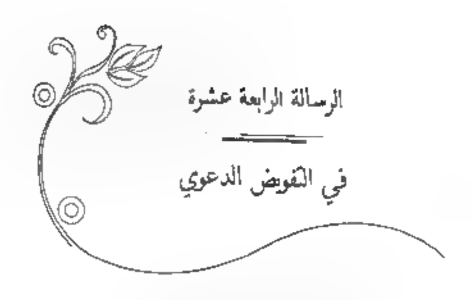
البيان الرابع: قال الإمام البخاري: (بَابُ مَنْ تَرَكَ بَعْضَ الاخْتِيَارِ؛ مَخافَةَ أنْ يَقْصُرَ فَهْمُ بَعْضِ النَّاسِ عَنْهُ، فَيَقَعُوا في أَشَدَّ مِنْهُ) [(٤)] فأخرج بسنده عن الأسْوَد بن يزيدَ النَّخعي قالَ: « قالَ لي ابنُ الزُّبَيْرِ: كانتْ عائشةُ تُسِرُّ إليكَ كثيرًا، فما حدَّثتْكَ في الكَعْبَةِ؟ قُلْتُ: قالَتْ لي: قالَ النَّبيُّ ﷺ: « **يا عائشةُ لولا قومُكِ حديثٌ عهدُهُم بكُفرٍ، لَنَقَضْتُ الكعبةَ فجعلتُ لَها بابينِ، بابٌ يدخلُ النَّاس، وبابٌ يخرجُون** » فَفَعَلَهُ ابنُ الزُّبَيْرِ » [(٥)]، وفي رواية أخرى: عَنْ عائِشَةَ ﵂ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ لَها: « **ألَمْ تري أنَّ قومَكِ لمَّا بنَوا الكعبَةَ اقتصرُوا عن قواعدِ إبراهيمَ؟** فَقُلْتُ: يا رَسُولَ الله ألا تَرُدُّها عَلى قَواعدِ إبْراهِيمَ؟ قَالَ: « **لَوْلا حِدْثانُ قَوْمِكِ بالكُفْرِ لفعَلْتُ** » [(٦)]؛ ولذلك لمَّا رَدَّها عبدُ الله ابن الزبير ﵁ على

---

(١) رواه مسلم.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه البخاري.
(٤) صحيح البخاري: كتاب العلم.
(٥، ٦) رواه البخاري.

قواعد إبراهيم هَدَمَهَ الطاغية الحجاج، ثم أعاد بناءه على ما كانت عليه في عهد النبيِّ ﷺ. فأفتى مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك لخلفاء بني العباس بعدم جواز إعادة بنائها على قواعد إبراهيم؛ حتى لا تكون عبثًا بين الأمراء.

* * *



الرسالة الرابعة عشرة

في التفويض الدعوي

وإن تدبير الشأن الإصلاحي ممانعةً وتمكينًا إنما هو من شؤون الربوبية، وإن ليس للإنسان منه إلا عبادة الله بأسبابه.

الكلمات:

الكلمات الأولى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

الكلمات الثانية: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال: ١٧، ١٨].

الكلمات الثالثة: ﴿ طسٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الشعراء: ١-٦].

الكلمات الرابعة: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝

وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١١٨ - ١٢٣].

الكلمات الخامسة ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٣٦ - ٤٠].

بيان الكلمات:

عَنْ خَبَّاب قَالَ: «أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً فِي ظِلِّ الْكَعْبَة، فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو اللَّه لَنَا؟ فَجَلَسَ مُحْمَرًّا وَجْهُهُ فَقَالَ: **«قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَار فَيُجْعَلُ على رَأْسِهِ فَيُجْعلُ فِرْقَتَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِك عَنْ دِينِه، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ ما دُونَ عَظْمِه، مِنْ لَحْمٍ وَعَصَبٍ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلك عَنْ دِينِهِ، وَاللَّه لَيُتِمَّنَّ اللَّه هَذَا الْأَمْرَ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مَا بَيْنَ صَنْعَاء وَحضْرمُوت، مَا يَخَافُ إِلَّا اللَّه تَعالى والذِّئْب عَلى غَنَمِه. ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُون»**[1]

* * *

(١) رواه البخاري



الرسالة الخامسة عشرة

في الاعتصام

وأن التقيد بأحكام الكتاب والسنة، والفقه المبني عليهما، يعصم الدعوة والداعية من الانحرافات المفهومي والسلوكي والمنهاجي، وأن الفقه السليم للكتاب والسنة إنما يؤخذ من سنة الخلفاء الراشدين، فهمًا وتنزيلًا: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رضوان الله عليهم أجمعين، ثم عامة فقهاء الصحابة الكرام. وأن ذلك المنهج هو الذي تجلى - فيما بعد - في مذاهب علماء الأمصار، الأئمة الأعلام: مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، رحمهم الله ورضي عنهم أجمعين

الكلمات:

الكلمات الأولى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٥٩ - ١٦٣].

الكلمات الثانية ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ

يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾
[آل عمران: ١٠٣ - ١٠٥].

الكلمات الثالثة ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧ - ١٣٩].

بيان الكلمات:

البيان الأول: عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[1].

البيان الثاني: عن أبي نَجِيحٍ الْعِرْبَاضِ بنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه قال: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[2].

* * *

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أبو داود، والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.



الرسالة السادسة عشرة

في الفتن

وإن رجال الدعوة الإسلامية معرضون لأشد المحن والفتن! في دينهم، وأنفسهم، وأموالهم، وقد تتجلى الفتنة في صورة النعمة، وربما تسرب الشيطان إلى الإنسان من باب الفهم، فيوهمه أنه قد حاز خصوصية علم وإيمان، وهو من أشد الفتن، وذلك هو الاستدراج والعياذ بالله.

الكلمات:

الكلمات الأولى: ﴿ الم (١) أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون (٢) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين (٣) أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون (٤) من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم (٥) ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين (٦) والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون (٧) ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون (٨) والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين (٩) ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين (١٠) وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ [العنكبوت ١ - ١١]

الكلمات الثانية: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣]

بيان الكلمات:

البيان الأول: عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، فَكَسِّرُوا قِسِيَّكُمْ، وَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ، وَاضْرِبُوا سُيُوفَكُمْ بِالْحِجَارَةِ، فَإِنْ دُخِلَ - يَعْنِي عَلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ - فَلْيَكُنْ كَخَيْرِ ابْنَيْ آدَمَ» [١]

البيان الثاني: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» [٢].

البيان الثالث: عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قال: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ - وَلَمْ يَقُلْ مِنْهَا - قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ، أَوْ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَيَنْظُرُ الرَّامِي إِلَى سَهْمِهِ، إِلَى نَصْلِهِ، إِلَى رِصَافِهِ، فَيَتَمَارَى فِي الْفُوقَةِ، هَلْ عَلِقَ بِهَا مِنَ الدَّمِ شَيْءٌ؟» [٣].

البيان الرابع: عن عليٍّ ﷺ قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «سَيَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ» [٤]

البيان الخامس: عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ: أَيُّكُمْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ؟ فَقَالَ قَوْمٌ: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ. فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والحاكم. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) رواه مسلم. (٣، ٤) متفق عليه.

فِي أَهْلِهِ وَجَارِهِ؟ قَالُوا: أَجَلْ. قَالَ: تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصَّلاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ، وَلَكِنْ أَيُّكُمْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ الَّتِي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ، فَقُلْتُ: أَنَا. قَالَ: «أَنْتَ لِلَّهِ أَبُوكَ!». قَالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ».**

قَالَ حُذَيْفَةُ: وَحَدَّثْتُهُ أَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا يُوشِكُ أَنْ يُكْسَرَ. قَالَ عُمَرُ: «أَكَسْرًا لاَ أَبَا لَكَ؟ فَلَوْ أَنَّهُ فُتِحَ لَعَلَّهُ كَانَ يُعَادُ!». قُلْتُ: لاَ بَلْ يُكْسَرُ، وَحَدَّثْتُهُ أَنَّ ذَلِكَ الْبَابَ رَجُلٌ يُقْتَلُ أَوْ يَمُوتُ، حَدِيثًا لَيْسَ بِالأَغَالِيطِ»[1].

* * *

(١) رواه مسلم. وقوله «أسودُ مُرْبادًّا»، أي: شدةُ البياض في سواد. و«الكُوزُ مُجَخِّيًا»: الإبريقُ المنكوس على رأسه، بحيث لا يحتفظ بما فيه.



وإن أول ما يعرض للداعية من الفتن شهوة الشهرة وحب الظهور، وفتنة الرياسة والقيادة، فلا ينجو العبد من ذلك إلا بتجديد الإخلاص، والحرص على تجريد القلب من الأهواء، والاصطبار على مسلك العبدية لله.

الكلمات:

الكلمات الأولى. ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۝ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ۝ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝ مَتَاعٌ

قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ۝ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٨ - ٢٠٠].

الكلمات الثانية: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ۝ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧]

الكلمات الثالثة: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

بيان الكلمات:

البيان الأول: عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « **إِنَّا واللَّهِ لا نُوَلِّي عَلَى هذَا العمَلِ أحدًا سألَهُ ولا أحدًا حرصَ عليْهِ** »(١).

البيان الثاني: عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « **إنَّا لن نَستعْمِلَ على عملِنا مَنْ أرادَهُ** »(٢)

البيان الثالث: عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ، وسَتَكُونُ نَدَامَةً يوْمَ الْقِيامَةِ! فنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ وبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ!** »(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢) متفق عليه

(٣) رواه البخاري

البيان الرابع: عن عَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ سَمُرَةَ ﷺ قال: «قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يا عبدَ الرَّحْمنِ لا تَسْأَلِ الإِمارَةَ، فإنَّك إنْ أُعْطِيتها عَنْ مسأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْها، وإنْ أُعْطِيتَها عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْها» [1].

البيان الخامس: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «مَا مِنْ رجُلٍ يلِي أمْر عشَرةٍ فما فوقَ ذَلك إلا أتى اللَّهَ ﷻ مغلُولًا يومَ القِيامَة يَدُهُ إلى عُنُقِه، فَكَّهُ بِرُّهُ أوْ أَوْبقَهُ إِثْمُهُ، أَوَّلُها ملامةٌ، وَأوْسطُها ندامةٌ، وآخِرُها خِزيٌ يوْمَ الْقِيامَةِ» [2].

البيان السادس: عَنْ جُنْدَبٍ أن النَّبِيَّ ﷺ قال: «من سَمَّعَ سمَّعَ اللَّهُ بِهِ ومَنْ يُرائي يُرائِي اللَّهُ بِهِ» [3].

البيان السابع: عن أبي هريرة قال: «جلسَ جبْريلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فنَظَرَ إلى السَّماء، فإذَا ملَكٌ ينْزِلُ، فقالَ لَهُ جبريلُ: هذا الملَكُ ما نَزَلَ مُنْذُ خُلِقَ قبلَ السَّاعةِ، فلمَّا نزَل قال: يا مُحمَّدُ، أرْسَلَني إليكَ ربُّكَ: أفَمَلِكًا نبيًا يجعَلُكَ أم عبْدًا رَسُولًا؟ قالَ لَهُ جبريلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يا مُحمَّدُ. فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «لا، بَلْ عبدًا رَسُولًا» [4].

* * *

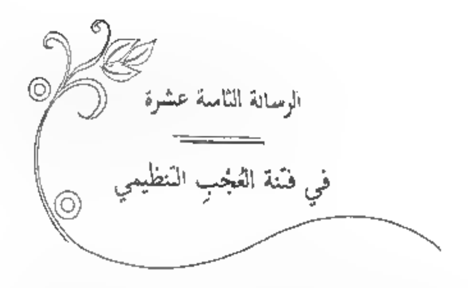
---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه أحمد، وابن حبان، وأبو يعلى. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وصححه الألباني في صحيح الترغيب وفي السلسلة الصحيحة.



الرسالة الثامنة عشرة

في فتنة العُجْبِ التنظيمي

وإنّ خُلُق التواضع الدعوي، والتجرد من كل حول وقوة، والتبرؤ من شهوة «الأنا» الفردية والجماعية وعدم الاغترار بالتكاثر العددي للأتباع؛ هو شرط القبول الرحماني والتأييد الرباني.

الكلمات:

انكمات الأولى. ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة ٢٥، ٢٦].

الكلمات الثانية ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران ١٥٢].

لكلمات الثالثة ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ۝ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم ٣١، ٣٢].

الكلمات الرابعة: ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

الكلمات الخامسة: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٢ - ١٩].

الكلمات السادسة: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾
[الحجرات: ١٥ - ١٨].

بيان الكلمات:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ الغفاري ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال فيما يرويه عن الله تبارَكَ وَتَعالَى: «قالَ اللَّه ﷻ: **يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُم مُحرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُم ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُم، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُم، يَا عِبَادِي كُلُّكُم عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُم، يا عِبادِي إِنَّكُم تُخطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا،**

فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ! وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ! »[1].

* * *

(١) رواه مسلم.



وإن الإسراف في مخالطة النساء بغير ضوابط شرعية، وهتك حجاب الحشمة والحياء، بين الرجال والنساء - شكلاً ومضموناً - من أخطر المهلكات للدعوة والداعية، ومن أخبث التلبيسات الشيطانية، التي يلقيها إبليس على قلوب شباب الدعوة، ذكراناً وإناثاً، باسم «المصلحة الشرعية»، و«الضرورات التنظيمية». وإنما الضرورةُ في كل هذا تُقدَّرُ بقدرِها

الكلمات:

الكلمات الأولى. ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

الكلمات الثانية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

الكلمات الثالثة ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ

وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾

[الأحزاب: ٣٥، ٣٦]

بيان الكلمات:

البيان الأول: عن أسامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ من النساء**»[1].

البيان الثاني: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**كُتِبَ على ابنِ آدمَ نصيبُهُ مِنَ الزِّنَا، مُدرِكٌ ذلكَ لا مَحَالَةَ، فالعينانِ زِناهُما النَّظَرُ، والأُذُنانِ زِناهُما الاسْتِمَاعُ، واللِّسانُ زِناهُ الكَلامُ، واليَدُ زِناهَا البَطْشُ، والرِّجلُ زِناها الخُطَا، والقَلْبُ يَهْوَى ويَتَمنَّى، ويُصَدِّقُ ذلكَ الفَرْجُ ويُكَذِّبُهُ**»[2].

البيان الثالث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**صِنْفانِ مِنْ أهْلِ النَّارِ لَمْ أرَهُما: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِياطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بها النَّاسَ، ونِساءٌ كاسِياتٌ عارِياتٌ، مُمِيلاتٌ مائلاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كأَسْنِمَةِ البُخْتِ المائِلَةِ، لا يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ ولا يَجِدْنَ رِيحَها وإنَّ رِيحَها لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وكَذَا...**»[3].

* * *

(١) متفق عليه.

(٢، ٣) رواه مسلم.



الرسالة العشرون

في فتنة المال

وأن شهوة الترف من أضر الفتن على المؤمن، وأن المال الخبيث - من شتى أنواع الغصب وكل أنواع الربا - من أكبر المهلكات للدين والدعوة! وأن ذلك كله من أخطر ما تبتلى به الدعوات والحركات ورجالاتها! وأن الاصطبار على الصلاة والصيام وتلاوة القرآن، والتخلق بمنازل الزهد والورع من أنجع الأدوية لها.

الكلمات:

الكلمات الأولى: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠ - ١٣٢]

الكلمات الثانية: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٢٧ - ٣٠]

الكلمات الثالثة: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ۝ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٥ - ٤٩].

الكلمات الرابعة: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥ - ٢٨١].

بيان الكلمات:

البيان الأول. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّها النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الـمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَال: «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» وَقَالَ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما رَزَقْنَاكُمْ» ثُمَّ ذكرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى

(١) رواه مسلم.

السَّماءِ « يَا رَبِّ، يَا رَبِّ! » وَمطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، ومَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجابُ لِذَلِكَ؟ »[١]

البيان الثاني: عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ: « سمعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ - وأَهْوى النُّعْمَانُ بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ -: « إِنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُما مُشْتبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ القَلْبُ »[١]

البيان الثالث: عن جابر بن عبد اللَّه ﷺ قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: « لَعَنَ اللَّهُ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ وشَاهِدَيْهِ وَكَاتِبَهُ، هُمْ فِيهِ سَوَاءٌ »[٢].

البيان الرابع: عن عبد اللَّه بن حنظلة ﷺ أَنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: « دِرْهَمُ رِبًا يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَشَدُّ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلاثِينَ زَنْيَةً »[٣].

* * *

(١) متفق عليه. (٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد، والطبراني. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير والسلسلة الصحيحة.



الرسالة الحادية والعشرون

في الاقتصاد

وإنَّ التوسط في العيش هو آية المؤمن الحق، وإن التبذير هو صفة المفتونين بدعاية الشيطان الاستهلاكية، العابدين لأصنام الاقتصاد الاستعماري القاروني

الكلمات:

الكلمات الأولى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦ - ٣٠].

الكلمات الثانية ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ

لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص ٧٦ - ٨٣]

بيان الكلمات:

البيان الأول. عن مقدام بن معدي كرب، قال: « سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما ملأ آدميٌ وعاءً شرًا من بطنٍ بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه » [(١)]

البيان الثاني عن أبي هريرة قال « قال رسول الله ﷺ: « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا » [(٢)].

البيان الثالث عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط. تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع » [(٣)].

البيان الرابع عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال (نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً فقال « ما لي وما للدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها ») [(٤)]

البيان الخامس: عن ابن عمر ﷺ، قال « أخذ الرسول ﷺ بمنكبي، فقال: « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » وكان ابن عمر ﷺ يقول إذا أمسيت

---

(١) رواه أحمد والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي، حديث حسن صحيح

(٢) رواه مسلم. (٣) رواه البخاري.

(٤) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، والضياء، وقال الترمذي، هذا حديث حسن صحيح وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع

فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحتَ فلاَ تنتظر المساءَ وخُذْ مِنْ صحتِكَ لمرضِكَ، ومِنْ حياتِكَ لموتِكَ » [1].

* * *

(١) رواه البخاري



الرسالة الثانية والعشرون

في الْمُكَفِّرَاتِ والْمُطَهِّرَاتِ

وان الذكر، والصلاة، والقيام، والصيام، هو الزاد الأساس لثبات الداعية الى الله أمام الفتن، وأن الصلاة الحقة انما هي التي تصحب صاحبها الى جميع مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية؛ صلاحًا للنفس واصلاحًا للغير. كما ان الصوم هو سلاح المؤمن الداعية، وسر قوته الروحية.

الكلمات:

الكلمات الأولى. ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء: ١٠٣].

الكلمات الثانية ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾

[العنكبوت: ٤٥]

الكلمات الثالثة ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا

مِمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٢ - ١١٧].

الكلمات الرابعة: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٤ - ٨٨].

الكلمات الخامسة: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

بيان الكلمات:

البيان الأول: عن أبي ذرّ الغفاري ومُعاذ بن جبل رضي الله عنهما قالا: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**اتقِ اللهِ حيثما كُنتَ، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حسنٍ**»(١).

البيان الثاني: عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**فتنةُ الرَّجُلِ في أهلِه،**

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم، والبيهقي. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

وماله، ونفسه، وولده، وجاره، يُكفّرها الصِّيامُ، والصلاةُ، والصدقةُ، والأمْرُ بالمعروف والنَّهيُ عن المُنْكر »[١].

البيان الثالث: عن أبي هُريْرةَ ﷺ أن رَسُولَ الله ﷺ قال: « قالَ اللَّه تبارك وتعالى: كُلُّ عملِ ابنِ آدم لَهُ إلا الصِّيامَ فإنَّهُ لِي، وأنا أجْزِي به، والصِّيامُ جُنَّةٌ، وإذا كان يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُم فَلا يرفُثْ، ولا يَصْخبْ، فإنْ سبَّهُ أحدٌ أوْ قاتَلَهُ فلْيقُلْ: إنِّي امْرؤٌ صائِمٌ. وَالَّذِي نفْسُ مُحَمَّدٍ بيده، لَخَلُوفُ فَمِ الصَّائم أَطْيبُ عِنْد اللَّه مِنْ رِيح المِسْكِ. للصَّائم فَرْحَتانِ يفْرَحُهُما: إذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ »[٢].

البيان الرابع: عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « أُوصِيكَ بتقوى اللَّه تعالى فإنه رَأْسُ كُلِّ شيءٍ، وعليك بالجهاد فإنه رَهْبانيةُ الإسلام، وعليكَ بذكر الله تعالى وتلاوةِ القرآن، فإنه رُوحُكَ في السَّماءِ وذِكْرُكَ في الأرض »[٣].

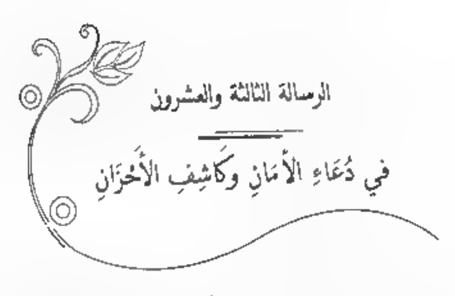
البيان الخامس: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « سيروا هذا جُمْدَانُ سَبَقَ المُفَرِّدُونَ » قالوا: وما المُفَرِّدُونَ يا رسولَ اللَّه؟ قالَ: « الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كثيرًا والذَّاكِرَاتُ »[٤].

* * *

(١، ٢) متفق عليه

(٣) رواه أحمد، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٤) رواه مسلم



الرسالة الثالثة والعشرون

في دُعَاءِ الأَمَانِ وكَاشِفِ الأَحْزَانِ

إن إخلاص الاستعانة بالله، توكّلًا، واستعاذةً، واستغفارًا، ودُعاءً، وابتهالًا إليه تعالى، في كل وقت وحين، هو أمانُ الخائفين ونُصرةُ المستضعفين، وإن ذلك من ضروراتِ السَّيرِ التي لا غِنَى عنها للمؤمنِ والدّاعيةِ.

الكلمات:

الكلمات الأولى ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام ٧٩ - ٨٣]

الكلمات الثانية ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف ٥٤ - ٥٦]

الكلمات الثالثة ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود: ٣].

الكلمات الرابعة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

الكلمات الخامسة ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق: ١ - ٥]

الكلمات السادسة ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ١ - ٦].

بيان الكلمات:

البيان الأول: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: « **أفضلُ العبادةِ الدُّعاءُ** » (١).

البيان الثاني: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « **ليسَ شيءٌ أكرمَ على الله تعالى مِنَ الدُّعاءِ** » (٢).

البيان الثالث: عن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « **إنَّ الله حييٌّ كريمٌ يستحيي إذا رفعَ الرَّجُلُ إليهِ يدَيْهِ أن يرُدَّهُما صفرًا خائبتَيْنِ** » (٣)

البيان الرابع: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « **إنَّهُ مَنْ لمْ يَسأَلِ اللهَ تعالَى يَغضبْ علَيْهِ** » وفي رواية: « **مَنْ لا يدعُو اللهَ يَغضَبْ علَيْهِ** » (٤). وقالت عائشة رضي الله عنها: « سَلُوا اللهَ كلَّ شيءٍ، حتى الشِّسْعَ، فإنَّ اللهَ عز وجل إنْ لم يُيَسِّرْهُ لم يَتَيَسَّرْ » (٥)

(١) رواه الحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) رواه أحمد، والترمذي، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) رواه أبو داود، والترمذي، وحسنه، واللفظ له. ورواه أيضًا ابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، وقال: « صحيح على شرط الشيخين » وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

(٤) أخرجه أحمد، والترمذي، والبيهقي، والطبراني، والبخاري في الأدب المفرد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، ثم صححه الألباني في صحيح الجامع، بينما قال في السلسلة الصحيحة: « هو حديث حسن ».

(٥) الشِّسْع: أحد سُيُور النَّعْل، مما يعقد به. والحديث موقوف على عائشة رضي الله عنها، وقد أخرجه أبو يعلى في مسنده، والبيهقي في شعبه، وكذا ابن السني رقم: (٣٤٩) وقد ضعف الألباني رفعه في صحيح الجامع، وفي السلسلة الصحيحة بينما حسن وقفه على عائشة رضي الله عنها.

البيان الخامس: عن الأغرّ المُزني أنّ النبي ﷺ قال: « يا أيها النّاسُ تُوبُوا إلى رَبِّكُم، فوَاللّهِ إنّي لأتُوبُ إلَى اللّهِ ﷻ في اليومِ مِائَةَ مَرّةٍ »[1]

البيان السادس: عن الزبير بن العوام رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « مَنْ أَحَبَّ أنْ تسُرّهُ صحيفته فليُكثِرْ فيها من الاستغفارِ »[2].

البيان السابع: عَنْ عَبْدِ اللّه بْنِ خُبَيْبٍ قالَ: « خَرَجْنَا في لَيْلَةٍ مَطِيرةٍ وَظُلْمَةٍ شَدِيدَةٍ نَطْلُبُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يُصَلّي لَنَا، قَالَ: فَأَدْرَكْتُهُ فَقَالَ: « قُلْ » فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمّ قَالَ: « قُلْ ». فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثم قَالَ: « قُلْ » فَقُلْتُ: مَا أَقُولُ؟ قَالَ: « قُلْ هُو اللّه أَحَدٌ والمُعوِّذَتَيْنِ، حِينَ تُمْسِي وَتُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرّاتٍ، تَكْفِيكَ مِنْ كُلّ شَيْءٍ »[3]

* * *

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البيهقي، والضياء. وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) رواه أبو داود، والنسائي، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب. وصححه الألباني في صحيح الجامع، وفي صحيح الترغيب.



١ - القرآن الكريم.

٢ - الأربعون النووية للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي

٣ - حلية الأولياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، نشر دار الكتاب العربي، بيروت. ط. الرابعة: (١٤٠٥هـ).

٤ - سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، نشر مكتبة المعارف بالرياض، لصاحبها سعد بن عبد الرحمن الراشد. طبعة جديدة بتاريخ (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

٥ - سنن أبي داود، دار إحياء التراث العربي، دار الكتب العلمية، بيروت

٦ - سنن ابن ماجه، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٧ - سنن الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٨ - سنن الدارمي، دار الكتاب العربي: (١٩٨٧م).

٩ - سنن النسائي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٠ - شعب الإيمان للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، نشر دار الكتب العلمية بيروت، ط. الأولى (١٤١٠هـ).

١١ - صحيح البخاري، دار القلم، بيروت: (١٩٨٧م).

١٢ - صحيح الترغيب والترهيب للحافظ المنذري، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط. الثانية: (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)

١٣ - صحيح الجامع الصغير وزيادته، تأليف محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت/دمشق ط. الثالثة: (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)

١٤ - صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، (١٩٧٢م).

١٥ - المسند للإمام أحمد بن حنبل، نشر المكتب الإسلامي (١٩٨٥م).

١٦ - الموطأ للإمام مالك بن أنس، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٩٨٥م).

مراجع عامة.

١٧ - أبجديات البحث في العلوم الشرعية، فريد الأنصاري، منشورات الفرقان، الدار البيضاء.

١٨ - الأخطاء الستة للحركة الإسلامية بالمغرب، طبع دار الكلمة، منشورات « رسالة القرآن »، مكناس المغرب، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).

١٩ - بلاغ الرسالة القرآنية، تأليف فريد الأنصاري، منشورات ألوان مغربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

٢٠ - البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي، تأليف فريد الأنصاري، منشورات ألوان مغربية، ط دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط الأولى (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م).

٢١ - تجديد أصول الفقه للدكتور حسن الترابي

٢٢ - تفسير ابن كثير المسمى « تفسير القرآن العظيم »، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار الفكر بيروت، (١٤٠١هـ)

٢٣ - تفسير الطبري، المسمى « جامع البيان عن تأويل آي القرآن »، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، نشر دار الفكر، بيروت: (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

٢٤ - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب: (١٣٨٧هـ)

٢٥ - التوحيد أولًا يا دعاة الإسلام (٢٥ - ٢٩) مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض. ط. الثانية (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)

٢٦ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠٣/٤)، نشر دار الشعب، القاهرة ط الثانية (١٣٧٢هـ)، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني.

٢٧ - الحركات الاجتماعية. تحولات البنية وانفتاح المجال. بحث للدكتور إبراهيم البيومي غانم، منشور على الموقع الإلكتروني. « إسلام أون لاين »

٢٨ - الحركات الاجتماعية المفهوم والتاريخ. للباحثين: (ربيع وهبة، وجوزيف شكلا)، بحث منشور على الموقع الإلكتروني:
http://www.hic-mena.org/homea.htm

٢٩ - زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، تحقيق الشيخين عبد القادر الأرناؤوط وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت: (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)

٣٠ - شرح الحكم العطائية، للشرنوبي.

٣١ - شرح النووي على صحيح مسلم. نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت ط. الثانية: (١٣٩٢هـ).

٣٢ - عارضة الأحوذي بشرح سنن الترمذي، لأبي بكر بن العربي المعافري، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٣ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، نشر دار المعرفة بيروت.

٣٤ - الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب، دراسة في التدافع الاجتماعي. فريد الأنصاري. مشورات الفرقان الدار البيضاء (سلسلة: الحركة لكم رقم ٣) مطبعة النجاح الجديدة. ط. الأولى (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)

٣٥ - قناديل الصلاة مشاهدات في منازل الجمال، فريد الأنصاري، نشر دار الكلمة مصر/ المنصورة. ط. الثانية. (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

٣٦ - مجموع فتاوى شيخ الإسلام الإمام تقي الدين بن تيمية. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد. مكتبة المعارف بالرباط، المغرب.

٣٧ - مفهوم العالمية، تأليف فريد الأنصاري مشورات رسالة القرآن (رقم ١). طبع دار الكلمة، مكناس/ المغرب: (٢٠٠٦م).

٣٨ - كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس،

لإسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي. تحقيق أحمد القلاش، نشر مؤسسة الرسالة بيروت. ط. الرابعة (١٤٠٥هـ).

٣٩ - كليات رسائل النور تأليف بديع الزمان سعيد النورسي. ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نشر دار (سوزلر) للنشر، فرع القاهرة ط ٢ بمصر (١٤١٢هـ/ الموافق ١٩٩٢م).

٤٠ - لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت.

٤١ - مجالس القرآن، تأليف فريد الأنصاري، منشورات ألوان مغربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

٤٢ - مجمع الزوائد للإمام علي بن أبي بكر الهيثمي، نشر دار الريان للتراث، القاهرة، ودار الكتاب العربي، بيروت (١٤٠٧هـ).

٤٣ - معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس. تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل. بيروت، ط: الأولى (١٤١١هـ/١٩٩١م).

٤٤ - المفردات في غريب القرآن. تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني. تحقيق محمد سيد كيلاني. طبع شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر: (١٣٨١هـ/١٩٦١م).

٤٥ - المقاومة المدنية: مدارس العمل الجماهيري وأشكاله، للدكتور عبد الهادي خلف. نشر مؤسسة الأبحاث العربية (ش.م.م) بيروت، لبنان.

٤٦ - الموافقات للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت: ٧٩٠هـ) بشرح الشيخ عبد الله دراز. نشر دار المعرفة. بيروت. ط. الثانية: (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م).

٤٧ - ميثاق العهد في مسالك التعرف إلى الله. تأليف فريد الأنصاري. مطبعة أنفوبرانت فاس/ المغرب.



- ولد بإقليم الرشيدية جنوب شرق المغرب سنة: (١٣٨٠هـ/١٩٦٠م).

- حاصل على دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، من جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب المحمدية - المغرب.

- حاصل على دبلوم الدراسات العليا « دكتوراه السلك الثالث » في الدراسات الإسلامية تخصص أصول الفقه، من جامعة محمد الخامس، كلية الآداب - الرباط.

- حاصل على دبلوم الدراسات الجامعية العليا (نظام تكوين المكونين) « الماجستير » في الدراسات الإسلامية - تخصص أصول الفقه، من جامعة محمد الخامس، كلية الآداب - الرباط.

- حاصل على الإجازة في الدراسات الإسلامية من جامعة السلطان محمد ابن عبد الله، كلية الآداب - فاس / المغرب.

- صدر له من الدراسات العلمية:

١ - أبجديات البحث في العلوم الشرعية: محاولة في التأصيل المنهجي، نشر دار السلام، القاهرة (٢٠١٠م).

٢ - الأخطاء الستة للحركة الإسلامية بالمغرب، مطبعة الكلمة، مكناس / المغرب، (٢٠٠٧م).

٣ - بلاغ الرسالة القرآنية، نشر دار السلام، القاهرة : (٢٠٠٩م).

٤ - التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، نشر دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة: (٢٠١١م).

٥ - جمالية الدين: معارج القلب إلى حياة الروح، نشر دار السلام، القاهرة: (٢٠٠٩م).

٦ - سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة، نشر دار السلام، القاهرة (٢٠٠٩م).

٧ - الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب، دراسة في التدافع الاجتماعي، نشر حلر السلام، القاهرة: (٢٠١٦م).

٨ - الفطرية بعثة التجديد المقبلة: من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام، نشر دار السلام، القاهرة: (٢٠٠٩م).

٩ - قناديل الصلاة « كتاب في المقاصد الجمالية للصلاة »، نشر دار السلام، القاهرة: (٢٠٠٩م).

١٠ - مجالس القرآن من التلقي إلى التزكية، نشر دار السلام، القاهرة: (٢٠٠٩م).

١١ - المصطلح الأصولي عند الشاطبي (أطروحة دكتوراه)، نشر دار السلام، القاهرة: (٢٠١٠م).

١٢ - مفاتح النور، دراسة للمصطلحات المفتاحية لكليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي، نشر مركز النور للدراسات والبحوث بإستنبول بالاشتراك مع معهد الدراسات المصطلحية بفاس، مطبعة نسل بإستنبول، (٢٠٠٤م).

١٣ - مفهوم العالمية، نشر دار السلام، القاهرة: (٢٠١١م).

١٤ - ميثاق العهد في مسالك التعرف إلى الله، نشر دار السلام، القاهرة: (٢٠١١م).

- ومن الأعمال الأدبية:

١ - آخر الفرسان، رواية، نشر دار النيل، إستنبول: (٢٠٠٦م).

٢ - جداول الروح: شعر مشترك مع الشاعر المغربي عبد الناصر لقاح، مطبعة سندي، مكناس: (١٩٩٢م).

٣ - ديوان الإشارات، طبع دار النجاح الجديدة، منشورات الدفاع الثقافي بالمغرب: (١٩٩٩م).

٤ - ديوان القصائد: شعر، نشر دار السلام، القاهرة: (١٩٩٢م).

٥ - كشف المحجوب: رواية، نشر دار السلام القاهرة: (٢٠١١م).

٦ - الوجد: شعر مطبعة أنفوبرانت، فاس: (١٩٩٧م).

* * *